

للإمام المجدد شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة

وهو شرح مجموع من كلام عدد من الأئمة الأعلام
كالنووي وابن حجر والطيبي والمناوي
والسعدي وابن عثيمين وغيرهم

جمعه ونسقه وخرج أحاديثه واعتنى به

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

مكتبة الرشد
ناشرون

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م

مكتبة الرشد للنشر والتوزيع

* المملكة العربية السعودية . الرياض . طريق الحجاز



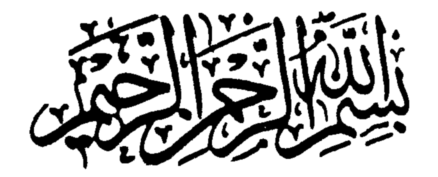
ص ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ فاكس ٤٥٧٣٣٨١
E-MAIL: alrushd@suhuf.net.sa
www.alrushd.com

* فرع مكة المكرمة: ـ هاتف ٥٥٨٥٤٠١ ـ ٥٥٨٣٥٠٦
* فرع المدينة المنورة: ـ شارع أبي ذر الغفاري ـ هاتف ٨٣٤٠٦٠٠
* فرع القصيم بريدة طريق المدينة ـ هاتف ٣٢٤٢٢١٤
* فرع أبها: ـ شارع الملك فيصل هاتف ٢٣١٧٣٠٧
* فرع الدمام: ـ شارع ابن خلدون ـ هاتف ٨٢٨٢١٧٥

وكلاؤنا في الخارج

* الكويت: ـ مكتبة الرشد ـ حولي ـ هاتف: ٢٦١٢٣٤٧
* القاهرة: ـ مكتبة الرشد ـ مدينة نصر ـ هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥
* بيروت: ـ الدار اللبنانية ـ شارع الجاموس ـ هاتف: ٠٠٩٦١٣٨٤٣٤٥٧
* عمان: الاردن - دار النبلاء - هاتف: ٥٣٣٢٦٥٨


تذكير أولي البصائر
بشرح
كتاب الكبائر


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

فإن الاشتغال بالعلم من أفضل القرب وأجلّ الطاعات، وأهم أنواع الخير وآكد العبادات، وأولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات، وشمر في إدراكه والتمكن فيه أصحاب الأنفس الزكيات، والقلوب التقيات، وبادر إلى الاهتمام به المسارعون إلى الخيرات، وسابق إلى التحلي به مستبقون المكرمات، المتطلعون إلى رضى رب البريات، الطامحون في جنات فاطر الأرض والسموات.

وقد تظاهر على ما ذكرته جمل من الآيات الكريمات، والأحاديث الصحيحة المشهورات، وأقاويل السلف رضي الله عنهم النيرات، ولا ضرورة إلى ذكرها هنا لكونها من الواضحات الجليات.

فينبغي الاعتناء بالعلم والتحريض عليه لتلك الدلالات، ولكونه أيضاً من النصيحة لله تعالى وكتابه ورسوله ﷺ وللأئمة والمسلمين و المسلمات، وذلك هو الدين كما صح عن سيد البريات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وذريته وأزواجه الطاهرات.

ولقد ألف العلماء الثقات، الكثير من المصنفات، والمؤلفات النافعات، المليئة بالكنوز الخفيات، والفوائد البارزات والكامنات، فاستخرت الله تعالى في استخراج هذه اللآلىء الخفيات، والفرائد والدرر الكامنات، من هذه المؤلفات النافعات، بشروح متوسطة بين المختصرات والمبسوطات، لا من المختصرات المخلات، ولا من المطولات المملات. فأذكر منها إن شاء الله جملاً من علومها الزاهرات، من أحكام الأصول والفروع والآداب والإشارات الزهديات، وأبين فيها نفائس من أصول القواعد الشرعيات، وأوضح فيها معاني الألفاظ اللغوية والمبهمات، وأرتب ذلك في فصول متتابعات، أو أبواب متتاليات، ليكون أسهل في مطالعته وأبعد من السآمات.

وقد أعانني ربُ البريات، في إتمام الكثير من تلك الشروح الوافيات، على كتب أهل العلم النيرات، ومن أمثلة ذلك:

١ ـ تذكير أولي البصائر بشرح كتاب الكبائر للإمام محمد بن عبد الوهاب (وهو كتابنا هذا).

٢ ـ تبصير أولي السرائر بشرح كتاب الكبائر للإمام شمس الدين الذهبي.

٣ ـ تيسير السلام في شرح كتاب فضل الإسلام للإمام محمد بن عبد الوهاب.

٤ ـ تيسير الرحمن في شرح كتاب فضائل القرآن للإمام محمد بن عبد الوهاب.

٥ ـ تيسير المنان في شرح كتاب أصول الإيمان للإمام محمد بن عبد الوهاب.

٦ ـ تيسير رب البرية في شرح الأربعين النووية للإمام النووي.

٧ ـ شرح كتاب الأربعين حديثاً للإمام الآجري.

وغير ذلك من تلك الجواهر الكامنات.

وأنا مستمد المعونة والصيانة واللطف والرعاية من الله الكريم رب الأرضين والسموات، مبتهلاً إليه سبحانه أن يوفقني ومشايخي وسائر المسلمين بحسن النيات، وأن ييسر لنا الطاعات، وأن يهدينا لها دائماً في ازدياد حتى الممات، وأن يجود علينا برضاه ومحبته ودوام طاعته والجمع بيننا في دار كرامته وغير ذلك من أنواع المسرات، وأن ينفعنا أجمعين ويجزل لنا المثوبات، وأن لا ينزع منا ما وهبه لنا ومنّ به علينا من الخيرات، وأن لا يجعل شيئاً من ذلك فتنة لنا وأن يعيذنا من كل شيء من المخالفات، ويثبتنا على طريقه حتى الممات، إنه مجيب الدعوات، جزيل العطيات، كثير المن والهبات، اعتصمت بالله، وتوكلت عليه، ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي الله ونعم الوكيل، وله الحمد والفضل والمنة والنعمة، وبه التوفيق واللطف والهداية والعصمة.

وكتب

الفقير إلى عفو ربه المنان

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

عامله الله بلطفه الخفي



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

ترجمة شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب[1]

(١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ)

هو شيخ الإسلام ومصباح الظلام ومفيد الأنام، الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن عقبة بن سنيع بن نهشل بن شداد بن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي سود بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وإلى هنا يقف ثقات الرواة، وإلاً فبعض أهل النسب بلغ بهذا النسب إلى آدم عليه السلام بمائة وثمانين جدّاً ولكنه لم يثبت.

وهذا النسب إلى عقبة منقول بالتواتر من خطوط علماء الوهبة المعتبرين المجمع على علمهم وثقتهم واطلاعهم من أمثال الشيخ سليمان بن علي والشيخ أحمد بن محمد بن باسم والشيخ أحمد بن محمد البجادي والشيخ أحمد بن محمد بن حسن القصير والشيخ عبد المحسن بن شارخ المشرفي والشيخ محمد بن أحمد القاضي.

---

(١) من كتاب علماء نجد خلال ثمانية قرون، لفضيلة العلامة عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام حفظه الله تعالى، ونفع به وبعلومه، وبارك في عمره، ومتعه بالصحة والعافية والسلامة وراحة البال.

ومن عقبة إلى إلياس منقول عن ثقات النسّابين والمؤرخين من أمثال العالم النسابة ابن الكلبي صاحب الجمهرة في الأنساب وياقوت الحموي الكاتب.

ومن إلياس يلتقي هذا النسب بالنسب النبوي الشريف.

ونود شرح هذا النسب وتوضيح أصوله وفروعه بإسهاب، ولكنه يخرج بنا عن الموضوع، فالشيخ ينسب فيقال ـ المشرفي ـ فنسبته إلى جده (مشرف) فأسرته آل مشرف، ويقال (الوهيبي) نسبة إلى جد أعلى هو (وهيب) جد الوهبة الذين هم بطن كبير من حنظلة في بني تميم. وينسب فيقال (التميمي) نسبة إلى أبي القبيلة الشهيرة عامة وهو (تميم).

أما والدة الشيخ محمد ـ رحمه الله ـ فهي بنت محمد بن عزاز المشرفي الوهيبي التميمي فهي من عشيرته الأدنين.

وقد انفردت بالاطلاع على أخوال الشيخ محمد بن عبد الوهاب بين المؤرخين المتأخرين بسبب وثيقة مخلفة بعد المؤرخ الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى رحمه الله.

فنسبه ينتهي إلى قبيلة (بني تميم) وهي أشهر قبيلة في الجاهلية والإسلام.

وقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما زلت أحب بني تميم من ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: هم أشد أمتي على الدجال، قال: وجاءت صدقاتهم فقال النبي ﷺ: هذه صدقات قومنا، قال: وكانت سبية منهم عند عائشة رضي الله عنها فقال رسول الله ﷺ: أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل». أخرجه البخاري ومسلم.

وهو من (بطن حنظلة) الذين قال فيهم ذو الرمة:

.... ثم حنظلة الخيارا

ثم هو من فخذ آل مشرف، ومشرف هذا مشهور بالكرم والاستقامة والفضل، وهو الذي أنشأ بلدة (الفرعة) لكن استولىٰ عليها بعد (النواصر) من بني تميم، وقبر مشرف لا يزال في (الفرعة) معروف.

أسرة الشيخ:

هو من بيت علم كبير قد توارثوه أباً عن جد، وباطلاعك على هذا الكتاب ستجد طائفة كبيرة كلهم من علماء (آل مشرف) مع أننا لم ننسب بعضهم إلى مشرف ـ وإن كان منهم ـ لاعتبار جد أقرب منه، وإليك أسماء القريبين منه:

١ ـ جده الشيخ سليمان بن علي هو رئيس علماء نجد وأوسعهم علماً وأنبههم ذكراً، فهو مرجع علماء نجد عامة، وهو ممن ولي قضاء العيينة.

٢ ـ والده الشيخ عبد الوهاب عالم كبير تولى قضاء العيينة أربعة عشر عاماً، أولها سنة ١١٢٥ هـ، وذلك بين وفاة الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله فأقام إلى سنة ١١٣٩هـ، ثم انتقل إلى حريملاء، وولي قضاءها أربعة عشر عاماً إلى وفاته سنة ١١٥٣هـ.

٣ ـ الشيخ إبراهيم بن سليمان بن علي عالم كاتب مشهور، وهو عم الشيخ محمد.

٤ ـ الشيخ أحمد بن سليمان بن علي من أهل العلم وهذا عمه الثاني.

٥ ـ الشيخ سليمان بن عبد الوهاب وهو أخو الشيخ.

٦ ـ أبناء الشيخ محمد خمسة كلهم من العلماء الكبار.

٧ ـ خال الشيخ محمد هو الفقيه الشيخ سيف بن محمد بن عزاز.

٨ ـ أبناء أخيه سليمان وأحفاده كلهم علماء.

بلد الشيخ وتنقُّله:

تقدَّم أن الشيخ من (الوهبة) وهذا البطن من تميم مقرهم في بلدة أشيقر ـ إحدى بلدان الوشم ـ فكانت أسرته آل مشرف مقيمين فيها مع جماعتهم حتى ولد جده العلامة الشيخ سليمان بن علي ونشأ فيها وأخذ العلم عن علمائها، وأخذ عنه بعضهم، وكان صاحب عقارات في (أشيقر) ومن عقاراته بستان ونخل يسمى (الدخينية) وآخر يسمى (المسورية) تركها واستولى عليها بعد أناس في أشيقر يقال لهم (آل خريف) فلما ظهر أمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب جاء أحد المستولين عليها وهو ـ عبد العزيز بن خريف ـ فقال للشيخ رحمه الله: (يا شيخ بأيدنا سبل لكم وأبيك تمضيها لي) فقال له الشيخ محمد رحمه الله: (ما أستر خصتنا أول ولا نحن بجايينك فيها تالي).

فقال عبد العزيز بن خريف المذكور لحفيده خلف بن خريف: (اعلم أن الدخينية والمسورية لسليمان بن علي فأنت كلها ما دام ما جاك لها أحد).

والقصد أن الشيخ سلميان كان مقيماً في أشيقر حيث ولد ونشأ وتعلم حتى طلبه أهل (روضة سدير) قاضياً لهم فانتقل إليهم، فصار بينه وبين أعيانها خلاف فغضب الشيخ، وانتقل إلى العيينة وصار قاضياً فيها واستوطنها وقدم عليها فيها جدنا الشيخ أحمد بن محمد بن بسام، فتزوج الشيخ سليمان بنته ـ فاطمة ـ فولدت له عبد الوهاب والد الشيخ محمد وابنه الثاني إبراهيم بن سليمان، وتوفي الشيخ سليمان في العيينة، وولد فيها ونشأ وتعلم ابنه عبد الوهاب ثم صار قاضياً فيها وتزوج فيها الشيخ عبد الوهاب، وزوجته هي بنت محمد بن عزاز المشرفي فولدت له الشيخ محمد ـ رحمه الله تعالى ـ عام ١١١٥ هـ في العيينة، ونشأ فيها وشرع في طلب العلم عن والده حتى أدرك قسطاً طيباً من العلم، ثم استأذن والده

في الحج فسافر إلى مكة وأدى فريضة الحج وقصد المدينة وأقام فيها نحو شهرين، ثم عاد إلى العيينة فتزوج واستمر في طلب العلم على والده وعلى غيره من علماء العيينة، وكذلك ولد للشيخ عبد الوهاب ابنه سليمان بن عبد الوهاب من زوجته بنت محمد بن عزاز المشرفي.

حالة نجد الاعتقادية في ذلك الزمن:

نحب أن نمضي في سيرة الشيخ حتى النهاية ولكن هنا يحسن أن نوضح أحوال نجد العلمية والاعتقادية فإن هذه الفترة من حياة الشيخ هي نقطة التحول من حال إلى حال أخرى فنقول:

يوجد في بلدان نجد فقهاء وعلماء في ذلك الزمن وقبله بقرون متطاولة إلاً أن جلّ اهتمامهم بالفقه والمسائل الفرعية فهم مقتصرون على بحث مسائل الفقه وتحريرها وتحقيقها وحفظ متونها واستيعاب شروحها وحواشيها، أما العلوم الشرعية الأخرى فنصيبهم فيها قليل، فليس هناك عناية بالتوحيد وتحقيقه ولا بالتفسير ولا بالحديث وشروحه بل حتى العلوم العربية لا يهتمون بها إلاً بما يقوّم اللسان، وهم لذلك لا ينكرون على العامة ما هم واقعون فيه من تعظيم القبور والغلو في الصالحين والنذر لغير الله والحلف بغير الله والاعتقاد في بعض المسميات، ويرى هؤلاء العلماء جواز التوسل بذوات الصالحين كما يجيزون شد الرحال إلى القبور، فعند علماء نجد وعند عامتهم ما عند علماء الأمصار، وما عند عامتهم من هذه الأمور البدعية الشركية.

سفر الشيخ:

سافر الشيخ محمد من نجد وهي في هذه الحال وأهلها على هذا الاعتقاد - سافر إلى مكة المكرمة للحج والتزود من العلم، فلما أكمل حجه شرع في طلب العلم في مكة المكرمة، فأخذ يتردد على علمائها ويباحثهم حتى استفاد منهم، ثم توجه الشيخ محمد إلى المدينة النبوية فوجد فيها عالمين سلفيين أحدهما: الشيخ المحدِّث محمد حياة السندي فقرأ عليه وأخذ عنه، وفي أحد الأيام رأى الشيخُ محمد حياة الشيخَ محمد بن عبد الوهاب واقفاً عند الحجرة النبوية والعامة يعملون عندها ويقولون ما لا يليق من البدع والتوسلات الشركية فسأله شيخه محمد حياة عن رأيه في أولئك، فقال الشيخ: (هؤلاء قوم ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً). واستفاد من هذا العالم وأجازه.

أما العالم الآخر فهو الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف بن عبد الله الشمري السديري النجدي ثم المدني فهو من أهل المجمعة عاصمة سدير الذي استوطن المدينة المنورة ووُلد له فيها الشيخ إبراهيم بن سيف صاحب «العذب الفائض لشرح ألفية الفرائض». فقد أخذ عنه الشيخ محمد مسلسل الحنابلة بالأولية وذلك في أول لقاء علمي بينهما حيث التسلسل يقع في هذه الجملة (وهو أول حديث سمعته منه). ثم شرع في القراءة عليه والاستفادة منه، وكثيراً ما يأتيه الشيخ في بيته الواقع في مزرعته خارج المدينة، وفي إحدى الزيارت قال الشيخ عبد الله لتلميذه الشيخ محمد: ألا تحب أن أريك سلاحاً أعددته لبلدي المجمعة فقال الشيخ: نعم. قال الشيخ: فأدخلني منزلاً عنده فيه كتب كثيرة فقال: هذا هو السلاح الذي أعددته لها، إلاّ أن الشيخ عبد الله بن سيف لم يقدر له العودة إلى المجمعة بل بقي في المدينة واستوطنها هو وذريته من بعده، وصارت ذريته تعرف بالمدينة ببيت «الفرضي» نسبة إلى ابنه الشيخ إبراهيم صاحب «العذب الفائض». كما أنهم تولوا بعد ذلك وظيفة الأذان في

الحرم النبوي الشريف وتداولوا هذه الوظيفة إلى نهاية القرن الثالث عشر ولا أعلم عنهم الآن هل لا يزال لهم بقية أو انقرضوا؟

والقصد أن الشيخ محمد ـ رحمه الله تعالى ـ تزود من علماء الحرمين الشريفين ثم رحل إلى البصرة للاستزادة من العلم فقرأ على علماء البصرة، وكان من العلماء الذين لازمهم الشيخ محمد المجموعي البصري وقراءته في مدرسة البصرة، فوجد الشيخ في هذه الرحلة العلمية إلى الحرمين الشريفين وإلى البصرة من العلم غير ما وجده في نجد حيث إن دروس علمائها لا تتجاوز فقه مذهب الإمام أحمد، وهكذا قرأ في التفسير والحديث وشروحه وعلوم العربية وغيرها حتى أدرك في ذلك كل.

ثم إن الشيخ في مدة إقامته في البصرة أخذ ينكر على العلماء والعامة أعمالهم البدعية والشركية وينهاهم عنها ويجادلهم فيها، واستحسن شيخه المجموعي هذا منه ودخلت العقيدة الصحيحة في قلبه، وحدث الشيخ عثمان بن منصور الذي ذهب إلى البصرة والزبير أن أولاد هذا العالم المجموعي أحسن أبناء بلادهم عقيدة وصلاحاً بفضل الله تعالى ثم ببركة اجتماع والدهم بالشيخ محمد ـ رحمه الله ـ. وفي هذه الفترة قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: إنه صنف كتابه ـ كتاب التوحيد ـ بالبصرة لنفع هؤلاء العامة الجهلة، وقيل: ألفه في حريملاء بعد ما قدم من البصرة.

وأما عامة الناس وخاصتهم فلم يقبلوا منه وآذوه أشد الأذى وأخرجوه وقت الهاجرة، فخرج من البصرة ميمّماً الزبير ماشياً وحده فأدركه العطش الشديد وأشرف على الهلاك، فوافاه صاحب حمار مكاري يقال له ـ أبو حميدان ـ من أهل بلد الزبير وهو مشرف على الهلاك، فسقاه وحمله على حماره حتى وصل الزبير، فأراد مواصلة السفر إلى الشام لتمام مقصده من العلم فضاعت نفقته التي معه فانثنى عزمه عن المسير إليه، فقصد الأحساء ونزل على العالم المشهر الشيخ عبد الله بن

محمد بن عبد اللطيف الأحسائي الشافعي فأكرمه وأحسن وفادته واجتمع بعلماء الأحساء، وممن اجتمع به الشيخ عبد الله بن فيروز والد العالم الأحسائي الشهير محمد بن فيروز فسرّ به الشيخ محمد.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في معرض حديثه عن رحلة الشيخ محمد وسفره: (ثم إن شيخنا رحمه الله رحل إلى الأحساء وفيها فحول العلماء منهم: عبد الله بن فيروز أبو محمد الكفيف ووجد عنده من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ما سرّ به وأثنى على عبد الله هذا بمعرفته لعقيدة الإِمام أحمد). اهـ.

كما أنه كان بينهما صلة قراءة ونسب وصهر، فأما النسب فكلاهما من الوهبة، وأما القرابة والمصاهرة فإن عبد الله بن فيروز هو ابن عمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وفي مدة هذه الرحلة صار بين والد الشيخ وبين رئيس مدينة العيينة محمد بن حمد بن عبد الله بن معمر خلاف فعزل الشيخ عبد الوهاب عن قضاء العيينة، فارتحل الشيخ عبد الوهاب بأهله إلى بلدة حريملاء عاصمة بلدان الشعيب، فسكنها وولي القضاء فيها.

عاد الشيخ محمد من رحلته العلمية إلى نجد فقصد حريملاء لعلمه أن والده فيها، وهكذا عاد الشيخ من هذه الرحلة وقد علم من أحوال الناس ومعتقداتهم ما أسخطه، كما جالس العلماء في هذه الأمصار وعرف ما عندهم من ضروب الاستقامة والانحراف فزادته هذه الرحلة بصيرة وخبرةً وعلماً وإدراكاً للأمور.

ولما حل الشيخ عند والده في حريملاء استأنف القراءة على والده وصار له أوقات خاصة يطالع فيها كتب التفسير والحديث والأصول وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم فوجد في كتب هذين الإمامين من العلوم الصحيحة والأقوال المبنية على الكتاب والسنة والتحقيق والأحكام المطابقة

للعقل والنقل ما زاده بصيرة وفهماً وتحقيقاً، وصادف هذا الاطلاع من الشيخ ذهناً حادّاً، وفكراً نيراً، وفهماً صحيحاً، وتحرزاً من التقليد وبعداً عن الجمود وطلباً للحق في مراجعه الصحيحة ومنابعة الأولى.

كل هذه المؤهلات وتلك المواهب جعلت منه عالماً متبصراً وإماماً متحرراً ووجد عامة الناس يهيمون ويتعبدون بلا علم، وعلماؤهم يرددون كتب الفروع متقيدين بمسائلها متمسكين بحرفيتها، فأراد لهم الإصلاح فنادى بدعوته في بلدة حريملاء وندد بتلك العادات والعبادات التي ليست على بصيرة وأراد الرجوع بالناس إلى تصحيح العقيدة وخلوص العبادة، ونقاوة الدين، وصفاء التوحيد، فصادف معارضة قوية ومشادة متينة وأذية كبيرة، إلاّ أن هذا لم يثنه عن عزمه، ولم يصده عن مقصده، ولم يفت من عضده شأن الدعاة المصلحين وما يلقون في سبيل دعوتهم من الاضطهاد.

وقد بدأ الشيخ بدعوته في حياة والده فكان والده لا يريد منه الشدة على الناس إلاّ أن الشيخ مصمم على ما أراد، ولكنه لم يجهر بدعوته إلاّ بعد وفاة والده عام ١١٥٣ هـ، فجلس للتدريس والإفادة وتقرير العقيدة الصحيحة فتبعه بعض أهل هذه البلدة ـ حريملاء ـ ثم اشتهر أمره وذاع صيته وشاع خبره، فوفد عليه أناس كثيرون من البلدان المجاورة وشرعوا بالقراءة عليه في كتب التفسير والحديث والتوحيد والسيرة والفقه فكثر أتباعه فصار ينكر ما يراه مخالفاً للشريعة.

ومن ذلك أن مَوَالِياً لرؤساء حريملاء كانوا يفسدون ويفسقون، فأراد منعهم من الفساد والتعدي والأذية فهمّ هؤلاء الأوباش بالفتك به وقتله سرّاً، وتسوروا عليه جدار بيته فعلم بهم الناس وصاحوا بهم فهربوا.

فأراد الشيخ البعد عن هؤلاء الأشرار، كما أن هذه القرية لا تكفي لتكون مجالاً لدعوته ونشرها فلا بدّ من بلاد واسعة ومكان رحب، فكانت مدينة ـ العيينة ـ هي أكبر بلدان نجد وأكثرها سكاناً فقصدها وأميرها يومئذٍ

عثمان بن حمد بن عبد الله بن محمد بن معمر، فاستقبله الأمير بالحفاوة والإكرام وقبول الدعوة والمناصرة والمؤازرة على دعوته، وألزم الخاصة والعامة بامتثال أمره وقبول قوله، فصار للشيخ زيادة نشاط في القول وصار له نشاط فعلي، فقطع الأشجار المعظمة وكسر الأحجار المقصودة وهدم القباب المشيدة على القبور، ومنها القبة المقامة على القبر المنسوب لزيد بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فاشتهر أمره وطارت أخباره وذاع صيته فكثر أتباعه، إلاً أن المعارضين والمعاندين أكثر من الموالين فأذاعوا عنه الأكاذيب وأشاعوا عنه البهتان ورموه بالزور. ولا غرابة في ذلك فكل دعوة إصلاحية تصاب بمثل هؤلاء الأعداء ويقف في سبيلها المعاندون والمغرضون والحساد والجاهلون، إلاً أن الدعوة في العيينة بلغت المسامع ووعتها القلوب.

انتقال الشيخ من العيينة إلى الدرعية:

بلغت دعوة الشيخ حاكمَ الأحساء (سليمان بن محمد بن عرير الحميدي الخالدي) وعظم عنده القصد منها والخوف من عواقبها على سلطانه كما بلغته مشوهةً مزورةً، فكتب ابن عرير إلى الأمير عثمان بن معمر بإخراج الشيخ من بلده، وإن لم يفعل فسيقطع عنه مرتباته الشهرية وليغزونه في عقر داره، فعلم أن لا طاقة له بملك الأحساء ومعاداته، فطلب من الشيخ مغادرة بلدته، ولم يصل إلى الشيخ منه أذية ولم يأمر مرافقه إلى الدرعية بقتله، كما جاء في ذلك في بعض نسخ ـ عنوان المجد ـ فإن ابن بشر استدرك ذلك وصححه في النسخة الأخيرة التي اطلعت عليها عند أحفاد المؤرخ بالزبير، ففيها تكذيب خبر إرادة قتل الشيخ محمد.

والقصد أن الشيخ ارتحل من العيينة وولى وجهه إلى الدرعية وهي يومئذٍ قرية يتوارث الحكم فيها ذرية الأمير ـ مانع بن ربيعة المريدي

الحنفي - جد الأسرة السعودية الكريمة الحاكمة، وكان الحاكم عند قدوم الشيخ إليها الأمير - محمد بن سعود - فوصل الشيخ إلى الدرعية ونزل ضيفاً على أحد تلاميذه وهو الشيخ (أحمد بن سويلم العريني) ووصوله الدرعية كان في عام (١١٥٨هـ)، فلما استقر فيها وعلم بمقدمه أمير الدرعية - محمد بن سعود - جاءه في دار أحمد بن سويلم، فقابله بالحفاوة والتكريم وقال له: أبشر أيها الشيخ بالمنعة والنصرة، فأجابه الشيخ بقوله: وأنا أبشرك بالأجر والعز والتمكين والغلبة، وكلمة التوحيد من تمسك بها ونصرها أيده الله في الدنيا ومكنه وأجزل أجره في الآخرة، ثم أخذ الشيخ يشرح للأمير حقيقة الإسلام ويبين له أصل التوحيد، وأَمْرَ ما عليه أهل نجد من الجهل والبدع والشرك.

فلما قرر الشيخ للأمير هذه الأمور المهمة وقنع بها الأمير قال: لا شك أن ما دعوت إليه أيها الشيخ هو دين الله الصحيح وحقيقة العقيدة، وأن ما عليه أهل نجد هو ضلال، ولكن أخشى إن نحن أيدناك ونصرناك وجاهدنا معك أن تتركنا إلى غيرنا، كما أن لنا على أهل الدرعية قانوناً نأخذه عليهم وقت حصاد الزروع، وقطع الثمار وأخشى أن تحرمه علينا وتمنعنا منه، فأجابه الشيخ عن الأولى: بالمعاهدة على البقاء معه مهما امتدت به الأيام وتغيرت الأحوال، وعن الثانية: بأن الله تعالى سيعوضه عن هذا القانون بما يقبضه من الأموال الشرعية، فتعاقدا وتعاهدا على ذلك، ومن ذلك اليوم أصبحت الدعوة فى طور جديد هو طور التنفيذ والجهاد، وصارت الكتب ترسل من الشيخ محمد إلى أمراء نجد وعلمائها بالدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه الحق، والجيوش تبعث من الدرعية إلى ما يليها من القرى والمدن والبوادي والشيخ من وراء هذا كله يجاهد بلسانه وقلمه وينظم الجيوش ويبعث البعوث مع الإمام محمد بن سعود فقامت الدعوة على قدم وساق واشتهرت وانتشرت وصار لها كيان ومركز قوي بالدعاة والقوة المادية.

وهذه الدعوة الإسلامية الإصلاحية وجدت معارضة ومقاومة شأنها شأن غيرها من الدعوات واشتدت عليها المعارضة والعنف من أمراء نجد وعلمائها وأعيانها وأتباعها من العامة، وجرى تبادل القصائد بين شعراء هؤلاء وشعراء هؤلاء كما تم تبادل الرسائل العلمية والمصنفات بين الطائفتين من علماء الدعوة وخصومهم، ومن وراء ذلك كله الجيوش بين آل سعود المؤيدين للدعوة وأمراء بلدان نجد المعارضين المعاندين تسند هؤلاء وهؤلاء، فصار في نجد حركة كبيرة عظيمة شغلت البلدان النجدية وما جاورها من بلاد العرب، هذا والدعوة في طورها الأول من حيث الظهور والانتشار والفتوح.

ومن رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن يتحدث فيها عن رحلة الشيخ محمد عائداً بذكر سيرة الشيخ محمد حينما سافر السفرة التي مضى ذكرها:

«فلما شرح الله صدره، واستنار قلبه بنور الكتاب والسنة وتدبر الآيات ومطالعة كتب التفسير وأقوال السلف والأحاديث الصحيحة سافر إلى البصرة ثم إلى الأحساء والحرمين لعله يجد من يساعده على ما عرف من دين الإسلام فلم يجد أحداً. كلهم قد استحسن العوائد وما كان عليه غالب الناس في هذه القرون المتأخرة إلى منتصف القرن الثاني عشر، ولا يعرف أن أحداً دعا فيها إلى توحيد الله وأنكر الشرك المنافي له بل قد ظنوا جواز ذلك واستحبابه، وبذلك عمت البلوى من عبادة الطواغيت والقبور والجن والأشجار والأحجار في جميع القرى والأمصار والبوادي وغيرهم، وما زالوا كذلك إلى القرن الثاني عشر فرحم الله كثيراً من هذه الأمة بظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ وكان قد عزم وهو بمكة أن يصل إلى الشام مع الحاج فعاقه عائق فقدم المدينة وأقام فيها، ثم إن العليم الحكيم ردّه إلى نجد رحمة لمن أراد أن يرحمه بمن يؤويه وينصره، وقدم على أبيه وأهله ببلدة حريملاء فدعاهم إلى

التوحيد ونفي الشرك والبراءة منه ومن أهله، وبين لهم الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة وكلام السلف، فَقَبِل منه مَن قَبِل وهم الأقلون، وأما الملأ من الكبراء والظلمة والفسقة فكرهوا دعوته، فخاف منهم على نفسه وأتى العيينة وأظهر الدعوة بها وقبل منه كثير منها حتى رئيسهم عثمان بن حمد بن معمر، ثم إن أهل الأحساء وهم خاصة العلماء أنكروا دعوته وكتبوا شبهات جهلهم وضلالهم، وأغروا به شيخ بني خالد فكتب لابن معمر أن يقتل هذا الشيخ أو يطرده فما تحمل مخالفته، فنفاه عن بلده إلى الدرعية، فتلقاه محمد بن سعود بالقبول وبايعه على أن يمنعه مما يمنع منه أهله وولده.

وهذه أيضاً نعمة عظيمة وكون الله أتاح له من ينصره ويؤويه ومن هو أقوى من ابن سعود لم يحصل منه ذلك، وصبر الأمير محمد على عداوة الأقصى والأدنى من أهل نجد والملوك من كل جهة، وبادأهم دهام بن دواس بالحرب فهجم على الدرعية على حين غفلة من أهلها، فحاربهم وقتل أولاد محمد فيصلاً وسعوداً، فما زاد محمداً إلاً قوة وصلابة في دينه على ضعف منه وقلة في العدد والعدة وكثرة من عدوهم، وذلك من نعمة الله علينا وعليكم، فرحم الله هذا الشيخ الذي أقامه الله مقام رسله وأنبيائه في الدعوة إلى دينه، ورحم الله من آواه ونصره، فلله الحمد والمنة على ذلك، وفيما جرى من ابن سعود شبيه بما جرى من الأنصار في بيعة العقبة.

ثم إن بني خالد وأهل نجد وأهل العراق والأشراف والبوادي وغيرهم تجردوا لعداوة هذا الشيخ ومن كان آواه ونصره وأقبلوا على حربهم بعتادهم وجنودهم، فأبطل الله كيد من عاداهم وكل من رام من هؤلاء الملوك وأعوانهم أن يطفىء هذا النور وأطفأ الله نوره وجعله رماداً، وصار كثير من أمواهم فيئاً للمسلمين. وهذه عبرة عظيمة ومنة جسيمة.

ثم إن الله بفضله وإحسانه أظهر هذا الدين في نجد وأذل من عاداه، فعمت النعمة أهل نجد ومن والاهم شرقاً وغرباً، وحفظ الله عليكم نعمة الإسلام التي رضيها لعباده ديناً فلم يقدر أحد أن يقهرها بقوته وقدرته فاشكروا نعمة ربكم» انتهىٰ من رسالةٍ كتبها الشيخ عبد الرحمن بن حسن إلى نواحي ومقاطعات نجد بعد أن عاد إلى الدعوة جِدَّتها، وعاد الحكم لآل سعود بعد إجلاء الجيوش الغازية.

قال الشيخ عبد القادر بن بدران علامة الشام في حق الشيخ:

«العالم الأثري والإمام الكبير محمد بن عبد الوهاب رحل إلى البصرة والحجاز لطلب العلم، فأخذ عن الشيخ علي أفندي الداغستاني وعن الشيخ المحدث إسماعيل العجلوني وغيرهما من العلماء، وأجازه محدّثو العصر بكتب الحديث وغيرها على اصطلاح أهل الحديث من المتأخرين.

ولمّا امتلأ وِطَابُه من الآثار وعلم السنة وبرع في مذهب أحمد أخذ ينصر الحق ويحارب البدع ويقاوم ما أدخله الجاهلون في هذا الدين الحنيف والشرعة السمحاء، وأعانه قوم أخلصوا العبادة لله وحده على طريقته التي هي إقامة التوحيد الخالص والدعوة إليه وإخلاص الوحدانية والعبادة كلها بسائر أنواعها لخالق الخلق وحده، فهبَّ إلى معارضته قوم ألفوا الجمود على ما كان عليه الآباء وتذرعوا بالكسل عن طلب الحق وهم لا يزالون إلى اليوم يضربون على ذلك الوتر وجنود الحق تكافحهم لتردهم إلى صوابهم وما أحقهم بقول القائل:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ولم يزل مثابراً على الدعوة إلى دين الله تعالى حتى توفاه الله تعالى». من كلام ابن بدران. اهـ.

وإلى القارىء بعض المعارضين للدعوة من علماء نجد في زمن الشيخ:

١ ـ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق الأحسائي، وقد بعث إلى الشيخ بعدة رسائل، منها: رسالة بعثها إليه يتحداه بأن يبين ما تحتوي عليه ـ سورة العاديات ـ من المجاز والحقيقة والاستعارة والكناية، ونحو ذلك من ضرورة البلاغة.

وله ردٌّ سماه: «تهكّم المقلّدين في مدّعي تجديد الدين».

٢ ـ محمد بن عبد الله بن فيروز النجدي أصلاً ثم الأحسائي مولداً ومنشأ، وهو الذي بعث الشُّبه التي ردّ عليها الشيخ برسالته «كشف الشبهات».

٣ ـ راشد بن خنين العائذي نسباً، الخرجي بلداً، الحنفي مذهباً، من علماء الخرج.

٤ ـ سليمان بن عبد الوهاب أخو الشيخ محمد ـ رحمه الله ـ وله كتاب سماه: «فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبد الوهاب».

وقد رد فيه على دعوة الشيخ، وجادل فيه بأن ما يفعله العامة في زمنه من الذبح لغير الله، والنذر لغير الله ونحو ذلك، ليس من الشرك.

٥ ـ عبد الله بن داود الزبيري وله رد سماه: «الصواعق والرعود في الرد على ابن سعود».

٦ ـ سليمان بن محمد بن سحيم العنزي نسباً من أهل بلد المجمعة.

٧ ـ ناصر بن سليمان بن سحيم النجدي أصلاً ثم الزبيري وهو ابن الذي قبله.

٨ ـ صالح بن عبد الله الصائغ من أهل مدينة عنيزة، له قصيدة يرد بها على الصنعاني الذي مدح الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٩ ـ مربد بن أحمد الوهيبي التميمي نسباً من أهل حريملاء ذهب إلى صنعاء فشوَّه دعوة الشيخ محمد ـ رحمه الله ـ مما جعل الأمير الصنعاني ينقض مدحه بالشيخ محمد بقصيدة أخرى على وزنها ورويِّها.

١٠ ـ عبد الله المويس من أهل بلدة حريملاء من قضاة بلدة حرمة، وله رسالة يحذر فيها من الشيخ ودعوته، ويصفه بالابتداع في الدين.

١١ ـ الشيخ عبد العزيز الرزين، له رد على الشيخ في مسألة الأوقاف تقع في نحو عشر كراسات.

١٢ ـ الشيخ عبد الوهاب القباني، له كتاب سماه؛ «فصل الخطاب في رد ضلالات محمد بن عبد الوهاب».

أمّا الأمراء الذين وقفوا في وجه الدعوة بجيوشهم، فمنهم:

١ ـ دهام بن دواس الحنفي نسباً أمير الرياض، حارب الدعوة بالسلاح والجند أكثر من عشرين سنة.

٢ ـ زيد بن زامل العائذي نسباً أمير بلدان الخرج، وقد طالت حروبه ونقضه العهد مع أنصار الدعوة.

٣ ـ سليمان بن محمد بن عرير الحميدي الخالدي نسباً أمير الأحساء والقطيف وما جاورها.

٤ ـ عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر أمير العيينة الذي ناصره أول الأمر ثم تخلس عنه، فبعد أن انتقل الشيخ إلى الدرعية واتفق مع الأمير ـ محمد بن سعود ـ صار عثمان بن معمر يشن عليهما الغارات من العيينة، ويرسل جماعة الخيل عليها الفرسان، وكان الأمير محمد بن سعود من الضعف وعدم القوة والعدة بحال لا يستطيع معها مقابلة

حملات عثمان بن معمر، ولذا كانت بنت محمد بن سعود تقول من قصيدة لها شعبية:

ما شاقني كود شربة لابن معمر تطل على الزلال كل عشية
يا يبه شف للخيل خيل مثله وإلاَّ فزل عن شيخة الدرعية

والزلال مكان قريب من سور الدرعية.

ولم تلبث الحال إلاَّ مدة وجيزة حتى أعز الله الإمامين ونصرهما وأيدهما وصارت بلادهما هي عاصمة الجزيرة العربية، وصار أبناء ذلك الأمير هم أئمة المسلمين وأبناء الشيخ محمد هم أئمة العلم.

والقصد أن هؤلاء من أشد المعارضين المعاصرين للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولكن الله سبحانه وتعالى أيد دعوته ونصرها وأظهرها رغم المعارضات الشديدة فأيدها بالحق والحجة الساطعة كما أيدها بالمغاوير من أئمة هذه الدعوة من حكام آل سعود الذين بذلوا في سبيل إظهارها المال والروح والدم حتى تم لها النصر بعون الله وقوته.

أما الذين أيدوا هذه الدعوة في ذلك العصر من العلماء وانبروا لردّ هذه الشبهات والاعتراضات علىٰ رأسهم:

١ ـ الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ الذي ألف الكتب ودبج الرسائل وكاتب علماء الجزيرة العربية كافة، ويطول بنا عدهم فإن في كل بلد عالم أو علماء وكلهم راسلهم.

٢ ـ الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله رحمة واسعة.

٣ ـ الشيخ حسين ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله رحمة واسعة.

٤ ـ الشيخ حمد بن ناصر بن معمر، فإنه حين طلب الشريف غالب

من الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود أن يبعث إليه عالماً لمناظرة علماء مكة فبعثه الإمام عبد العزيز والشيخ محمد فذهب إليهم وناظرهم وظهر عليهم وكتب رسائل في الذود عن الدعوة السلفية.

٥ ـ الشيخ عبد العزيز الحصين الناصري قاضي بلدان الوشم، فإنه حين أعاد الشريف غالب الطلب لمجيء عالم من نجد لمناظرة علماء الحرم الشريف فبعثه الإمام عبد العزيز بن محمد إليهم وزوده الشيخ محمد بن عبد الوهاب برسالة إلى علماء مكة يوضح لهم فيها طريق دعوته، ونفى عنها الأكاذيب والأراجيف.

٦ ـ الشيخ محمد بن علي بن غريب كان هو الذي يتولى الرد والإجابة على شبهات علماء الأمصار التي توجه ضد الدعوة.

٧ ـ الشيخ أحمد بن علي بن دعيج الكثيري نسباً من أهل مرات، له قصائد وبعض الردود على مخالفي الدعوة.

٨ ـ الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين.

ومن المتأخرين:

٩ ـ الشيخ عبد الرحمن بن حسن.

١٠ ـ ابنه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن.

١١ ـ الشيخ سليمان بن سحمان.

١٢ ـ الشيخ حمد بن عتيق.

١٣ ـ ابنه الشيخ سعد بن عتيق.

فلهؤلاء ردود مفحمة وأجوبة مسكتة.

والقصد أن الشيخ محمداً ـ رحمه الله ـ جاهد بلسانه وقلمه، وكان يشارك الإمام (محمد بن سعود) في تنظيم الجيوش وبعث السرايا كما يشاركه في شؤون الحكم وأحوال الدولة حتى توفي الإمام محمد بن

سعود عام ١١٧٩هـ وجاءت ولاية الإمام عبد العزيز بن محمد فاستمر الشيخ محمد على أعماله، فلما كثرت أعمال الحكم وترامت أطراف المملكة واتسعت دائرة البلاد عقد الإمام عبد العزيز بن محمد والشيخ محمد ولاية عهد الملك للأمير سعود بن عبد العزيز، وصار مع هذا هو قائد الجيوش وأصبح الإمام عبد العزيز بن محمد هو الوالي الإداري العام، واعتزل الشيخ محمد شؤون الملك الإدارية والعسكرية واكتفى بالقيام بالأعمال الدينية والإِشراف عليها في جميع بلدان المملكة.

وبهذا توزعت المهام تبعاً لكثرتها وأهميتها وصارت الدرعية عاصمة للجزيرة العربية ومثابةً ومهاجراً للبلدان المجاورة، وانتقلت عن دورها الأول كبلدة صغيرة من بلدان نجد إلى طور كبير لم تشهده الجزيرة العربية منذ قرون بعيدة من اتساع العمران وازدحام السكان ووفرة المال.

وصار بها نهضة دينية وعلمية حيث توافد إليها علماء أقطار الجزيرة وطلابها وراجت فيها سوق العلم والكتب، وعقدت في جوامعها ومساجدها حلقات الدروس، وصار فيها جيش منظم كامل العدة وافر السلاح، ودانت لها غالب الجزيرة العربية وألقت إليها يد الطاعة، فما توفي الشيخ محمد ـ رحمه الله تعالى ـ حتى أقر الله عينه بنجاح دعوته ورأى ثمرة جهاده بفضل الله تعالى وتوفيقه وإعانته، ثم بمساعدة هؤلاء الأئمة الحاكمين من آل سعود الذين أيدوه ونصروه وصاروا الساعد الأيمن في تمكين هذه الدعوة وتثبيتها ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وإلى جانب جهاد الشيخ محمد ـ رحمه الله تعالى ـ بالقول والرسائل التي يرسلها إلى العلماء والأمراء وإلى جانب اشتغاله بشؤون الحكم وعقد حلقات الدروس والإشراف على مهام الأمور، فإنه أيضاً لم يُغفل جانب التأليف، فألف مؤلفات نافعة وكتباً مفيدة عليها المعول في الدرس والحفظ والفهم حتى اليوم، وله طريقة ـ في التأليف ـ فريدة نافعة ذلك

أنه يميل إلى الخلاصات المفيدة من المراجع والكتب فيأخذ منها ثمرتها وزهرتها ويترك ما لا تدعو الحاجة إليه من المسائل، وهذا فيه توفير عظيم لوقت القارىء والمطالع وتقريب المسائل الهامة للناشىء والمستفيد، وإعطاء للعالم الكبير العلم من أسهل طرقه وأقربها وأوثقها، فمن سلسلة هذه المؤلفات:

١ ـ كتاب التوحيد، وهذا كتاب من أنفس الكتب ولم يصنف على منواله.

٢ ـ مختصر السيرة النبوية.

٣ ـ مختصر زاد المعاد.

٤ ـ مختصر الإنصاف والشرح الكبير.

٥ ـ أصول الإيمان وفضائل الإسلام.

٦ ـ أحاديث الفتن.

٧ ـ مسائل الجاهلية.

٨ ـ الكبائر.

٩ ـ أصول الإيمان.

١٠ ـ أدب المشي إلى الصلاة.

١١ ـ كشف الشبهات.

.. وله غيرها من الكتب النافعة.

وقد تخرَّج عليه علماء أكابر حملوا عنه العقيدة الصحيحة والتضحية والجهاد في سبيل دعوته، كما أخذوا عنه العزم والتصميم وقوة الإرادة في سبيل الله تعالى ونصر دينه، وإن علماء هذه الجزيرة وغيرهم كثير يرجعون بعلمهم إلى توفيق الله تعالى ثم إلى آثار دعوته ومؤلفاته، وسيأتي ذكر جملة منهم.

* وقبل أن نختم حياة الشيخ محمد ـ رحمه الله ـ نحب أن نقول كلمة عنه وهي:

ذلك أن هذا الإمام ليس عالماً فقط من رجال الدين ومن علماء الشريعة، وإنما هو رجل وهبه الله سبحانه وتعالى عقلاً كبيراً وفكراً صائباً ونظراً بعيداً وشخصية قوية مؤثِّرة، كما منحه الله تعالى إخلاصاً في عمله وثباتاً عليه وتحملاً فيه، فصار بهذه المواهب الفطرية والمنح الإلٰهية معدّاً ومهيئاً لأن يكون من رجال الإصلاح ومن قادة الفكر، فكانت هذه العوامل الكبيرة فيه هي السب في معرفة الباطل الذي عليه أهل زمنه، فنفر مما هم عليه وهي السبب في أن يذهب إلى مصادر الإسلام فيجد فيها الدواء لهذه الأمراض التي حلت في بلاد المسلمين، ثم يعرف كيف يعالج هذه الأمراض وما هي الطرق الناجعة التي يسلكها لذلك ثم يعرف السبب الذي يقنع به الأمراء والزعماء لينقادوا لدعوته ويكونوا عوناً له على مهمته ثم يسيِّر قافلة الجهاد القولي والفعلي بهذه الحنكة والتدبير لتبلغ الدعوة غايتها فلا يموت إلاَّ وقد تحقق ما رسمه في ذهنه وتمناه بقلبه وقصده بتدبيره.

وهكذا أراد الله بحكمته أن تبلغ تلك الدعوة مداها، فهو إذا قدر الأمور العظام خلق لها الرجال الأكفاء الكرام.

والشيخ محمد بن عبد الوهاب كتب عنه وعن دعوته كثير من العلماء والمفكرين والأدباء، وأجمعوا على أنه من كبار الزعماء، فالذين عرفوه حق المعرفة وفهموا دعوته قد تحقق لديهم أنه من زعماء الإصلاح وأنه من رجال الدعوات الناجحة، وأن دعوته كانت السب الأول والشعلة المنيرة التي أضاءت الطريق للحركات الإصلاحية التي قامت في مصر والسودان والعراق وتونس والشام والهند وسومطرة وغيرها، والتي نادى بها رجال من زعماء الإصلاح، وأن هؤلاء الزعماء المصلحين يعدون

بحق ممن تأثروا به وبدعوته ونهجوا نهجه واقتفوا أثره.

على أن بعض من كتب عنه من غربيين وشرقيين قد أساءوا فهم دعوته، فأوردوها على غير حقيقتها، والسبب في ذلك كله تأثرهم بما كتبه خصوم الشيخ وأعداء دعوته الذين تحدثوا عنها بعداء وحقد وبغض، فشوّهوها وحرّفوها حسبما أملته عليهم أهواؤهم.

والآن وقد تقاربت البلاد وسهلت الاتصالات حتى صار في مقدرة كل منصف ومحب للحقيقة أن يستقي الأخبار من منابعها الأصلية، وأن يقف على الدعوة من قُرب من كتّاب غير مغرضين، وأن ينبذ الأباطيل المفتراة والأكاذيب الملصقة، ليرى صفاء الدعوة ونور الحق وضياء البرهان من دعوة إسلامية تريد للمسلمين أن يعودوا إلى إسلامهم الذي أكمله الله لهم وطلب منهم تحقيقه ليعودوا إلى سالف مجدهم وماضي عزهم، وليقودوا العالم الإسلامي من ظلمات الجهل وجور الظلم وزيغ العقائد إلى نور العلم وجمال العدالة ورسوخ الإيمان بالله تعالى، وهذه هي حقيقة الدعوة التي جددها الشيخ محمد ـ رحمه الله ـ وجاهد ببدنه وماله وقلمه ولسانه حتى أظهرها الله تعالى بمساندة ومساعدة السابقين واللاحقين من ملوك آل سعود الذين جعلهم الله تعالى حماة لهذا الدين وأنصاراً وأعواناً لإظهاره ونشره.

وفـاتــــه:

كانت وفاته رحمه الله في ذي القعدة سنة ١٢٠٦هـ، وتصوّر معي أيها القارىء الكريم أن رجلاً فذاً زعيماً إسلامياً نشأ في بيئة جاهلة جافية متقاطعة متباعدة فبث فيها دعوة الخير والإصلاح حتى جمع الله عليها القلوب، وألّف عليها الأمة ولمّ على هداها الشمل، ثم قام بإصلاحها علمياً وسياسيّاً واقتصاديّاً حتى أصبحت تلك الأمة المتفرقة، والقبائل المتقاطعة، والبلدان المتعادية، حكومة واحدة يسودها العدل وتحكمها

الشريعة، ويعيش باعث هذه الحركة وقائد تلك الدعوة وناظم عقدها حتى كثر أتباعه وعظم شأنه وظهر أثر نعمة دعوته وبدت ثمارها وزكت نتائجها وعرف فضله وأثره فيها، وتألق نجمه وعلت مرتبته وبَعُد ذكره، فإذا بلغ من الزعامة أقصاها ومن المحبة والمودة منتهاها، ومن الاعتراف بالجميل أقصى غاياته، يغرب نجمه وتأفل شمسه، فيرحل على مرأى ومسمع من هذا الحشد الكبير المتعلق بدعوته.

إن القلم ليعجز عن تصوير عظم الخطب، وفداحة المصيبة، وجسامة الخسارة، وإن اللسان لا يستطيع وصف حال الجمهور الكبير الذي شيّع الراحل بقلوب متفطرة، وألسنة ملجمة، وأعين شاخصة، وكواهل واهنة، ولنتصور كيف أخذ هذا الجمع الحاشد يعزي بعضه بعضاً شاعرين بجلال الخطب وألم المصيبة، وإنك لتحس بالفراغ الذي خلفه بعد رحيله، والوحشة التي خيمت على مجالسه وحلقاته، وهكذا يفقد الزعماء الذين استولت محبتهم على النفوس فإن المصاب بهم كبير، والخسارة في فقدهم جسيمة.

وبتلك المشاعر التي لم نستطع وصفها، رحل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ وقد رثاه الشعراء، وأثنى عليه العلماء، وتداول الرسائلَ فيه المسلمون، ونختار من ذلك بعض قصيدة الشيخ حسن بن غنام في رثائه وهي:

إلى الله في كشف الشدائد نفزع … وليس إلى غير المهيمن مفزع

لقد كسفت شمس المعارف والهدى … فسالت دماء في الخدود وأدمع

إمام أصيب الناس طرّاً بفقده … وطاف بهم خطب من البين موجع

وأظلم أرجاء البلاد لموته … وحل بهم كرب من الحزن مفظع

شهاب هوى من أفقه وسمائه … ونجم ثوى في الترب واراه بلقع

وكوكب سعد مستنير سناؤه   وبدر له في منزل اليمن مطلع
لقد رفع المولى به رتبة الهدى   بوقت به يعلى الضلال ويرفع
أبان له من لمعة الحق لمحة   أزيل بها عنه حجاب وبرقع
سقاه نمير الفهم مولاه فارتوى   وعام بتيار المعارف يقطع
سمّا ذروة المجد التي ما ارتقى لها   سواه ولا حاذاه فيها سميدع
وشمر في منهاج سنة أحمد   يشيد ويحيى ما تعفى ويرقع
وينفي الأعادي عن حماه وسوحه   ويدمغ أرباب الضلال ويدفع
يناظر بالآيات والسنة التي   أمرنا إليها في التنازع نرجع
فأضحت به السمحاء يبسم ثغرها   وأمسى محياها يضيء ويلمع
وجرّت به نجد ذيول افتخارها   وحق لها بالألمعي ترفع
فآثاره فيها سوام سوافر   وأنواره فيها تضيء وتلمع
لقد وجد الإسلام بعد فراقه   مصاباً خشيناً بعد يتصدع
وطاش ذوو الأحلام والفضل والنُّهى   وكادت الأرواح تترى وتتبع
وطارت قلوب المسلمين بموته   وظنوا به أن القيامة تقرع
وفاضت عيون واستهلت مدامع   يخالطها مزج من الدم مهيع
بكاه ذوو الحاجات يوم فراقه   وأهل الهدى والحق والدين أجمع
فمالي أرى الأبصار قلص دمعها   وليست على فقداه تهمى وتدمع
وما لي أرى الألباب تبدي قساوة   وليست على ذكراه يوماً توجع
لقد غدرت عين تضن بمائها   عليه وكبدت قد أبت لا تقطع
يحق لأرواح المحبين أن ترى   مقوضة لما خلت منه أربع
وتتلوا سريراً فوقه قمر الهدى   وشمس المعالي والعلوم تشيع

فمابالها قرت بأشباح أهلها ولم تك في يوم الوداع تودع

فيا لك من قبر حوى الزهد والتقى وحل به طود من العلم مشرع

لئن كان في الدنيا له القبر موضعاً فيوم الجزا يرجى له الخلد موضع

* وقد رزق الشيخ محمد بن عبد الوهاب ستة أبناء هم: علي وعبد الله وحسين وحسن وعبد العزيز وإبراهيم.

والذي أعقب منهم أربعة هم: حسن وحسين وعلي وعبد الله، فآل الشيخ الآن هم ذرية هؤلاء الأبناء الأربعة، وقد صنف في بيانهم وتسلسلهم الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ رسالة مطبوعة، كما أن هؤلاء الأبناء الأربعة والعلماء ممن أبنائهم لهم تراجم في هذا الكتاب، وسنبين أبناء وأحفاد كل عالم حتى يجتمع لنا من ذلك نسب كامل لهم.

فرحمه الله تعالى ورحم أولاده وأحفاده والمسلمين أجمعين، فمهما طال الكلام عن الشيخ فلن يوفيه حقه، لأن الله سبحانه وتعالى رحم البلاد وأنقذها بسبب دعوته السلفية الصالحة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما بناته فأربع، إحداهن: فاطمة بنت الشيخ محمد، وأخبرني معالي الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ وزير العدل سابقاً بأنها عالمة مطلعة.

والثانية: اسمها سارة، وعندي غلاف كتاب مكتوب عليه تملكها لذلك الكتاب بالعبارة التالية: (مال سارة بنت الشيخ محمد).

والثالثة: والدة الشيخ القاضي عبد العزيز بن حمد، ولا أعرف اسمها.

والرابعة: هي والدة آل سالم من أهل الدرعية، وأشهرهم معالي الأستاذ عبد العزيز السالم أمين عام مجلس الوزراء، ولا أعرف اسمها أيضاً.

آل الشيخ:

هذه الأسرة الكريمة تنتسب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - وهي أكبر وأشهر أسرة نجدية تأتي بعد الأسرة الحاكمة، لما لها من الأثر الطيب في نشر الدعوة السلفية التي نادى بها عميدها، ولما لها من الزعامة الدينية والعلمية عبر ثلاثة قرون تساندها وتدعمها، وتشق الطريق أمامها السيوف الإسلامية المجاهدة من الأسرة السعودية الكريمة في عصورها الثلاثة المشرقة حتى عمت الدعوة أرجاء الجزيرة العربية وأشرقت منها على أصقاع بعيدة من المعمورة.

وآل الشيخ هم من آل مشرف أحد أفخاذ الوهبة من قبيلة بني تميم، وهذا الفخذ خرج منه عدد كبير من العلماء بعضهم قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبعضهم عاصرها وبعضهم جاء بعدها، وستجد تراجمهم وأخبارهم مفصلة في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، ومن أشهرهم الشيخ سليمان بن علي جد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فهو رئيس علماء نجد في زمانه، ثم أخرج الله من ذريته هذا الإمام المصلح الكبير، ثم تسلسل العلم والزعامة في ذريته.

وكانت إقامتهم في أشيقر موطن عشائرهم من الوهبة، وأول من زح من أشيقر الشيخ سليمان بن علي، واستقرت سكناه في العيينة عاصمة بلدان نجد، وولي قضاءها ورئاسة علماء نجد، وذلك في زمن عدة أمراء من آل معمر، وولد أبناؤه الثلاثة في العيينة وهم: عبد الوهاب وإبراهيم وأحمد، وبقي فيها حتى توفي.

ثم ولي قضاء العيينة بعد الشيخ سليمان ابنه الشيخ عبد الوهاب فولد له ابناه الشيخ محمد والشيخ سليمان فيها، فسافر الشيخ محمد من العيينة سفرته الثانية ووالده قاضيها، وفي غيبته عنها ساءت علاقة الشيخ عبد الوهاب مع أمير العيينة محمد بن حمد بن عبد الله بن معمر الملقب (خرفاش)، وذلك عام ١١٣٩هـ، فانتقل الشيخ عبد الوهاب إلى بلدة حريملاء وتولى قضاءها، فعاد الشيخ محمد إلى أبيه في حريملاء، وشرع في دعوته فيها، ثم انتقل منها إلى العيينة ونشط في دعوته فيها ولقي قبولاً من أميرها عثمان بن معمر، ثم اعتذر عثمان بن معمر عن بقاءه عنده بإيعاز من ابن عرير أمير الأحساء، فسافر الشيخ إلى الدرعية واستقر فيها وأعلن دعوته، وأعلن الإمام محمد بن سعود الجهاد لنصر دعوته السلفية، فتساعدا على نشر الدعوة باللسان والسنان حتى تحقق لها النجاح ولله الحمد.

* وبعد هذا كله نورد هذه الخلاصة عن سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (المترجم) رحمه الله تعالى لخصناها من كتاب «محمد بن عبد الوهاب» للأستاذ الفاضل عبد الله بن سعد الرويشد، لما فيها من فوائد جليلة، وإن كان فيها تكرار لما قلناه، ولكنه تكرار يحلو بهذه السيرة العطرة، فنقول:

البيئة التي عاش فيها الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

وُلد ونشأ وعاش الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في نجد، في بيئة متدينة محافظة، تتميز بالجد والاستقامة والحرص على التقاليد والعادات العربية الإسلامية، والمحافظة الشديدة على تعاليم الشريعة وكل ما ينسب إلى الإسلام.

وكانت نجد آنذاك مقسمة إلى أمارات عديدة مستقلة، كل إمارة

يحكمها أمير، حكماً مطلقاً لا يتطاول إليه فيه أحد.

وهو حكم قَبَلي يستند إلى العصبيات ويقوم على خرافات ينسبونها إلى الدين تشويها الجهالة، وعلى رسوم من العبادات تقرب من رسوم الوثنية، وتختلط فيها شريعة التوحيد بأفكار التوسل والزلفى وعبادة الأوثان.

وكان الحكم بيد أمراء القبائل وشيوخها وهم:

آل سعود: في الدرعية.

آل دواس: في الرياض.

آل معمر: في العيينة.

آل علي: في حائل.

آل أبو عليان: في القصيم.

آل شبيب: في شمال نجد من جنوب العراق.

وكثيراً ما تشتعل الحروب والخصومات والفتن بين حكام وشيوخ هذه الإمارات لسبب أو لغير سبب.

أما عن الخلافة العثمانية التي كانت تحكم معظم الجزيرة العربية فيما تحكمه من أقطار وشعوب، فقد بلغ بها الضعف مبلغاً كبيراً.

وكانت أوروبا تحاربها وتطاردها مدفوعة بروح صليبية حاقدة على الإسلام والمسلمين تريد أن تقضي على الدولة والخلافة.

والشعوب العربية والإسلامية تخضع للخلافة وتستظل بظلها، وأحياناً تشتد بها المظالم، فتعلن بسببها غضبها ونقمتها.

وتميزت الجزيرة العربية في هذه الفترة باضطراب الأمن وشيوع

الفتن وتدهور الاقتصاد، وكثرة الفقر والجهل، وغلب الذعر والخوف على الناس.

كانت نجد كما يحدثنا المؤرخون السابقون لنجد كابن بشر، وابن غنام، والآلوسي، والمعاصرون كحافظ وهبة وغيرهم، مرتعاً للخرافات والعقائد الفاسدة التي تتنافى مع أصول الدين الصحيحة.

ميــلاده:

وفي عام ١١١٥هـ كان مولد الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مدينة العيينة من بلدان العارض في قلب نجد، وفيها نشأ وعاش وشرع في طلب العلم.

نشأة الإمام:

نشأ محمد بن عبد الوهاب في بيت علم وفضل ومجد ودين كما أسلفنا، فوالده قاضي العيينة وجده سليمان من أشهر علماء نجد، وعمه إبراهيم بن سليمان فقيه واسع الاطلاع على علوم الدين، وابن عمه عبد الرحمن بن إبراهيم كذلك من العلماء المعروفين المشهود لهم بالخيرية.

تعلم على والده فدرس القرآن وحفظه على يديه، وعليه تعلم علوم العربية وعلوم الدين والفقه الحنبلي، وهكذا نشأ نشأة صالحة وظهرت عليه مخايل الذكاء والنجابة منذ صباه.

وأكثر من قراءة القرآن والاطلاع على الكتب النافعة، وظهرت بوادر ألمعيته واتقاد ذهنه، وأعجب بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ومال إليها، ورأى كثيراً مما نعاه ابن تيمية على أهل عصره من البدع والضلالات ماثلاً أمام عينيه في معتقدات وأعمال أهل عصره وبخاصة العامة منهم.

ولـمَّا بلغ السادسة عشرة من عمره رآه والده أهلاً للإمامة في الصلاة، فقدمه إماماً للناس في المسجد.

معلومات الشيخ:

أكب الشيخ وهو طالب على كتب السنة ومسانيد الأئمة، وعني بصحيحي الإمامين البخاري ومسلم وبسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ومسند الشافعي وأحمد وموطأ مالك وبكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وكتب الفقه.

كما درس علوم السيرة والتاريخ الإسلامي، وألم بثقافة عصره في جميع علوم الدين والعربية، حتى صار مصدراً علمياً واسعاً في مختلف المعارف الإسلامية والعلوم الشرعية.

شيوخه:

تلقَّى العلم على عدد كبير من جلة العلماء الأعلام، منهم:

١ ـ أبوه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان.

٢ ـ الشيخ شهاب الدين الموصلي قاضي البصرة.

٣ ـ الشيخ حسن الإسلامبولي من علماء البصرة.

٤ ـ الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي.

٥ ـ الشيخ زين الدين المغربي.

٦ ـ الشيخ حسن التميمي.

٧ ـ الشيخ محمد بن حياة السندي، وقد توفي عام ١١٦٥هـ.

وقد قال للشيخ محمد بن عبد الوهاب حينما رأى الناس يتمسحون ويستغيثون عند قبور آل بيت الرسول ﷺ ويطوفون: ماذا تقول في هؤلاء؟

فقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «إن هؤلاء مُتَبَّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون».

٨ ـ الشيخ محمد المجموعي، نسبة إلى قرية من قرى البصرة اسمها المجموعة.

٩ ـ الشيخ يوسف آل سيف.

١٠ ـ الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف آل سيف من أهل المجمعة بنجد، واستفاد الشيخ من مصاحبته فوائد عظيمة.

وأجازه الشيخ عبد الله بالحديث المشهور المسلسل بالأولية: «الراحمون يرحمهم الرحمن»، من طريقين:

أحدهما: من طريق ابن مفلح عن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وينتهي إلى الإمام أحمد.

والثاني: من طريق عبد الرحمن بن رجب عن العلامة ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام، وينتهي أيضاً إلى الإمام أحمد.

كما أجازه الشيخ بكل ما رواه الشيخ عبد الباقي الحنبلي شيخ علماء عصره، قراءة وعلماً وتعليماً، من صحيح البخاري بسنده إلى مؤلفه، وصحيح مسلم، وشروح الصحيحين، وسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه ومؤلفات الدارمي، كل بسنده المتصل إلى المؤلف، ومسند الإمام الشافعي وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد، إلى غير ذلك مما رواه الشيخ عبد الباقي.

رحلات الشيخ العلمية داخل الجزيرة العربية وخارجها:

وفي سبيل الله ومن أجل العلم سافر الشيخ محمد بن عبد الوهاب عام ١١٣٦هـ إلى مكة حاجّاً لله تعالى وساعياً لطلب العلم ولقاء العلماء في

الحرم الشريف وهو في مطلع شبابه، وشهد موسم الحج، وأدى مشاعره وقام بمناسكه ولقي علماء المساجد الحرام وأخذ عنهم، ورحل إلى مدينة رسول الله ﷺ، وفيها أخذ عن الشيخ محمد بن حياة السندي وعن الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف آل سيف وهو من علماء المجمعة بنجد، وكان مقيماً بالمدينة المنورة، وعاد الشيخ محمد إلى العيينة، واستزاد من العلم وتلقى عن والده الكثير من مباحث وعلوم الفقه الحنبلي.

وأخذ يدعو إلى التوحيد المطلق وإلى وجوب الرجوع إلى تعاليم الدين الصحيحة والعقيدة الإسلامية السلفية الصافية من شوائب الشرك والبدع والخرافات والخزعبلات.

وفي سبيل الله رحل إلى العراق عام ١١٣٦هـ حيث أقام ببلدة الزبير من أعمال البصرة حيناً وبالبصرة حيناً آخر، وهما من مدن العراق.

وأخذ عن فقيه فقهائها وهو الشيخ محمد المجموعي، واتخذ من الشيخ أنس بن درويش وقاضي البصرة الشيخ شهاب الدين الموصلي صديقين له.

ولما نفذ ما معه من مال عاد إلى بلاده، وفي طريقه نزل بالأحساء وأقام مدة عند الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي، يأخذ عنه، ويتلقى العلم عليه.

ومما حدث للشيخ أثناء عودته من البصرة إلى الزبير أنه عندما خرج من البصرة في طريقه إلى الزبير أجهده العطش والتعب، وكان ماشياً على قدميه يسير منفرداً، فوافاه صاحب حمار يقال له «أبو حميدان» من أهل الزبير، فلما رأى الشيخ أجلّه وقدره لما هو عليه من سمات الوفاء والصلاح، وحمله على دابته بعد أن سقاه.

ويزعم بعض المؤرخين أن الشيخ رحمه الله رحل إلى بغداد ودمشق والقدس ومصر والهند وإيران وكردستان.

وهذا كله لا تؤيده الحقائق التاريخية، فقد سألت الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ المفتي الأكبر للمملكة العربية السعودية ورئيس قضاتها رحمه الله تعالى، وهو أحد أحفاد الشيخ ومن العلماء المحققين، حيث قلت له شخصياً في عام ١٣٨٥هـ: هل رحل الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الهند وإيران والشام ومصر كما تذكر بعض كتب التاريخ؟ فأجابني بقوله: الحقيقة التاريخية التي لا مراء فيها أن الشيخ لم يرحل إلى بلد خارج الجزيرة سوى مدينتي البصرة والزبير لا غير، ومن قال إنه ذهب إلى مدن أخرى خارج الجزيرة فهذا القول لا صحة له.

وكان والده ترك العيينة لنزاع نشب بينه وبين حاكم تلك المدينة محمد بن حمد بن معمر أدى إلى عزله عن قضائها، فرحل الشيخ عبد الوهاب إلى حريملاء، ولحق به ابنه حيث أقام مع والده في هذه البلدة متخذها وطناً ثانياً بعد وطنه الأوَّل العيينة.

وفي حريملاء أعلن الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته، فأخذ يحذر الناس من البدع، ولقي من الناس شرّاً كثيراً، ولقوا منه تصميماً على دعوته ومضياً فيها والاقتناع التام بتنفيذها والسير في هذا الطريق المستقيم، وبذل كل الجهد في تحقيقها، وأخذ يدعو إلى الله على بصيرة، والجهال والسفهاء يقابلون دعوته بالسخرية والاستهزاء والصد والعناد ويحاربون هذه الدعوة السلفية ولكن الله معه عليهم.

رحلات الشيخ في سبيل الدعوة إلى اللّٰه تعالى:

١ ـ **في حريملاء**: عاد الشيخ محمد من الحجاز إلى نجد، فذهب إلى حريملاء حيث يوجد أبوه، فصار يدعو بدعوته، إلاّ أنه كان يدعو بها سرّاً حتى توفي أبوه عام ١١٥٣هـ، فجهر بدعوته.

وأخذ الشيخ في محاربة الشرك والضلال والخرافات، فهمَّ فريق من أهل حريملاء بالفتك به، وحاولوا أن يتسلقوا عليه منزله ليلاً ليقتلوه لكن سلَّمه الله تعالى.

٢ - **في العيينة**: وانتقل الشيخ من حريملاء إلى العيينة عام ١١٥٧هـ ويرجح الدكتور عبد الله الصالح العثيمين سبب انتقال الشيخ من حريملاء إلى الدرعية إلى ثلاثة أمور:

أحدها: قبول أمير العيينة دعوته.

الثاني: قوة المدينة.

الثالث: وحدة زعامتها.

وكان رئيسها يومئذٍ هو عثمان بن حمد بن معمر الذي أكرم وفادته ورحب به وعرض الشيخ على أمير العيينة ما يدعو إليه من التوحيد ومحاربة الشرك وقال له: إني لأرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلاَّ الله أن يظهرك الله وتملك نجداً وأعرابها.

فأيده أمير العيينة وقال له: إني لأرجو أن ينصرنا الله نصراً مؤزراً، وأخذ الشيخ يعلن دعوته، دعوة التوحيد الخالص من شوائب الشرك والبدع والخرافات، والعودة بالإِسلام كما جاء به رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم أرسل حاكم الأحساء والقطيف إنذاراً إلى أمير العيينة عثمان بن حمد بن معمر بأنه إن لم يُخرج الشيخ من بلده فسوف يعلن الحرب عليه ويقطع الخراج عنه، فاعتذر ابن معمر من بقاء الشيخ عنده، وطلب منه الخروج من بلدة العيينة إلى أية جهة يريدها، وبعث معه برجلين ليرافقاه في طريقه، واسم أحدهما الفريد والآخر طوالة الحمراني، وطلب الشيخ من الرجلين أن يذهبا به إلى الدرعية فسارا معه، وعاد أحدهما من أول الطريق وهو طوالة الحمراني، أما الفريد فسار معه لتوصيله إلى الدرعية، والشيخ يسير وهو يردد قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، و«سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله

أكبر»، وانتقل الشيخ إلى الدرعية.

وبعد انتقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية شرع في تعليم الناس فكثر عنده التلاميذ وأخذت الدرعية في الازدهار، وفيها شيد الأمير محمد بن سعود مسجد الدرعية الكبير، وفي عهد ابنه عبد العزيز زاد ازدهار الدرعية، وقصدها الناس من كل مكان للقاء الشيخ ومبايعته.

تلاميذ الشيخ:

وقد نهل العلم على يدي الشيخ وتخرج به عدد كبير من العلماء الأجلاء، منهم:

١ ـ الشيخ أحمد بن راشد العريني قاضي سدير.

٢ ـ الشيخ حمد بن حسين والشيخ عبد العزيز بن حسين.

٣ ـ الشيخ حمد بن إبراهيم قاضي مرات، وصهره.

٤ ـ الشيخ علي ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٥ ـ الشيخ حسين ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٦ ـ الشيخ إبراهيم ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٧ ـ الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٨ ـ الشيخ أحمد بن ناصر بن عثمان بن معمر.

٩ ـ الشيخ أحمد بن سويلم.

١٠ ـ الشيخ حسن بن عبد الله بن عبد الله قاضي حريملاء.

١١ ـ الأمير سعود ابن الإمام عبد العزيز.

١٢ ـ الشيخ سعيد بن حجي قاضي حوطة بني تميم.

١٣ ـ الشيخ عبد الرحمن بن خميس إمام الدرعية.

١٤ ـ الشيخ عبد العزيز بن سويلم قاضي القصيم.

١٥ ـ الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود.
١٦ ـ الشيخ حسن بن عبدان قاضي حريملاء.
١٧ ـ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الحصين قاضي الوشم.
١٨ ـ الشيخ عبد الرحمن بن نامي قاضي العيينة ثم الأحساء.

نهاية حياة الشيخ وشخصيته:

وفي سنة ١٢٠٦هـ في شوّال مرض الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب مرضاً شديداً لقي فيه ربه في يوم الجمعة آخر ذي القعدة عام ١٢٠٦ للهجرة، ودفن الشيخ في مقبرة الطريف بالدرعية.

ولقد كان رحمه الله من أعلام الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث، وكان قوي العقيدة عميق الإيمان لا يخاف في الحق لومة لائم، يسير على عقيدة السلف الصالح، شديد الغيرة على الدين.

وكان قويّ البنية، ربع القامة ذا وقار وهيبة، يجله أصحابه، وكان عظيم التقوى والزهد والورع والعفة، كثير التسبيح.

ولقد كان قويّ الشخصية، قوي الحجة، غزير المعرفة، شجاع الرأي، يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإلى العقيدة السلفية.

وكان كثير التهجُّد، طويل العبادة، لا يفتر عن ذكر الله، مع حب الخير والبر والإحسان.

وإلى هذا المبادىء وحدها يرجع نجاح الإمام في الدعوة، وتوفيقه فيما قام به من جسام الأمور طول حياته الحافلة بجلائل الأعمال، وجميل الفعال، رحمه الله رحمةً واسعة وغفر له.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين

كتاب الكبائر [١]

وقوله الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في كتابه: القول المفيد شرح كتاب التوحيد (ص ٦٨٤):

«الكبائر»: جمع كبيرة، والمراد بها: كبائر الذنوب، وهذا السؤال يدل على أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد دلَّ على ذلك القرآن قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: الآية ٣١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [النجم: الآية ٣٢]، والكبائر ليست على درجة واحدة؛ فبعضها أكبر من بعض.

واختلف العلماء: هل هي معدودة أو محدودة؟

فقال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعددها ويتتبع النصوص الواردة في ذلك.

وقيل: إنها محدودة، وقد حدَّها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ فقال: «كل ما رُتِّب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه»، وهذا واسع جداً يشمل ذنوباً كثيرة.

[النساء: الآية ٣١] [١] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾

ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان:

قسم نهي عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد؛ فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات؛ كقوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[١]، وكذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة[٢]، والوضوء من تكفير الخطايا[٣]؛ فهذه من الصغائر.

وقسم رُتِّب عليه عقوبة خاصة، كاللعن، أو الغضب، أو التبرؤ من فاعله، أو الحد في الدنيا، أو نفي الإيمان، وما أشبه ذلك؛ فهذه كبيرة تختلف في مراتبها.

[١] قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره (١/ ٦٢٧):

قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ الآية [النساء: الآية ٣١] الآية أي إذا اجتنبتم كبائر الإثم التي نهيتم عنها، كفرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال: ﴿**وندخلكم مدخلاً كريماً**﴾.

وقال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (١/ ٢٠٣) وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات وأدخلهم مدخلاً كريماً كثير الخير وهو الجنة المشتملة على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكباً كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة وصوم رمضان كما قال النبي ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر**».

وأحسن ما حُددت به الكبائر أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة أو نفي إيمان أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الطهارة ـ باب الصلوات الخمس حديث رقم (٥٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العمرة ـ باب وجوب العمرة وفضلها، حديث رقم (١٧٧٣) ومسلم: كتاب الحج ـ باب فضل الحج والعمرة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الطهارة/ باب فضل الوضوء، حديث رقم (٥٣٩).

[النّجم: الآية ٣٢] [١].

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الكبائر كل ذنب خَتمهُ الله بنارٍ أو لعنةٍ أو غضبٍ أو عذاب.

وله عنه قال: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى السبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار(١). ولعبد الرزاق عنه: هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (٢/ ١١٤٢): ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ [النّجم: الآية ٣٢] أي يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات التي يكون تركها من كبائر الذنوب ويتركون المحرمات الكبار من الزنا وشرب الخمر وأكل الربا والقتل ونحو ذلك من الذنوب العظيمة. ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النّجم: الآية ٣٢] وهي الذنوب الصغار التي لا تضر صاحبها عليها أو التي يلم العبد بها المرة بعد المرة على وجه الندرة والقلة فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين فإن هذه مع الاتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد ولولا عفوه وحلمه، لسقطت السماء على الأرض ولما ترك على ظهرها من دابة.

---

(١) انظر تفسير الطبري (٤/ ٤١).

١ ـ باب أكبر الكبائر

في الصحيحين عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قلنا بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، ـ وكان متكئاً فجلس فقال: ـ ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور»** فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[(١)] [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه على رياض الصالحين (٥/٢٣٨):

حديث أبي بكرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»**؟ ـ ثلاثاً ـ قلنا بلى يا رسول الله، قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»**، هذا من أكبر الكبائر.

فالإشراك بالله كبيرة في حق الله، وعقوق الوالدين كبيرة في حق من هم أحق الناس بالولاية والرعاية، وهما الوالدان.

وكان ﷺ متكئاً فجلس أي معتمداً على يده، فجلس واستقام جلسته وقال: **«ألا وقول الزور وشهادة الزور»**.

هذا أيضاً من أكبر الكبائر وإنما جلس النبي ﷺ عند هذا لأن هذا ضرره عظيم، وعاقبته وخيمة.

وقول الزور يعني الكذب، وشهادة الزور أي الذي يشهد بالكذب والعياذ بالله، وما أرخص شهادة الزور اليوم عند كثير من الناس، يظن الشاهد أنه أحسن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢٦٥٤ و٥٩٧٦ و٦٢٧٣ و٦٢٧٤) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/٩١) حديث رقم (٨٧).

. . . .

إلى من شهد له، ولكنه أساء إلى نفسه، وأساء إلى من شهد له، وأساء إلى من شهد عليه.

أما إساءته إلى نفسه فلأنه أتى كبيرةً من كبائر الذنوب والعياذ بالله، بل من أكبر الكبائر، وأما كونه أساء إلى المشهود له فلأنه سلطه على ما لا يستحق وأكله الباطل، وأما إساءته إلى المشهود عليه فظاهر؛ فإنه ظلمه واعتدى عليه، ولهذا كانت شهادة الزور من أكبر الكبائر والعياذ بالله.

ولا تظن أنك إذا شهدت لأحد زوراً أنك محسن إليه، لا والله بل أنت مسيء إليه، وللأسف فكثير من الناس الآن يشهد عند الحكومة في المسائل بأن فلان هو المستحق، ويلبسون على الحكومة، ويستعيرون أسماء ليست بصحيحة، كل هذا من أجل أن ينالوا شيئاً من الدنيا، لكنهم خسروا الدنيا والآخرة بهذا الكذب والعياذ بالله.

وهذا الحديث يوجب للعاقل الحذر من هذه الأمور الأربعة: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور، وشهادة الزور.

٢ ـ باب كبائر القلب

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**(١) رواه مسلم[١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (١/ ٥١ وما بعدها):

وقوله ﷺ: **«ولكن ينظر إلى قلوبكم»** وفي لفظ: **«قلوبكم وأعمالكم»**. هذا الحديث يدلُّ على ما يدلُّ عليه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٣].

فالله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى العباد إلى أجسامهم هل هي كبيرة أو صغيرة أو صحيحة أو سقيمة ولا ينظر إلى الصُّور هل هي جميلة أو ذميمة.

كل هذا ليس بشيء عند الله، وكذلك لا ينظر إلى الأنساب هل هي رفيعة أو دنيئة ولا ينظر إلى الأموال ولا يَنظر إلى شيء من هذا أبداً.

ليس بين الله وبين خَلْقه صِلة إلا بالتقوى، فمن كان لله أتقىٰ كان من الله أقرب وكان عند الله أكرم، إذاً لا تفتخر بمالك ولا بجمالك ولا ببدنك ولا بأولادك ولا بقصورك ولا بسياراتك ولا بشيء من هذه الدنيا أبداً. إنما إذا وَفَّقك الله للتَّقوى فهذا من فضل الله عليك فاحمد الله عليه.

واعلم أن الأعمال بالنِّيات، والقلوب هي التي عليها المدار.

كم من إنسان ظاهر عمله أنَّه صحيح وجيِّد وصالح لكن لمَّا بُني على خَراب صار خَراباً.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٨٧) برقم (٢٥٦٤).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: **«ألا وإن في الجسد مضغة**

النِّية هي الأصل، تجد رجلين يُصلِّيان في صَفٍّ واحد مقتديين بإمام واحد، يكون بين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب، لأن القلب مختلف أحدهما قلبه غافل بل ربما يكون مُرائياً في صلاته والعياذ بالله يُريد بها الدُّنيا، والآخر قلْبه حاضر يريد بصلاته وجه الله واتِّباع سُنَّة رسول الله ﷺ.

فبينهما فَرْقٌ عظيم، فالعلم على ما في القلب وعلى ما في القلب يكون الجزاء يوم القيامة كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطّارق: الآيتان ٨، ٩] أي: تختبر السرائر لا الظواهر.

في الدنيا الحكم بين الناس على الظَّاهر لقول النبي ﷺ: **«إنَّما أقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَع»**(١) لكن في الآخرة العلم على ما في السرائر نسأل الله أن يُطهِّر سرائرنا وإيَّاكم.

فإذا كانت السريرة جيّدة صحيحة فأبشر بالخير وإن كانت الأخرى فقَدت الخير كُلَّه، وقال الله عز وجل: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العَاديَات: الآيتان ٩، ١٠] فالعلم على ما في القلب.

وإذا كان الله في كتابه وكان رسوله ﷺ في سنته يؤكدان على إصلاح النِّية فالواجب على الإنسان أن يُصلح نيته، يُصلح قلبه، ينظر ما في قلبه من الشّك فيزيله إلى اليقين كيف ذلك؟

يكون ذلك بنظره إلى الآيات قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾ [آل عِمـرَان: الآيـة ١٩٠] وقـال: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [الـجَـاثـيَـة: الآيتان ٣، ٤] فأنت انظر في آيات الله.

إذا ألقى الشيطان في قلبك الشّك فانظر في آيات الله.

انظر إلى هذا الكون من يُدَبّره، انظر كيف تتغير الأحوال كيف يداول الله الأيام بين الناس حتى تعلم أنَّ لهذا الكون مدبراً حكيماً عزَّ وجلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٩٦٧) كتاب الحيل، ومسلم رقم (١٧١٣) كتاب الأقضية.

إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(1) [١].

الشِّرك طهر قلبك منه، كيف أُطهر نفسي منه؟

أطهر قلبي بأن أقول لنفسي إن الناس لا ينفعونني إن عصيت الله، ولا ينقذونني من العقاب، وإن أطعت الله لم يجلبوا إليّ الثواب.

فالذي يجلب الثَّواب ويدفع العقاب هو الله، إذا كان الأمر كذلك فلماذا تشرك بالله عزَّ وجلَّ، لماذا تنوي بعبادتك أن تتقرب إلى الخلق ولهذا من تقرَّب إلى الخلق بما يتقرّب به إلى الله ابتعد الله عنه وابتعد عنه الخلق.

يعني لا يزيده تقرُّبه إلى الخلق بما يقربه إلى الله إلا بُعداً من الله ومن الخلق؛ لأن الله إذا رضي عنك أرضى عنك الناس وإذا سخط عليك أسخط عليك الناس نعوذ بالله من سخطه ومن عقابه.

المهم يا أخي عالج القلب دائماً، كن دائماً في غسيل للقلب حتى يطهر كما قال الله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: الآية ٤١]، فتطهير القلب أمر مهم جداً، أسأل الله أن يُطهر قلبي وقُلوبكم وأن يجعلنا له مخلصين ولرَسُوله متبعين.

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ١٧٨ وما بعدها):

ثم قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب**». «**مضغة**» يعني قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضعه الإنسان، لكن شأنها عظيم، هي التي تدير الجسد «**إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله**» ليست العين، ولا الأنف، ولا اللسان، ولا اليد، ولا الرجل، ولا الكبد، ولا غيرها من الأعضاء، إنما هي القلب، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم مصرف القلوب**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٥٢ و٢٠٥١) ومسلم في صحيحه كتاب المساقاة (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) ضمن حديث طويل أوله: «**إن الحلال بين والحرام بين..**» الحديث.

صرف قلوبنا إلى طاعتك»[1].

فالإنسان مدار صلاحه وفساده على القلب. ولهذا عليك أيها المسلم أن تعتني بصلاح قلبك، فصلاح الظواهر وأعمال الجوارح طيب، ولكن الشأن كل الشأن في صلاح القلب، يقول الله عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: الآية ٤] ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من الهيئة الحسنة، وحسن عمل الجوارح، وإذا قالوا، قالوا قولاً تسمع له من حسنه وزخرفته، لكن قلوبهم خربة والعياذ بالله ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: الآية ٤] ليس فيها خير.

فاعتن يا عبد الله، بصلاح قلبك، وانظر قلبك هل فيه شيء من الشرك؟

هل فيه شيء من كراهة ما أنزل الله؟

هل فيه شيء من كراهة عباد الله الصالحين؟

هل فيه شيء من الميل إلى الكفار؟

هل فيه شيء من موالاة الكفار؟ هل فيه شيء من الحسد؟ هل فيه شيء من الغل؟ هل فيه شيء من الحقد؟ أو غير ذلك من الأمراض العظيمة الكثيرة، فإذا كان فيه من ذلك فطهر قلبك من هذا وأصلحه، فإن المدار عليه.

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: الآيتان ٩، ١٠] هذا في يوم القيامة، العمل يكون على الباطن، في الدنيا العمل على الظاهر، ما لنا إلا ظواهر الناس، لكن في الآخرة العمل على الباطن، أصلح الله قلوبنا وقلوبكم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ [الطارق: الآية ٩] يعني تختبر البواطن فمن كان من المؤمنين ظهر إيمانه، ومن كان من أهل النفاق ظهر نفاقه والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر رقم (٢٦٥٤)، ولفظه: «اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك».

وأخرجه الترمذي في سننه كتاب الدعوات رقم (٣٥٢٢)، وفيه أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». وقال الترمذي: حديث حسن.

. . . .

لذلك أصلح قلبك يا أخي، لا تكره شريعة الله، لا تكره عباد الله الصالحين، لا تكره أي شيء مما أنزل الله، فإن كراهتك لشيء مما أنزل الله كفر بالله تعالى، ودليل على عدم إيمانك، ودليل على أن الإيمان لم يتمكن من قلبك.



٣ ـ باب ذكر الكبر [١]

وقوله الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: الآية ٣٦]

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ٢٣٢ وما بعدها):

والكبر: هو الترفع واعتقاد الإنسان نفسه أنه كبير، وأنه فوق الناس، وأن له فضلاً عليهم.

والإعجاب: أن يرى الإنسان عمل نفسه فيعجب به، ويستعظمه، ويستكثره.

فالإعجاب يكون في العمل، والكبر يكون في النفس، وكلاهما خلق مذموم.

والكبر نوعان: كبر على الحق، وكبر على الخلق، وقد بينهما النبي ﷺ في قوله: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[١] فبطر الحق يعني رده والإعراض عنه، وعدم قبوله، وغمط الناس يعني احتقارهم وازدراءهم، وألا يرى الناس شيئاً، ويرى أنه فوقهم.

وقيل لرجل: ماذا ترى الناس؟ قال: لا أراهم إلا مثل البعوض، فقيل له: إنهم لا يرونك إلا كذلك.

وقيل لآخر: ما ترى الناس؟ قال: أرى الناس أعظم مني، ولهم شأن، ولهم منزلة، فقيل له: إنهم يرونك أعظم منهم، وأن لك شأناً ومحلاً.

فأنت إذا رأيت الناس على أي وجه فالناس يرونك بمثل ما تراهم به، إن رأيتهم في محل الإكرام والإجلال والتعظيم، ونزلتهم منزلتهم عرفوا لك ذلك، ورأوك في محل الإجلال والإكرام والتعظيم، ونزلوك منزلتك، والعكس بالعكس.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٩١) كتاب الإيمان.

[١] وقول الله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾ [غافر: الآية ٧٦].

أما بطر الحق: فهو ردّه، وألا يقبل الإنسان الحق بل يرفضه ويرده اعتداداً بنفسه ورأيه، فيرى والعياذ بالله أنه أكبر من الحق، وعلامة ذلك أن الإنسان يؤتى إليه بالأدلة من الكتاب والسنة، ويقال: هذا كتاب الله، هذه سنة رسول الله، ولكنه لا يقبل، بل يستمر على رأيه، فهذا ردُّ الحق والعياذ بالله.

وكثير من الناس ينتصر لنفسه، فإذا قال قولاً لا يمكن أن يتزحزح عنه، ولو رأى الصواب في خلافه، ولكن هذا خلاف العقل وخلاف الشرع.

والواجب أن يرجع الإنسان للحق حيثما وجده، حتى لو خالف قوله فليرجع إليه، فإن هذا أعز له عند الله، وأعز له عند الناس، وأسلم لذمته وأبرأ.

فلا تظن أنك إذا رجعت عن قولك إلى الصواب أن ذلك يضع منزلتك عند الناس، بل هذا يرفع منزلتك، ويعرف الناس أنك لا تتبع إلا الحق، أما الذي يعاند ويبقى على ما هو عليه ويرد الحق، فهذا متكبر والعياذ بالله.

وهذا يقع من بعض الناس والعياذ بالله حتى من طلبة العلم، يتبين له بعد المناقشة وجه الصواب وأن الصواب خلاف ما قاله بالأمس، ولكنه يبقى على رأيه، يملي عليه الشيطان أنه إذا رجع استهان الناس به، وقالوا عنه إنه إمعة كل يوم له قول، وهذا لا يضر إذا رجعت إلى الصواب، فليكن قولك اليوم خلاف قولك بالأمس، فالأئمة الأجلة كان يكون لهم في المسألة الواحدة أقوال متعددة.

وها هو الإمام أحمد رحمه الله إمام أهل السنة، وأرفع الأئمة من حيث اتباع الدليل وسعة الاطلاع، نجد أن له في المسألة الواحدة في بعض الأحيان أكثر من أربعة أقوال، لماذا؟ لأنه إذا تبين له الدليل رجع إليه، وهكذا شأن كل إنسان منصف عليه أن يتبع الدليل حيثما كان.

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢٠٦):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ [النساء: الآية ٣٦]: أي معجباً بنفسه متكبراً على الخلق ﴿فَخُورًا﴾ [النساء: الآية ٣٦] يثني على نفسه يمدحها، على وجه الفخر والبطر، على عباد الله.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبرٍ**» فقال رجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطرُ الحق وغمطُ الناس**»(1) [1].

---

[1] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ٢٣٩):

وهذا الحديث من أحاديث الوعيد التي يطلقها الرسول ﷺ تنفيراً عن الشيء، وإن كانت تحتاج إلى تفصيل حسب الأدلة الشرعية.

فالذي في قلبه كبر، إما أن يكون كبراً عن الحق وكراهة له، فهذا كافر مخلد في النار ولا يدخل الجنة، لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمد: الآية ٩] ولا يحبط العمل إلا بالكفر لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢١٧].

وأما إذا كان كبراً على الخلق وتعاظماً على الخلق، لكنه لم يستكبر عن عبادة الله، فهذا لا يدخل الجنة دخولاً كاملاً مطلقاً لم يسبق بعذاب، بل لا بد من عذاب على ما حصل من كبره وعلوائه على الخلق ثم إذا طهر دخل الجنة.

ولما حدث النبي ﷺ بهذا الحديث قال رجل: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. يعني فهل هذا من الكبر؟ فقال النبي ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**» جميل في ذاته، جميل في أفعاله، جميل في صفاته، كل ما يصدر عن الله عز وجل فإنه جميل وليس بقبيح، بل حسن، تستحسنه العقول السليمة، وتستسيغه النفوس.

وقوله: «**يحب الجمال**» أي يحب التجمل بمعنى أنه يحب أن يتجمل الإنسان في ثيابه، وفي نعله، وفي بدنه، وفي جميع شؤونه، لأن التجمل يجذب القلوب إلى

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٩٣) رقم (٩١).

وَروى البخاريُّ عن حارثةَ بن وَهبٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قالَ:
«ألاَ أخبركمْ بأهلِ النَّارِ؟ كلُّ عُتلٍ جواظٍ مُستكبرٍ»[1] العتلُّ الغليظُ الجَافي،

الإنسان، ويحببه إلى الناس، بخلاف التشوه الذي يكون فيه الإنسان قبيحاً في شعره أو في ثوبه أو في لباسه، فلهذا قال: **«إن الله جميل يحب الجمال»** أي: يحب أن يتجمل الإنسان.

وأما الجمال الخلقي الذي من الله عز وجل، فهذا إلى الله سبحانه وتعالى، ليس للإنسان فيه حيلة، وليس له فيه كسب، وإنما ذكر النبي ﷺ ما للإنسان فيه كسب وهو التجمل.

وقال العلامة السعدي رحمه الله في كتابه بهجة قلوب الأبرار (ص ١٢٩ وما بعدها):

حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَدْخُل الجنَّةَ مَن كانَ فِي قلبهِ مثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ»**. فقال رجلٌ: إنَّ الرجُلَ يُحِبُّ أَنْ يكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً، ونَعْلُه حَسَناً؛ فقالَ: **«إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجمالَ، الكِبْرُ: بَطْرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»**. رواه مسلم.

قد أخبر الله تعالى: أن النار مثوى المتكبرين. وفي هذا الحديث: أنه **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**. فدل على أن الكبر موجب لدخول النار، ومانع من دخول الجنة.

وبهذا التفسير الجامع الذي ذكره النبي ﷺ يتضح هذا المعنى غاية الاتضاح، فإنه جعل الكبر نوعين:

كبر النوع الأول: على الحق، وهو رده وعدم قبوله.

فكل من رد الحق فإنه مستكبر عنه بحسب ما رد من الحق. وذلك أنه فرض على العباد أن يخضعوا للحق الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه.

فالمتكبرون عن الانقياد للرسل بالكلية كفارٌ مخلدون في النار، فإنه جاءهم الحق

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٤٩١٨ و٦٠٧١) ومسلم في صحيحه كتاب صفة الجنة (٤/ ٢١٩٠) برقم (٢٥٥٣).

والجواظ قيلَ المختالُ الضخمُ، وقيلَ القصيرُ البطين. وبطرُ الحقِّ: رده إذا أتَاكَ،

على أيدي الرسل مؤيداً بالآيات والبراهين، فقام الكبر في قلوبهم مانعاً، فردوه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ﴾ [غافر: الآية ٥٦].

وأما المتكبرون عن الإنقياد لبعض الحق الذي يخالف رأيهم وهواهم: فهم ـ وإن لم يكونوا كفاراً ـ فإن معهم من موجبات العقاب بحسب ما معهم من الكبر، وما تأثروا به من الامتناع عن قبول الحق الذي تبين لهم بعد مجيء الشرع به.

ولهذا أجمع العلماء أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ: لم يحل له أن يعدل عنها لقول أحد، كائناً من الناس من كان.

فيجب على طالب العلم: أن يعزم عزماً جازماً على تقديم قول الله وقول رسوله ﷺ على قول كل أحد. وأن يكون أصله الذي يرجع إليه، وأساسه الذي يبني عليه: الاهتداء بهدي النبي ﷺ، والاجتهاد في معرفة مراده، واتباعه في ذلك، ظاهراً وباطناً.

فمتى وُفق لهذا الأمر الجليل فقد وفق للخير، وصار خطؤه معفوًّا عنه، لأن قصده العام اتباع الشرع.

فالخطأ معذور فيه إذا فعل مستطاعه من الاستدلال والاجتهاد في معرفة الحق. وهذا هو المتواضع للحق.

وأما الكبر على الخلق ـ وهو النوع الثاني: فهو غمطهم واحتقارهم، وذلك ناشيء عن عجب الإنسان بنفسه؛ وتعاظمه عليهم.

فالعجب بالنفس يحمل على التكبر على الخلق، واحتقارهم والاستهزاء بهم، وتنقيصهم بقوله وفعله.

وقال رسول الله ﷺ: «**بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**».

ولما قال هذا الرجل: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً» وخشي أن يكون هذا من الكبر الذي جاء فيه الوعيد: بين له النبي ﷺ أن هذا ليس من الكبر، إذا كان صاحبه منقاداً للحق، متواضعاً للخلق، وأنه من الجمال الذي يحبه الله،

وغمط النَّاسِ: احتقارهُمْ [١].

فإنه تعالى جميل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، يحب الجمال الظاهري، والجمال الباطني.

فالجمال الظاهر: كالنظافة في الجسد، والملبس، والمسكن، وتوابع ذلك.

والجمال الباطن: التجمل بمعالي الأخلاق ومحاسنها.

ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهم اَهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَعْمَالِ والأَخْلاَقِ، لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ. وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّىء الأَعْمَالِ والأَخْلاَقِ، لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَها إِلاَّ أَنْتَ»**. والله أعلم.

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ٢٤٤):

قول النبي ﷺ: **«ألا أخبركم بأهل النار»**، هذا من الأسلوب الذي كان النبي ﷺ يستعمله، أن يورد الكلام على صيغة الاستفهام، من أجل أن ينتبه المخاطب ويعي ما يقول، فهو يقول: **«ألا أخبركم»**، الكل سيقول نعم أخبرنا يا رسول الله. قال: **«كل عتلٍ جوّاظٍ مستكبر»**.

العتل: معناها الشديد الغليظ، ومنه العتلة التي تحفر بها الأرض، فإنها شديدة غليظة، فالعتل هو الشديد الغليظ، والعياذ بالله.

الجوّاظ: يعني أنه فيه زيادة من سوء الأخلاق.

والمستكبر ـ وهذا هو الشاهد ـ: هو الذي عنده كبر والعياذ بالله وغطرسة، كبر على الحق، وكبر على الخلق، فهو لا يلين للحق أبداً، ولا يرحم الخلق والعياذ بالله.

هؤلاء هم أهل النار، أما أهل الجنة فهم الضعفاء المساكين الذين ليس عندهم ما يستكبرون به، بل هم دائماً متواضعون ليس عندهم كبرياء ولا غلظة، لأن المال أحياناً يفسد صاحبه، ويحمله على أن يستكبر على الخلق ويردّ الحق، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العَلق: الآيتان ٦، ٧].

وكذلك أيضاً حديث احتجاج النار والجنة؛ احتجت النار والجنة، فقالت النار: إن أهلها هم الجبارون المتكبرون، وقالت الجنة: إن أهلها هم الضعفاء والمساكين،

ولأحمد وصححه ابن حبان من حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ رفعهُ: **«مَنْ تَواضعَ لله درجةً رفعهُ الله بِهَا درجةً حتَّى يجعَلهُ في أَعْلَى عليينَ ومنْ تَكَبَّر على الله درجةً وضعهُ الله بها درجةً حتى يجعلهُ في أسفلِ سَافلِينَ»**(١).

وللطبراني عن ابنِ عُمرَ ـ رضي الله عنهما ـ رفَعَهُ: **«إياكم والكبرَ فإنَّ الكبرَ يكونُ في الرَّجلُ وإنَّ عليهِ العباءَةَ»** رواتهُ ثِقاتٌ(٢).

فاحتجت كل واحدة منهما على الأخرى.

فحكم الله بينهما عز وجل، وقال في الجنة: **«أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء»** وقال للنار: **«أنت عذابي أعذب بك من أشاء»** فصارت النار دار العذاب والعياذ بالله، والجنة دار الرحمة، فهي رحمة الله ويسكنها الرحماء من عباده، كما قال النبي ﷺ: **«وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»**.

وقال **«ولكل منكما عليَّ ملؤها»** فوعد الله عز وجل النار ملأها، ووعد الجنة ملأها، وهو لا يخلف الميعاد عز وجل.

ولكن أتدرون ماذا تكون العاقبة؟ تكون العاقبة ـ كما ثبتت بها الأحاديث الصحيحة ـ أن النار لا يزال يلقى فيها، وهي تقول **«هل من مزيد»** كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: الآية ٣٠] يعني تطلب الزيادة لأنها لم تمتلىء، فيضع الرب عز وجل عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض أي ينضم بعضها إلى بعض وتقول **«قطِ قطِ»**(٣) أي حسبي، حسبي، لا أريد زيادة فصارت تملأ بهذه الطريقة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٧٦) وابن ماجه في سننه (٢/ ٥٤٤) رقم (٤١٧٦) وابن حبان في صحيحه برقم (١٩٤٢) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن ابن ماجه رقم (٩١٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (٨/ ١٨٩) رقم (٤٩٣٧) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع برقم (٢٢٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير رقم (٤٨٥٠) ومسلم في صحيحه في كتاب الجنة رقم (٢٨٤٦) [٣٦].

٤ ـ باب ذكر العجب

وقوله الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المعَارج: الآية ٢٧] روي عن ابنِ مسعودٍ أنه قال: «الهلاكُ في اثنتينِ ـ القُنوطِ والعُجب».

عنْ أبي بكرةَ أنَّ رجلاً ذكر عندَ النبي ﷺ فأثنى عليه رجُل خيراً فقالَ النبي ﷺ **«وَيَحكَ قطعْتَ عنقَ صاحبكَ»** رددَهُ مراراً ثمَّ قال: **«إنْ كان أحدَكُمْ مادحاً لا محَالَة فليقلْ أحسبُهُ كذا وكذا، إن كانَ يرى أنَّهُ كذلِكَ وحسيبهُ الله، ولاَ أُزكِّي على الله أحداً»** رواه البخاري ومسلم(١) [١].

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٠/ ٥٨٥):

قوله: **«ويحك»** هي كلمة رحمة وتوجع، وويل كلمة عذاب وقد تأتي موضع ويح، قوله **«لا محالة»** أي لا حيلة له من ترك ذلك ويحتمل أن يكون من الحول أي القوة والحركة، قوله: **«فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى»** بضم أوله أي يظن، قوله: **«والله حسيبه»** أي كافيه، ويحتمل أن يكون هذا فعيل من الحساب أي محاسبة على عمله الذي يعلم حقيقته؛ وهي جملة اعتراضية، وقال الطيبي: هي من تتمة المقول، والجملة الشرطية حال من فاعل فليقل، والمعنى فليقل أحسب أن فلاناً كذا إن كان يحسب ذلك منه والله يعلم سره لأنه هو الذي يجازيه، ولا يقل أتيقن ولا أتحقق جازماً بذلك.

قوله: **«ولا يزكي على الله أحد»**... وفي رواية غندر: **«ولا أزكي»** أي لا أقطع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢٦٦٢ و٦٠٦١ و٦١٦٢) ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٦) برقم ٣٠٠٠ بنحوه.

ولأحمد بسند جيد عن الحارث بن معاوية أنهُ قال لعمرَ ـ رضي الله عنه ـ إنهمْ كانوا يُراودونني على القصَص فقالَ: «أخشى أنْ تقص فترتفعَ عليهمْ في نفسِكَ ثمَّ تقصَّ فترتفعَ حتى يخيل إليكَ أنك فوقهمْ في منزلِهِ الثُّريَّا، فيضعكَ الله عزَّ وجلَّ تحتَ أقدامهِمْ يومَ القيامةِ بقدر ذلكَ»[1].

وللبيهقي عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: **«لوْ لمْ تذنبوا لخفِتُ عليكُمْ ما هُو أشدُّ مِنْ ذلكَ ـ العُجْبَ»**[2].

على عاقبة أحد ولا على ما في ضميره لكون ذلك مغيباً عنه، وجيء بذلك بلفظ الخبر ومعناه النهي أي لا تزكوا أحداً على الله لأنه أعلم بكم منكم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ١٨) بسند حسن.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٥٣) برقم (٧٢٥٥) وفي إسناده سلام بن أبي الصهباء، قال البخاري: منكر الحديث وضعفه يحيى بن معين، انظر اللسان (٣/ ٥٨).

٥ ـ باب ذكر الرياء والسمعه

وقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠] [١].

عنْ جُندبِ بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ **«مَنْ سمَّعَ سمَّعَ الله به ومن يُرائي يرائي الله بِهِ»** أخرجاه(١) [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٦٥٨):

﴿قل﴾ يا محمد للكفار وغيرهم **﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾** أي لست بإله ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله **﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾** عبد من عبيد ربي **﴿يوحى إلي أنما إلٰهكم إله واحد﴾** أي: فضلت عليكم بالوحي الذي يوحيه إليّ، الذي أجلُّهُ الأخبار لكم، أنما إلهكم إله واحد، أي: لا شريك له ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه، ولهذا قال: **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾** وهو الموافق لشرع الله، من واجب و مستحب **﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾** أي: لا يرائي بعمله بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب وأما من عدا ذلك فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه.

[٢] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (١١/٤٠٩ فتح):

قال الخطابي: معناه من عمل عملاً على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٤٩٩ و٧١٥٢) ومسلم في صحيحه (٤/٢٢٨٩) رقم (٢٩٨٧).

قيلَ معنى من سمَّعَ سمعَ الله بِهِ أي فضحهُ يومَ القيامةِ، ومعنَى مَنْ يُرائِي: أي مَنْ أظهرَ العمَلَ الصالحَ للنَّاس ليعظَّمَ عندهم (يُرائي بِهِ الله) قيلَ معْنَاهُ إظهارُ سريرتِهِ للناس.

ولهمَا عنْ عمرَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ «**إنمَا الأعمالُ بالنياتِ وإنمَا لكلِّ امرىء ما نوى**»(1) [1].

ويسمعوه جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه.

وقيل من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يرد به وجه الله فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له في الآخرة.

ومعنى يرائي: يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها**. . .﴾ إلى قوله ﴿**ما كانوا يعملون**﴾. . . وقيل المعنى: من يرائي الناس بعمله أراه الله ثواب ذلك العمل وحرمه إياه، وقيل: معنى: «**سمع الله به**» شهره أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا أو في يوم القيامة بما ينطوي عليه من خبث السريرة.

[1] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (1/ 12 وما بعدها):

قوله ﷺ: «**إنَّما الأعْمالُ بالنيَّاتِ وإنَّما لكل امْرىءٍ ما نَوى**».

هاتانِ الجملتانِ اختلف العلماءُ رحمهُمْ اللهِ فيهِما، فقالَ بعضُ العلماءِ إنهما جملتانِ بمعنىً واحدٍ، وأنَّ الجملةَ الثَّانية تأكيدٌ للجملةِ الأولىٰ.

ولكنْ هذا ليسَ بصحيح وذلكَ لأنَّ الأصلَ في الكلامِ أنْ يكونَ تأسيساً لا تأكيداً.

ثمَّ إنَّهما عندَ التأملِ يتبيَّن أنَّ بينهما فَرْقاً عظيماً.

فالأولى سَبَبٌ، والثَّانية نَتِيجةٌ.

الأولى سببٌ يُبيِّن فيها النبيُ ﷺ أنّ كُلَّ عملٍ لا بدَّ فيهِ من نيَّة.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (1 و54 و2529 و3898 و5070 و6689 و6953) ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة (3/ 1515) رقم (1907).

. . . .

كلُ عمل يعلمهُ الإنسانُ وهو عاقل مختارٌ فلا بد فيه من نيَّة، ولا يمكن لأي عاقل مختار أن يعملَ عملاً إلاَّ بنيّة.

حتى قال بعض العلماءِ: «لو كلَّفنا اللَّهُ عملاً بلا نيَّةٍ لكانَ مِن تكليفِ ما لا يُطاقُ».

وهذا صحيحٌ، كيفَ تعمَلُ وأنتَ عاقلٌ في عقلِكَ وأنتَ مختارٌ غير مُكرهٌ عملاً بلا نيَّةٍ؟ هذا مستحيلٌ لأنَّ العملَ ناتجٌ عن إرادةٍ وقدرةٍ، والإرادةُ هي النِّيةُ، إذاً فالجملة الأولى معناها أنَّهُ ما مِنْ عاملٍ ألاَّ ولهُ نيَّةٌ ولكنَّ النِّياتَ تختلفُ اختلافاً عظيماً وتتباينُ تبايناً بعيداً كما بينَ السَّماءِ والأرضِ.

منَ الناسِ مَنْ نيَّتُهُ في القمَّةِ في أعلى شيءٍ، ومِنَ الناسِ مَنْ نيَّتُهُ في القمامةِ في أخَسِّ شيءٍ وأدنى شيءٍ.

حتَّى إنَّكَ لَتَرَى الرَّجُلَيْن يعملانِ عملاً واحداً يتَّفقانِ في ابتدائِهِ وانتهائِهِ وفي أثنائِهِ وفي الحركاتِ والسَّكناتِ والأقوالِ والأفعالِ، وبينهُما كما بين السَّماءِ والأرضِ كلُّ ذلك باختلافِ النِّيةِ.

إذاً الأساسُ أنَّهُ: ما مِنْ عملٍ بلا نيةٍ.

نتيجة قوله: **«وإنَّما لِكُلِّ امرىء ما نوى»** إنْ نويْتَ الله والدارَ الآخرةِ في أعمالِك الشرعيَّةِ حصلَ لكَ ذلِك، وإنْ نويتَ الدُّنيا فقدْ تَحْصلُ وقد لا تحصل.

قال الله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: الآية ١٨] ما قال: عجلْنا لهُ ما يُريدُ!! بل قالَ: ما نَشاءُ ـ أي لا ما يشاء هو ـ لمنْ نريد ـ لا لِكُلِّ إنسانٍ ـ فقيَّدَ المُعَجَّلَ والمُعَجَّلَ له.

إذاً مِنَ النَّاس مَنْ يُعطىٰ ما يُريد مِنَ الدُّنيا ومنهم من يُعطى شيئاً منه ومنهم من لا يعطى شيئاً أبداً.

هذا معنى قوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: الآية ١٨] أما ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٩].

. . . .

لا بُدَّ أن يجني هذا العمل الَّذي أرادَ بِهِ وَجْهَ اللهِ والدَّار الآخرَةِ.

وقولُهُ: **«إنَّما الأعمالُ بالنِّيات . . إلخ»** هذه ميزانُ لكلِّ عمل، لكنَّه ميزانُ الباطنِ.

وقولُهُ ﷺ فيما أخرجه الشيخانِ عن عائشةِ رضيَ الله عنها: **«مَنْ عمِلَ عَمَلاً ليسَ عليهِ أمْرُنا فهُو رَدٌّ»**، ميزانٌ للأعمالِ الظَّاهرةِ.

ولهذا قال أهلُ العلم: «هذان الحديثان يجمعانِ الدينَ كُله» ثم ضرب النَّبيُّ ﷺ مثلاً يُطَبِّقُ هذا الحديثُ عليهِ، قالَ: **«فَمَنْ كانت هجْرَتُه إلى الله وَرَسُوله فهجْرَتُه إلى الله وَرَسُوله، وَمَن كانت هِجْرتُه لِدُنيا يُصيبها أو امرَأةٍ يَنكِحُها فَهِجْرَتُه إلى مَا هَاجَر إليه»**.

الهجرة: أن ينتقل الإنسان مِنْ دارِ الكفرِ إلى دار الإسلام. مثل أن يكون في أميركا ـ وأميركا دارُ كفرٍ ـ فيُسْلم ولا يتمكن من إظهارِ دينِهِ هناك، فينتقلُ منها إلى البلادِ الإسلاميَّةِ هذهِ هيَ الهجرةُ.

إذا هاجرَ النَّاسُ، فهم يختلفونَ في الهجرةِ.

منهم من يهاجرُ وَيَدعُ بلدَهُ إلى الله ورسولِهِ، يعني إلى شريعة الله التي شرعَها الله على لسانِ رسولِهِ ﷺ هذا هو الذي ينالُ الخيرَ، وينال مقصوده ولهذا قال: **«فهجْرتُه إلى الله ورَسُوله»** أي فقد أدركَ ما نَوى.

الثاني: هاجر لدنيا يُصيبها، مثلاً رجل يحبُّ جمعَ المالِ فسمعَ أن في بلادِ الإسلام مرتعاً خصباً لاكتساب الأموال فهاجر من بلدِ الكفر إلى بلدِ الإسلام فقط، لا يَقْصِدُ أَنْ يستقيمَ على دينهِ ولا يهتَم لدينِهِ، إنما همُّهُ المالُ.

ثالثاً: رَجُلُ هاجَرَ من بلدِ الكفرِ إلى بلدِ الإسلامِ يُريدُ امرأةً يتزوجها، قيلَ له: لا نزوجْكَ إلا في بلادِ الإسلامِ ولا تسافرْ بها إلى بلادِ الكفرِ، فهاجَرَ منْ بلدِهِ إلى بلادِ الإسلامِ من أجلِ المرأةِ.

فَمُريدُ الدُّنيا ومريدُ المرأةُ لم يُهاجرْ إلى الله ورسولِهِ، ولهذا قالَ الرسولُ ﷺ: **«فهجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليه»**، وهنا قال: **«إلى ما هاجَرَ إلَيهِ»** ولم يقل «فهجرته إلى دُنيا يُصيبُها أو امرأة يَنْكِحها» فلماذا؟

. . . .

قيلَ لطولِ الكلامِ، فإذا قيلَ فهجرتُه إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحُها طالَ الكلامُ.

وقيل بل لم يُنصَّ عليهما احتقاراً وإعراضاً عن ذكرهما لأنَّها نيةٌ فاسدةٌ مُنحطَّة.

وعلى كلِّ حال فإنَّ هذا الذي نوى بهجرتِهِ الدُّنيا أو المرأةِ لا شكَّ أن نيته سافلةٌ مُنحَطَّة هابطةٌ بخلافِ الأوَّلِ الذي هاجَرَ إلى اللهِ ورُسُوله ﷺ.

أقسام الهجرة:

الهجرة تكون للعمل، وتكون للعامل، وتكون للمكان.

القسم الأول: هجرة المكان: فأنْ ينتقلَ الإنسان من مكانٍ تكثرُ فيهِ المعاصي ويكثر فيه الفُسوق وربما يكون بلد كفرٍ إلى بلدٍ لا يوجد فيه ذلك.

وأعْظمُه الهجرةُ من بلدِ الكفرِ إلى بلدِ الإسلامِ، وقدْ ذَكرَ أهلُ العلم أنَّهُ تجبُ الهجرةُ من بلدِ الكفرِ إلى بلدِ الإسلامِ إذا كانَ الإنسانُ لا يستطيعُ أنْ يُظهرَ دينَهُ.

وأمَّا إذا كانَ قادراً على إظهارِ دينِهِ ولا يُعارضُ إذا أقامَ شعائرَ الإسلام فإن الهجرةَ لا تجبُ عليه ولكنها تستحبُّ، وبناءً على ذلك يكونُ السَّفر إلى بَلدِ الكفرِ أعظَمَ مِنَ البقاءِ فيهِ، فإذا كانَ بلدُ الكفر الذي كانَ وطنُ الإنسان إذا لم يستطعْ إقامةَ دينِهِ فيه وَجَبَ عليه مغادرتُهُ والهجرةُ منه.

فكذلكَ إذا كانَ الإنسانُ من أهلِ الإسلام ومن بلادِ المسلمينَ فإنَّه لا يجوزُ له أنْ يُسافرَ إلى بلدِ الكفرِ لِما في ذَلكِ من الخطرِ على دينِهِ وعَلَى أخلاقِهِ ولما في ذلِكَ من إضاعة مالِهِ، ولما في ذلك من تقويةِ اقتصادِ الكفارِ ونحنُ مأمورونَ بأنْ نغيظَ الكفارَ بكلِّ ما نستطيع كما قالَ الله تباركَ وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٠].

فالكافر أيّاً كان، سواءً كانَ مِنَ النَّصارىٰ أو من اليهودِ أو من الملحدينَ، وسواء تسمَّى بالإسلامِ أم لم يَتَسم بالإسلامِ، الكافر عدو لله ولكتابِهِ ولرسوله وللمؤمنين

. . . .

جميعاً، مهما تلبَّس بما يتلبَّس به فإنه عدو!!

فلا يجوز للإنسانِ أن يُسافرَ إلى بلدِ الكفرِ إلا بشروط ثلاثة:

الشرط الأول: أن يُكون عِندَهُ عِلْمٌ يدفعُ به الشُّبهات، لأن الكفار يُوردونَ على المسلمينَ شُبَهاً في دينِهِم وفي رَسُولِهِم وفي كتابهم وفي أخلاقهِم، في كلِّ شيءٍ يُوردون الشُّبهة ليبقى الإنسانُ شاكّاً متذبذباً، ومن المعلوم أنَّ الإنسانَ إذا شكَّ في الأمورِ التي يجبُ فيها اليقينُ فإنَّه لم يقمْ بالواجبِ، فالإيمانُ بالله وملائكتِهِ وكتبهِ وَرُسلهِ واليوم الآخرِ والقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ يجبُ أنْ يكونَ يقيناً فإنْ شكَّ الإنسانُ في شيءٍ من ذلك فهو كافرٌ.

فالكفارُ يُدْخَلونَ على المسلمينَ الشَّكَّ حتى أنَّ بعضَ زعمائِهِم صرَّحَ قائلاً: «لا تحاولوا أن تخرجُوا المسلمَ من دينهِ إلى دينِ النَّصارى، ولكنْ يكفي أن تُشكّكُوهُ في دينِهِ، لأنَّكم إذا شكَّكتموه في دينِهِ سَلَبْتموه الدِّينَ وهذا كافٍ».

أنتم أخرجوهُ من هذهِ الحظيرةِ التي فيها العِزَّة والغلبةُ والكرامةُ ويكفي، أما أنْ تحاوِلوا أن تدخلوهُ في دينِ النَّصارى المبني على الضَّلال والسَّفاهةِ فهذا لا يمكنُ، لأنَّ النَّصارى ضالون كما جاءَ في الحديثِ عن الرَّسولِ ﷺ[1] وإنْ كانَ فدينُ المسيحِ دينٌ حقٌ لكنَّه دينُ الحقِّ في وقتِهِ قبلَ أنْ يُنسخَ بِرسَالة النبي ﷺ.

الشَّرط الثاني: أن يكونَ عندَهُ دينٌ يَحْمِيهِ من الشَّهواتِ لأنَّ الإنسانَ الذي ليسَ عندهُ دينٌ إذا ذهبَ إلى بلادِ الكفرِ انغمسَ لأنَّه يجدُ زهرةِ الدُّنيا هناك، منْ خمرٍ وزنىً ولواطٍ وغير ذلك.

الشَّرطُ الثالثُ: أن يكونَ محتاجاً إلى ذلك مثلِ أنْ يكونَ مريضاً يحتاج إلى السَّفرِ إلى بلادِ الكفرِ للاستشفاءِ، أو يكون محتاجاً إلى علم لا يوجدُ في بلادِ الإسلامِ تَخصص فيه فيذهبُ إلى هناك، أو يكونَ الإنسانُ محتاجاً إلى تجارةٍ، يذهبُ ويتَّجرُ

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) بلفظ: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال» وأحمد في المسند (٤/٣٧٨) بلفظ: «إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى». وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح الجامع برقم (٨٢٠٢).

ويرجع. المهم أن يكون هناك حاجةٌ، ولهذا أرى أنَّ الذين يُسافرون إلى بلدِ الكفرِ من أجلِ السِّياحةِ فقط أرى أنهم آثمونَ، وأنَّ كل قرشٍ يَصْرفونَهُ لهذا السَّفر فإنه حرامٌ عليهم وإضاعةٌ لمالِهِمْ وسَيُحاسبُونَ عليه يومِ القيامة حين لا يجدون مكاناً يتفسَّحون فيه، أو يتنزهونَ فيهِ.

حين لا يجدونَ إلا أعمالهم، لأن هؤلاء يُضَيِّعونَ أوقاتَهُم، ويُتْلِفون أموالهم، ويُفسدون أخلاقَهم، وكذلك ربما يكونَ معهم عوائلهم، ومن العجب أن هؤلاء يذهبونَ إلى بلادِ الكفرِ التي لا يُسمع فيها صوت مؤذنٍ ولا ذِكرُ ذاكرٍ وإنما يُسمعُ فيها أبواقُ اليهودِ ونواقيسُ النَّصارى ثم يَبْقون فيها مدةً هم وأهلوهُم وبَنوهم وبناتهم فيحصل في هذا شرٌّ كثير، نسأل الله العافية والسلامَة.

وهذا من البلاءِ الذي يُحِلُّ الله به النَّكبات، والنَّكبات التي تأتينا والتي نحن الآن نعيشُها كلها بسببِ الذُّنوبِ والمعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: الآية ٣٠].

نحن غافلون في بلادِنا كأنَّ ربَّنا غافل عنَّا كأنَّه لا يعلم، كأنَّه لا يُملي للظَّالم حتى إذا أخذه لم يُفلته.

والنَّاس يعاصرون هذه الحوادثِ، ولكن قلوبهم قاسية والعياذ بالله! وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٧٦].

أخذهم العذاب ونزل بهم ومع ذلك ما استكانوا إلى الله، وما تضرَّعوا إليه بالدُّعاءِ ومَا خافوا من سَطْوته، لكن قَسَتَ القُلُوبُ نسألُ الله العافية ومَاتَتْ حتى أصبحت الحوادثُ المصيرية تمرُّ على القلبِ وكأنَّها ماءٌ باردٌ.

نعوذُ باللهِ مِنْ موْتِ القلبِ وقسوتِهِ، وإلا لو كانَ النَّاسُ في عقلٍ وصحوةٍ وفي قلوبٍ حيةٍ ما سَارُوا على هذا الوضع الذي عليه نحنُ الآن مع أنَّنا في وضع نعتبر أنَّنا في حالِ حرب مدمرةٍ مُهلكةٍ، حربُ غازاتِ الأعصابِ والجنودِ وغيرِ ذلكَ ومع هذا لا تجدُ أحداً حرَّك ساكناً إلا أنْ يشاءَ الله.

. . . .

إنَّ أناساً في هذه الظروف العصيبةِ ذهبوا بأهليهم يتنزهونَ في بلاد الكفرِ وفي بلادِ الفسقِ وفي بلادِ المجونِ والعياذُ بالله!

أقول مرة ثانية إنَّ الهجرةَ من بلدِ الكفرِ الذي لا يستطيعُ أنْ يقيمَ الإنسانُ فيهِ دينَه واجبةٌ.

والسَّفر إلى بلادِ الكفرِ للدَّعوةِ يجوزِ إذا كانَ له أثرٌ وتأثير هناك فإنَّه جائزٌ لأنه سفرٌ لمصلحة، وبلادُ الكفرِ كثير من عوامهم قد عَمِيَ عليهم الإسلامُ لا يَدْرُون عَنِ الإسلامِ شيئاً بل قد ضُلِّلوا وقيلَ لهمُ إنَّ الإسلامَ دينُ وَحْشيَّةٍ وهَمَجية ورعاع ولا سيما إذا سمعَ الغربُ هذه الحوادثَ التي جرتْ على يد أناسٍ يقولون إنهم مُسْلمونَ، سيقولون أين الإسلامُ؟! هذه وَحْشيَّة!! فيَنفُرونَ من الإسلام بسبب المسلمينَ وأفعَالهم، نسأل الله أن يهدينا أجمعين.

القسم الثاني: هجرة العمل، وهي أن يهجر الإنسانُ مَا نَهاهُ الله عنه من المعاصِي والفُسوقِ كما قالَ النبي ﷺ: **«المُسلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلمُونَ من لِسَانِهِ ويَدِهِ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَر ما نَهى الله عَنهُ»**[1] فاهجرْ كلَّ ما حرَّمَ اللّهُ عليك سواءٍ كان ممَّا يتعلقُ بحقوق الله أو مما يتعلَّق بحقوق عباد الله فتهجرُ السَّب والشَّتمَ والقتلَ والغِش وأكلَ المالِ بالباطلِ وعُقُوق الوالدين وقطيعةِ الأرحام وكلَّ شيء حرَّم الله تهجرُه، حتى لو أن نفسك دَعَتْك إلى هذا وألحّتْ عليكَ فذكِّرْها أنَ الله حرَّم ذلك حتى تَهجُرَه وتَبْعُدَ عنه.

القسم الثالث: هجرة العامل، فالعاملُ قد تجبُ هجْرتُه أحياناً، قال أهلُ العلم: مثلُ الرَّجلِ المُجاهرِ بالمعصية الذي لا يُبالي بها فإنه يُشْرَعُ هَجْرُه إذا كانَ في هَجْرِه فائدةٌ ومَصلحة.

والمصلحةُ والفائدةُ أنَّه إذا هُجر عَرَفَ قدْرَ نفسِه ورجع عن المعصية.

ومثال ذلك: رَجلٌ مَعْرُوف بالغِش بالبيع والشِّراءِ فيهجره الناس، فإذا هجروه تَابَ من هذا وَرَجَع ونَدِمَ، ورجُلٌ ثان يتعاملُ بالرِّبا فيهجرهُ الناس ولا يُسلِّمونَ عليهِ ولا يكلمونَهُ فإذا عَرِفَ هذا خَجلَ من نفسهِ وعادَ إلى صَوابِه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٨٤) كتاب الرقاق. ومسلم رقم (٤١) كتاب الإيمان.

ولمسلم عنْ أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً: «**إنَّ أولَ الناس يقضى عليه يومَ القيامةِ ثلاثة - رجل استشهدَ في سَبيلِ الله فأُتي به فعرَّفهُ نعمتهُ فعرفها قال: فمَا عمِلتَ فيها؟ قالَ: قاتلتُ في سبيلك حتَّى قتلتُ، قال: كذبتَ، ولكنكَ قاتلتَ ليقالَ هو جريءٌ فقدْ قيل، ثم أمرَ بهِ فسحبَ على وجههِ حتَّى ألقي في النَّارِ. ورجلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلمهُ وقرأ القرآن فأُتيَ بهِ فعرفه نعمهُ فعرفهَا، قالَ: فمَا عملتَ فيها؟ قالَ: تعلمتُ العلمَ وعلمتُهُ وقرأتُ فيكَ القرآن. قالَ: كذبتَ ولكنَّكَ تَعلمتَ ليقالَ هو عالمٌ، وقرأتَ ليقالَ هُو قارىءٌ، فقد قيلَ ثمَّ أمرَ بهِ فسحبَ على وجههِ حتَّى أُلقيَ في النَّار. ورجل وسعَ الله عليهِ فأعطاه من أصناف المال فأُتيَ بهِ فعرفهُ نعمهُ فعرفهَا، قالَ: فمَا عَمِلتَ فيها؟ قالَ: ما تركتُ من سبيلِ تحَبُّ أَنْ ينفقَ فيهِ إلاَّ أنفقتُ فيهِ لكَ.**

أمَّا إذا كانَ الهَجْرُ لا يُفيدُ ولا يَنْفعُ وهو من أجْلِ مَعْصِيةٍ لا من أجلِ كفر، لأن الكافر المُرْتدَّ يُهجرُ على كل حالٍ - أفادَ أم لم يفد - لكن صاحبَ المعصيةِ التي دونَ الكفرِ إذا لم يكن في هجرهِ مصلحةٌ فإنَّه لا يحلُّ هجرُه لأنَّ الرسولَ ﷺ قالَ: «**لاَ يَحلُّ لِمُؤمنٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ يَلْتَقِيانِ فَيُعْرِضُ هَذا وَيُعرِضُ هذا وخيرُهُمَا الَّذي يَبْدأ بِالسَّلام**»[1].

ومنَ المعلوم أن المعاصي التي دونَ الكفرِ عندَ أهلِ السُّنِة والجماعةِ لا تُخْرجُ منَ الإيمانِ.

فيبقى النَّظرُ هل الهجرُ يُفيدُ أم لا، فإن أفادَ فإنهُ يُهجرُ ودليلُ ذلك قصَّةُ كعبَ بن مالكٍ، وهلالَ بنِ أُميَّة ومرارةَ بن الرَّبيع رضيَ اللّهُ عنهم الذين تخلَّفُوا عن غزوةِ تبوكِ فهجرهم النبي ﷺ[2]. وأمر المسلمين بهجرهم لكنهم انتفعوا في ذلك انتفاعاً عظيماً،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٠٧٧) كتاب الأدب، ورقم (٦٢٣٧) كتاب الاستئذان. ومسلم رقم (٢٥٦٠) كتاب البر والصلة.

(٢) إشارة إلى حديث كعب بن مالك في قصة تخلفه عن غزوة تبوك أخرجه البخاري من صحيحه رقم (٤٤١٨) كتاب المغازي. ومسلم من صحيحه رقم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

قالَ الله: كذبَت ولكنَّكَ فعلتَ ليقالَ هوَ جوادٌ، فقدْ قيلَ، ثُمَّ أمرَ بهِ فَسحِبَ على وجَهِهِ حتَّى أُلقي في النَّار»[1] - وللترمذي فيه أن معاوية - رضي الله عنه - لما سَمِعهُ بكىَ وتلا قولَهُ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية [هُود: الآية ١٥][2] [١].

ولجؤوا إلى الله وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت، وضاقت عليهم أنفسهم وأيْقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فتابوا و تابَ الله عليهم.

هذه أنواع الهجرةِ: هجرةُ المكان، وهجرةُ العمل، وهجرةُ العامل.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله:

قوله ﷺ في الغازي والعالم والجواد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله وإدخالهم النار دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال كما قال تعالى: **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾** وفيه أن العمومات الواردة من فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصاً. وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين من وجوه الخيرات كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصاً.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣٥/ ٥١٣) رقم (١٩٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٥٠٢) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (١٩٤٢).

٦ ـ باب الفرح

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣﴾ [الانشقاق: الآية ١٣] [١] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦﴾ [الطُّور: الآية ٢٦] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾ [الأنعام: الآية ٤٤] [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١٢/ ٥٠٩):

﴿**إنه كان من أهله مسروراً**﴾ يقول تعالى ذكره: إنه كان من أهله في الدنيا مسروراً، لما فيه من خلافه أمر الله وركوبه معاصيه.

وقال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٢٧٩): ﴿**إنه كان من أهله مسروراً**﴾ لا يخطر البعث على باله، وقد أساء، ولا يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

[٢] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٥/ ١٩٢):

﴿**فلما نسوا ما ذكروا به**﴾ أي فلما تركوا العمل بما أمرناهم به على ألسن رسلنا ﴿**فتحنا عليهم أبواب كل شيء**﴾: يقول بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة في العيش ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام استدراجاً منّا لهم ﴿**حتى إذا فرحوا بما أوتوا**﴾ يقول: حتى إذا فرح هؤلاء المكذبون رسلهم بفتحنا عليهم أبواب السعة في المعيشة والصحة في الأجسام ﴿**أخذناهم بغتة**﴾ أتيناهم بالعذاب فجأة وهم غارون لا يشعرون أن ذلك كائن ولا هو بهم حال ﴿**فإذا هم مبلسون**﴾ فإنهم هالكون منقطعة حججهم نادمون على ما سلف منهم من تكذيبهم رسلهم.

وقال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٣١٨):

﴿**فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء**﴾ من الدنيا ولذاتها

. . . .

وغفلاتها ﴿**حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون**﴾ أي: آيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة، وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم.



٧ ـ باب ذكر اليأس
من روح الله والأمن من مكر الله

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٧] [١] وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ٩٩] [٢] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٧/ ٢٨٤):

﴿**أنه لا ييأس من روح الله**﴾ يقول: لا يقنط من فرجه ورحمته ويقطع رجاءه منه ﴿**إلا القوم الكافرون**﴾ يعني: القوم الذين يجحدون قدرته على ما شاء تكوينه.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره (ص ٣٨٢):

﴿**فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾ فإن من أمن من عذاب الله، فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان. وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنا، على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفاً وجلاً، أن يبتلى ببلية، تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن فإن العبد ولو بلغت به الحال ما بلغت ـ فليس على يقين من السلامة.

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لكتاب التوحيد (ص ٦٧٩) وما بعدها:

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ

. . . .

ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٩٧-٩٩] .

فقوله: ﴿**وهم نائمون**﴾ يدل على كمال الأمن لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام، وقوله: ﴿**ضحىً وهم يلعبون**﴾ يدل أيضاً على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق؛ لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى ـ في رابعة النهار ـ يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء؛ فهم نائمون وفي رغد، ومقيمون على معاصي الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم، غافلون عن ذكر خالقهم؛ فهم في الليل نَوم، وفي النهار لعب، فبين الله ـ عز وجل ـ أن هذا من مكره بهم، ولهذا قال: ﴿**أفأمنوا مكر الله**﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿**فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾ فالذي يَمُنُّ الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو في الحقيقة خاسر.

فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمك من جوع، وآمنك من خوف، وكساك من عري؛ فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله، بل أنت خاسر؛ لأن هذا من مكر الله بك.

قوله: ﴿**إلا القوم الخاسرون**﴾. الاستثناء للحصر، وذلك لأن ما قبله مُفَرَّغ له؛ فالقوم فاعل، والخاسرون صفتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿**أفأمنوا مكر الله**﴾ دليل على أن لله مكراً، والمكر هو: التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ومنه ما جاء في الحديث: «**الحرب خدعة**»[1].

فإن قيل: كيف يُوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يُوصف الله به على الإطلاق؛ فلا يجوز أن تقول: إن الله ماكر، وإنما تذكر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد/ باب الحرب خدعة حديث رقم (٣٠٣٠) ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد/ باب جواز الخداع في الحرب حديث رقم (٤٥١٤).

مكر الله و القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله. رواه عبد الرزاق(1) [1].

هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحاً، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: الآية ٥٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: الآية ٩٩]، ولا تنفي عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها في المقام التي تكون مدحاً يُوصف بها وفي المقام التي لا تكون مدحاً لا يُوصف بها.

وكذلك لا يُسمى الله بها؛ فلا يُقال: إن من أسماء الله الماكر.

وأما الخيانة؛ فلا يُوصف الله بها مُطلقاً لأنها ذم بكل حال؛ إذ إنها مكر في موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧١]، ولم يقل: فخانهم.

وأما الخداع؛ فهو كالمكر يُوصف الله به حيث يكون مدحاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٤٢]، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله ـ سبحانه ـ.

*** ويُستفاد من هذه الآية:**

١ ـ الحذر من النعم التي يجلبها الله للعبد لئلا تكون استدراجاً؛ لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها، وهي القيام بطاعة المنعم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم؛ فاعلم أن هذا من مكر الله.

٢ ـ تحريم الأمن من مكر الله، وذلك لوجهين:

الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٩].

[1] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لكتاب التوحيد (ص

---

(1) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم (١٩٧٠١) (١٠/ ٤٦٠) والطبراني في معجمه كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ١٤٨).

وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً، ولفظه سئل ما الكبائر فقال: **«الإشراك بالله والأمن من مكر الله واليأس من روح الله»**(1) [1].

---

686 وما بعدها):

قوله في أثر ابن مسعود: **«الإشراك بالله»**: هذا أكبر الكبائر؛ لأنه انتهاك لأعظم الحقوق، وهو حق الله تعالى الذي أوجدَكَ وأعَدَّك وأمدَّك؛ فلا أحد أكبر عليك نعمةً من الله تعالى.

قوله: **«الأمن من مكر الله»**. سبق شرحه.

قوله: **«القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله»**. المراد بالقنوط: أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد الإنسان زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك؛ لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود.

والخلاصة: أن السائر إلى الله، يعتريه شيئان يعوّقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، فإذا أُصيب بالضراء أو فات عليه ما يجب؛ تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله؛ فتجد الإنسان مقيماً على المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق فيستمر في باطله؛ فلا شك أن هذا استدراج.

[1] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لكتاب التوحيد (ص 685 وما بعدها):

والسائل في هذا الحديث إنما قصدُه معرفة الكبائر ليجتنبها، خلافاً لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط، ولذلك نقصت بركة علمهم.

قوله: **«الشرك بالله»**. ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر؛ لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب؛

---

(1) أخرجه البزار في مسنده (ص 18 ـ زوائد) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (2051) وصحيح الجامع برقم (4603).

. . . .

فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقاً.

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته.

قوله: «**اليأس من روح الله**». اليأس: فَقدُ الرجاء، والرَوح بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، واليأس من روح الله من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة.

قوله: «**الأمن مكر الله**». بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢، ١٨٣].

وظاهر هذا الحديث: الحصر، وليس كذلك: لأن هناك كبائر غير هذه، ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله؛ فلعله رأى هذا السائل عنده شيء من الأمن من مكر الله أو اليأس من روح الله، فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغي أن يفطن لها الإنسان فيما يأتي من النصوص الشرعية مما ظاهره التعارض، فيحمل كل واحد منها على الحال المناسبة ليحصل التآلف بين النصوص الشرعية.

٨ ـ باب ذكر سوء الظن بالله

وقول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٢٣] .[١]

وقوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفَتح: الآية ٦] .[٢]

روي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أكبر الكبائر سوء الظن بالله» رواه ابن مردويه(١).

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٠٣٦):

﴿ولكن ظننتم﴾ بإقدامكم على المعاصي **﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾** فلذلك صدر منكم ما صدر. وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: **﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم﴾** الظن السيء، حيث ظننتم به، ما لا يليق بجلاله **﴿أرداكم﴾** أي أهلككم **﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾** لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم. فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١١٠١):

وأما المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات فإن الله يعذبهم بذلك ويريهم ما يسوؤهم حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين وظنوا بالله ظن السوء، أنه لا ينصر

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع برقم (١٠٨٨).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل وفاته بثلاث: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»(1) أخرجاه [١]، وزاد ابن أبي الدنيا: «**فإن قوما أرداهم سوء ظنهم بالله فقال تبارك وتعالى**: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٢٣]».

دينه ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق فأدار الله عليهم ظنهم وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قال العلماء: هذا تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة. وقال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى: أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا وفي حالة الصحة يكون خائفاً راجياً ويكونان سواء، وقيل: الخوف أرجح فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء، أو محضه لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الأكثار من الطاعات والأعمال وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له.

وقال الإمام الطيبي في شرحه للمشكاة (٤/ ١٣٦٥):

قوله: «**لا يموتن أحدكم**» نهى عن أن يموتوا على غير حالة حسن الظن وذلك ليس بمقدورهم، بل المراد الأمر بتحسين الأعمال، أي أحسنوا أعمالكم الآن حتى يحسن بالله ظنكم عند الموت، فإن من ساء عمله قبل الموت، يسوء ظنه عند الموت. قيل: الخوف والرجاء كالجناحين للسائرين إلى الله تعالى ولا يمكن السير بأحد الجناحين بل بهما، لكن يغلب أحدهما الآخر فينبغي أن يغلب الخوف على الرجاء من الصحة، ليتدرج به فيها إلى تكثير الأعمال الصالحة، فإذا جاء الموت وانقطع العمل، فينبغي أن يغلب الرجاء، وحسن الظن بالله، لأن الوفادة حينئذ إلى ملك كريم، ورب رؤوف رحيم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٠٥) رقم (٢٨٧٧) وأحمد في المسند (٣/ ٣٢٥ و٣٣٤ و٣٩٠، و٣٩٣) وأبو داود في سننه رقم (٣١١٣) وغيرهم.

ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: قال الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي**»(١) زاد أحمد وابن حبان: «**إن ظن بي خيراً فله وإن ظن بي شرًا فله**»(٢) [١].

---

[١] قال الإمام ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (١٣/ ٤٧٥):

قوله: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي**» أي قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به، وقال الكرماني وفي السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف وكأنه أخذه من جهة التسوية فإن العاقل إذا سمع ذلك لا يعدل إلى ظن إيقاع الوعيد وهو جانب الخوف لأنه لا يختاره لنفسه بل يعدل إلى ظن وقوع الوعد وهو جانب الرجاء، وهو كما قال أهل التحقيق مقيد بالمحتضر ويؤيد ذلك حديث «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**» وهو عند مسلم من حديث جابر، وأما قبل ذلك ففي الأول أقوال ثالثها الاعتدال.

وقال ابن أبي جمرة: المراد بالظن هنا العلم وهو كقوله: ﴿**وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه**﴾، وقال القرطبي في المفهم: قيل: معنى ظن عبدي ظن الإجابة عند الدعاء وظن القبول عند التوبة وظن المغفرة عند الاستغفار وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكاً بصادق وعده، قال ويؤيده قوله من الحديث الآخر: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**» قال: ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام مما عليه موقناً بأن الله يقبله ويغفر له لأنه وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد، فإن اعتقد أو ظن أن الله لا يقبلها وأنها لا تنفعه فهذا هو اليأس من رحمة الله وهو من الكبائر ومن مات على ذلك وكل إلى ما ظن كما في بعض طرق الحديث المذكور «**فليظن بي عبدي ما شاء**» قال: وأما ظن المغفرة مع الأصرار فذلك محض الجهل والغرة وهو يجر إلى مذهب المرجئة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٧٤٠٥ و٧٥٠٥) ومسلم في صحيحه في كتاب الذكر رقم (٦٧٤٦ و٦٧٧٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٩١ و٣/ ١٠٦) وابن حبان في صحيحه (٧١٧ ـ ٧١٨ و٢٣٩٣ و٢٣٩ و٢٤٦٨) والطبراني في الأوسط رقم (٨١١٥) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٤) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (١٦٦٣).

. . . .

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (/ ٣٨٩):

حديث أبي هريرة أن الله تعالى قال في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني**».

«**أنا عند ظن عبدي بي**»: يعني أن الله عند ظن عبده به؛ إن ظن به خيراً فله، وإن ظن به سوى ذلك فله، ولكن متى يكون العبد محسناً الظن بالله عز وجل؟

يكون كذلك إذا فعل ما يوجب فضل الله ورحمته، فيعمل الصالحات ويحسن الظن بأن الله تعالى يقبله، أما أن يحسن الظن وهو لا يعمل؛ فهذا من باب التمني على الله، ومن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني فهو عاجز.

حسن الظن بأن يوجد من الإنسان عمل يقتضي حسن الظن بالله عز وجل، فمثلاً [الصلاة] أحسن الظن بالله بأن الله يقبلها منك، إذا صمت فكذلك، إذا تصدقت فكذلك، إذا عملت عملاً صالحاً أحسن الظن بأن الله تعالى يقبل منك، أما أن تحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان فهذا دأب العاجزين الذين ليس عندهم رأس مال يرجعون إليه.

٩ ـ باب ذكر إرادة العلو والفساد

وقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القَصص: الآية ٨٣] [١].

---

[١] قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٨٦١):

لما ذكر تعالى قارون وما أوتيه من الدنيا، وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: **﴿ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾** رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال: **﴿تلك الدار الآخرة﴾** التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله، التي جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص.

﴿نجعلها﴾ داراً وقراراً **﴿للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً﴾** أي: ليس لهم إرادة فكيف العمل للعلو في الأرض، على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق **﴿ولا فساداً﴾** وهذا شامل لجميع المعاصي.

فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض، ولا الفساد، لزم من ذلك، أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة الحسنى، ولهذا قال: **﴿والعاقبة﴾** أي: حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى.

وغيرهم ـ وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة ـ فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها حظ.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى**

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ٢٣٥ وما بعدها):

قوله تعالى: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نجعلها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأَرْضِ ولا فَسَاداً والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** الدار الآخرة هي آخر دور بني آدم، لأن ابن آدم له أربعة دور كلها تنتهي بالآخرة.

الدار الأولى: في بطن أمه.

والدار الثانية: إذا خرج من بطن أمه إلى دار الدنيا.

والدار الثالثة: البرزخ؛ ما بين موته وقيام الساعة.

والدار الرابعة: الدار الآخرة. وهي النهاية، وهي القرار، هذه الدار قال الله تعالى عنها: **﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأَرْضِ ولا فَسَاداً﴾** لا يريدون التعلي على الحق، ولا التعلي على الخلق، وإنما هم متواضعون، وإذا نفى الله عنهم إرادة العلو والفساد، فهو من باب أولى ألا يكون منهم علو ولا فساد، فهم لا يعلون في الأرض، ولا يفسدون، ولا يريدون ذلك، لأن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم علا وفسد وأفسد، فهذا اجتمع في حقه الإرادة والفعل.

٢ ـ وقسم لم يرد الفساد ولا العلو فقد انتفى عنه الأمران.

٣ ـ وقسم ثالث يريد العلو والفساد ولكن لا يقدر عليه. وهذا الثالث بين الأول والثاني، لكن عليه الوزر لأنه أراد السوء، فالدار الآخرة إنما تكون **﴿للَّذين لا يريدُونَ عُلُوًّا في الأَرْضِ﴾** أي تعلياً على الحق أو على الخلق **﴿ولا فَسَاداً والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**.

فإن قال قائل: ما هو الفساد في الأرض؟ فالجواب أن الفساد في الأرض ليس هدم المنازل ولا إحراق الزروع، بل الفساد في الأرض بالمعاصي، كما قال أهل العلم رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: الآية ٥٦] أي لا تعصوا الله؛ لأن المعاصي سبب للفساد.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ

يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] أخرجاه [١].

ﭐلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: الآية ٩٦] فلم يفتح الله عليهم بركات من السماء ولا من الأرض، فالفساد في الأرض يكون بالمعاصي نسأل الله العافية.

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٤/ ٧٢٠):

أن النبي ﷺ قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»** لا يؤمن: يعني لا يكون مؤمناً حقّاً تام الإيمان إلا بهذا الشرط؛ أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير، وما يحب لنفسه من ترك الشر، يعني ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، هذا هو المؤمن حقّاً، وإذا كان الإنسان يعامل إخوانه هذه المعاملة فإنه لا يمكن أن يغشهم أو يخونهم، ولا يكذب عليهم، ولا يعتدي عليهم، كما أنه لا يحب أن يُفعل به مثل ذلك.

وهذا الحديث يدل على أن من كره لأخيه ما يحبه لنفسه، هذا هو المؤمن حقّاً، وإذا كان الإنسان يعامل إخوانه هذه المعاملة فإنه لا يمكن أن يغشهم أو يخونهم، ولا يكذب عليهم، ولا يعتدي عليهم، كما أنه لا يحب أن يُفعل به مثل ذلك.

وهذا الحديث يدل على أن من كره لأخيه ما يحبه لنفسه، أو أحب لأخيه ما يكرهه لنفسه فليس بمؤمن، يعني ليس بمؤمن كامل الإيمان.

ويدل على أن ذلك من كبائر الذنوب إذا أحببت لأخيك ما تكره لنفسك أو كرهت له ما تحب لنفسك.

وعلى هذا فيجب عليك أخي المسلم أن تربي نفسك على هذا، على أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك حتى تحقق الإيمان، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: **«من أحب أن يزحزح عن النار ويُدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويحب أن يأتي إلى الناس ما يؤتى إليه»** رواه مسلم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٦٧) برقم (٤٥).

وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»**[1] .

الأول حق الله، والثاني حق العباد، تأتيك المنية وأنت تؤمن وباليوم الأخر - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم كذلك - وأن تحب أن يأتي لأخيك ما تحب أن يُؤتى إليك.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة برقم (١٥) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ظلال الجنة والمشكاة برقم (١٦٧).

١٠ ـ باب العداوة والبغضاء

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: الآية ٥٩] [١].

وقال الله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾الآية [المُمتحنة: الآية ٤] [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢١٤):

أمر سبحانه برد كل ما تنازع الناس فيه؛ من أُصول الدين وفروعه، إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله وسُنّة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى، يقاس عليه ما أشبهه. لأن كتاب الله وسُنّة رسوله، عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلاّ بهما، فالرد إليهما، شرط في الإيمان، فلهذا قال: **﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾**. فدل ذلك على أن مَنْ لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها.

﴿ذلك﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله **﴿خير وأحسن تأويلا﴾** فإن حكم الله ورسوله، أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس، في أمر دينهم، ودنياهم وعاقبتهم.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١١٩١ وما بعدها):

﴿قد كانت لكم﴾ يا معشر المؤمنين **﴿أسوة حسنة﴾** أي: قدوة صالحة وائتمام بنفعكم **﴿في إبراهيم والذين معه﴾** ومن المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً **﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله﴾** أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام، ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين، ومما يعبدون من

. . . .

دون الله: ثم صرحوا بعدواتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿**كفرنا بكم وبدا**﴾، أي: ظهر وبان ﴿**بيننا وبينكم العداوة والبغضاء**﴾ أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العدواة والبغضاء وقت ولا حدّ، بل ذلك ﴿**أبداً**﴾ ما دمتم مستمرين على كفركم ﴿**حتى تؤمنوا بالله وحده**﴾، أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية.

فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، ولوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به الله وحده.

﴿**إلا**﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿**قول إبراهيم لأبيه**﴾ آزر المشرك، الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع فقال إبراهيم له: ﴿**لأستغفرن لك**﴾ والحال أني ﴿**ما أملك لك من الله من شيء**﴾، ولكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيّاً. فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم، في هٰذه الحالة، التي دعا بها للمشرك.

فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذٰلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذٰلك بقوله: ﴿**وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه**﴾، الآية.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿**ربنا عليك توكلنا**﴾، أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا، ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذٰلك.

﴿**وإليك أنبنا**﴾، أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك، وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذٰلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يزلفنا إليك.

١١ ـ باب الفحش

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: الآية ١٩] [١].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٩/ ٢٨٧):

يقول تعالى ذكره: إن الذين يحبون أن يذيع الزنا في الذين صدقوا بالله ورسوله ويظهر ذلك فيهم **﴿لهم عذاب أليم﴾** يقول: لهم عذاب وجيع في الدنيا بالحد الذي جعله الله حدّاً لرامي المحصنات والمحصنين إذا رموهم بذلك، وفي الآخرة عذاب جهنم إن مات مصرّاً على ذلك غير تائب وقوله: **﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** يقول تعالى ذكره: والله يعلم كذب الذين جاءوا بالإفك من صدقهم، وأنتم أيها الناس لا تعلمون ذلك، لأنكم لا تعلمون الغيب، وإنما يعلم ذلك علام الغيوب يقول: فلا ترووا ما لا علم لكم به من الإفك على أهل الإيمان بالله ولا سيما على حلائل رسول الله ﷺ فتهلكوا.

وقال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٧٦٩).

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة **﴿في الذين آمنوا لهم عذاب إليم﴾** أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره ونقله؟!! وسواء كانت الفاحشة، صادرة، أو غير صادرة.

وكل هذا، من رحمة الله لعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه،

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [التوبة: الآية ٩١] الآية [١].

ويكره له، ما يكره لنفسه. **﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** فلذلك علمكم، وبيَّن لكم ما تجهلونه.

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٤٥٥):

﴿ليس على الضعفاء﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال. **﴿ولا على المرضى﴾** وهذا شامل لجميع أنواع المرض، الذي لا يقدر صاحبه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحمى ذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي: لا يجدون زاداً، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم. فهؤلاء، ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم، وعزمهم، أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث، والترغيب، والتشجيع على الجهاد.

١٢ ـ باب ذكر مودة أعداء الله

وقولِ الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ الآية [المجادلة: الآية ٢٢] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١١٨):

يقول تعالى: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله﴾**، أي: لا يجتمع هٰذا وهٰذا، فلا يكونن العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى إيمانه ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهٰذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته، والمقصود منه.

وأهل هٰذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، أي: رسمه وثبَّته، وغرسه غرساً، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي: بوحيه ومعرفته ومدده الإِلٰهي، وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هٰذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختار، ولهم أفضل النعيم وأكبره، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا وراءه نهاية.

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذٰلك مُوَادٌّ لأعداء الله، محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره، فإن هٰذا إيمان زَعْمِيٌّ، لا حقيقة له، فإن كان أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً، ولا يصدق صاحبها.

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٤] [٢].

---

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٤٣٢):

﴿قل إن كان آباؤكم﴾ ومثلهم الأمهات **﴿وأبناؤكم وإخوانكم﴾** في النسب والعشيرة **﴿وأزواجكم وعشيرتكم﴾** أي: قراباتكم عموماً **﴿وأموال اقترفتموها﴾** أي: اكتسبتموها، وتعبتم في تحصيلها.

خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها، ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كَدّ.

﴿وتجارة تخشون كسادها﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجاراة، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك.

﴿ومساكن ترضونها﴾ من حسنها وزخرفتها، وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء **﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله﴾** فأنتم فسقة ظلمة.

﴿فتربصوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب **﴿حتى يأتي الله بأمره﴾** الذي لا مرد له.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدِّمين على محبة الله، شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة، أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيها هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله، أو

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هُود: الآية ١١٣].

وقالَ أبو العاليةِ: «لاَ ترضوا بأعمالهم».

وَرُوِيَ عَن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: «لا تميلوا إليهم كل الميلِ في المحبةِ ولينِ الكَلام والمودَّة».

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليهِ وسلم قال: **«المرءُ مَعَ من أحبَّ»** أخرجاه(١) [١].

ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

في الحديث فضل حب الله ورسوله والصالحين وأهل الخير الأحياء والأموات، ومن فضل محبة الله ورسوله امتثال أمرهما واجتناب نهيهما، والتأدب بالآداب الشرعية، ولا يشترط في الانتفاع بمحبة الصالحين أن يعمل عملهم إذ لو عمله لكان منهم ومثلهم.

وقال العلامة السعدي رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث في كتاب: بهجة قلوب الأبرار (ص ١٥٣):

هذا الحديث فيه: الحث على قوة محبة الرسل، واتباعهم بحسب مراتبهم، والتحذير من محبة ضدهم، فإن المحبة دليل على قوة اتصال المحب بمن يحبه، ومناسبته لأخلاقه، واقتدائه به. فهي دليل على وجود ذلك، وهي أيضاً باعثة على ذلك.

وأيضاً من أحب لله تعالى، فإن نفس محبته من أعظم ما يقربه إلى الله، فإن الله تعالى شكور، يعطي المتقرب أعظم ـ بأضعاف مضاعفة ـ مما بذل. ومن شكره تعالى: أن يلحقه بمن أحب، وإن قصر عمله. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٦١٦٨ و٦١٦٩) ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٣٤) رقم (٢٦٤٠).

. . . .

وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ [النِّساء: الآية ٦٩].

ولهذا قال «أنس»: ما فرِحْنا بِشَيْءٍ فَرَحَنا بقوله ﷺ: **«المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»** قالَ: فأنا أُحِبُّ رسول الله ﷺ، وأبا بكرٍ، وعُمَر، فأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ.

وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ [الرّعد: الآية ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الطُّور: الآية ٢١].

وهذا مشاهد مجرب. إذا أحب العبد أهل الخير رأيته منضمًّا إليهم، حريصاً على أن يكون مثلهم. وإذا أحب أهل الشر انضم إليهم، وعمل بأعمالهم.

وقال ﷺ: **«المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخالِلُ»**، و**«مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، كَحامِلِ المِسْكِ: إمَّا أَنْ يَحْذِيَكَ وَإمَّا أَنْ يَبِيعَكَ، وَإمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رائِحَةً طَيِّبَةً. وَمَثَلُ الجَلِيسِ السُّوءِ كَنافِخِ الكِيرِ: إمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وَإمَّا أَنْ تَجِدَ مِنه رَائِحَةً خَبِيثَةً»**.

وإذا كان هذا في محبة الخلق فيما بينهم، فكيف بمن أحب الله، وقدَّم محبته وخشيته على كل شيء؟ فإنه مع الله، وقد حصل له القرب الكامل منه، وهو قرب المحبين، وكان الله معه. فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل: الآية ١٢٨].

وأعلى أنواع الإحسان: محبة الرحيم الكريم الرحمٰن، محبة مقرونة بمعرفته.

فنسأل الله أن يرزقنا حبه، وحب من يحبه، وحب العمل الذي يقرّب إلى حبه. إنه جواد كريم. وبالله التوفيق.

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث (شرح رياض الصالحين (١/ ١٠٠):

. . . فقال النبي ﷺ: **«المرءُ مع مَنْ أحبَّ يوم القِيَامة»**.

الحمد لله!! نعمة عظيمة وقد روى أنس بن مالك هذه القطعة من الحديث في أن

. . . .

الرسول ﷺ قال لرجل يحبُّ الله ورسوله: «**إنك مَعَ مَنْ أحببت**» قال أنس: فأنَا أحِبُّ رسول الله ﷺ وأبَا بَكرٍ وعُمر وأرجو أن أكون معهم[(١)].

وهكذا أيضاً نحن نُشهد الله عز وجل على محبة رسول الله ﷺ وخلفائه الرَّاشدين وأصحابه وأئمة الهدي من بعدهم ونسأل الله أن يجعلنا معهم.

هذه بشرى للإنسان أنَّه إذا أحبَّ قوماً صار معهم وإن قصَّر به عمله. يكون معهم في الجنة ويجمعه الله معهم في الحشر ويشربون من حوض الرسول ﷺ جميعاً..

وواجب المسلم أن يكره الكفار وأن يعلم أنهم أعداء له مهما أبدوا من الصَّداقة والمودة والمحبة فإنهم لن يتقرَّبوا إليك إلا لمصلحة أنفسهم ومضرتك. أمَّا أن يتقرُّبوا إليك لمصلحتك فهذا شيء بعيد. إن كان يمكن أن نجمع بين الماء والنار فيمكن أن نجمع بين محبة الكفار لنا وعدواتهم لنا.

لأن الله تعالى سمّاهم أعداءً قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ١].

وقال عز وجل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٨].

كل كافر فإن الله عدوٌّ له، وكل كافر عدو لنا، وكل كافر فإنَّه لا يُضْمر لنا إلا الشَّر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦١٦٧) كتاب الأدب. ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٣٩) كتاب البر والصلة.

١٣ ـ باب ذكر قسوة القلب

وقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: الآية ١٣] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢٧٣):

فبيّن أنهم نقضوا ذلك فقال: **﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾** أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أن **﴿لعناهم﴾** أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: **﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾** أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف. وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة، التي لا يفيده معها، الهدى، والخير إلا شرّاً.

الثالثة: أنهم **﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾** أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون الكلام الذي أراد الله له معنى، غير ما أراد الله، ولا رسوله.

الرابعة: أنهم **﴿نسوا حظّاً مما ذكروا به﴾**. فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظّاً منه. وهذا شامل، لنسيان علمه، وأنهم نسوه، وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه، عقوبة منه لهم. وشامل النسيان العمل، الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به. ويستدل بهذا على أهل الكتاب، بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي **﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾** أي: خيانتهم

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣] [١].

لله، ولعباده المؤمنين. ومن أعظم الخيانة منهم، كتمهم الحق، عن مَنْ يعظهم، ويحسن فيهم الظن، وإبقاؤهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة، وهذه الخصال الذميمة، حاصلة لكل مَنْ اتصف بصفاتهم.

فكل مَنْ لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة. نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظّاً، لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية. كما قال تعالى: **﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾**.

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٩٩٩ و١٠٠٠):

يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه **﴿أحسن الحديث﴾** على الإطلاق. فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن. وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ، وأوضحها، وأن معانيه، أجلُّ المعاني؛ لأنه أحسن الحديث، في لفظه ومعناه، متشابهاً في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلاّ من حكيم عليم، هذا هو المراد بالتشابه في هذا الموضع.

وأما في قوله تعالى: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾** فالمراد بها، التي تشتبه على فهوم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه، إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: **﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾** فجعل التشابه لبعضه.

وهنا جعله كله متشابهاً، أي: في حُسنه، لأنه قال: **﴿أحسن الحديث﴾** وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضاً، كما ذكرنا.

﴿مثاني﴾ أي: تثنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل

وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [الحَديد: الآية ١٦] [١].

الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته. وهذا من جلالته، وحُسنه، فإنه تعالى، لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي الأشجار. فكما أن الأشجار كلما بَعُد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت، وأثمرت أنواع الثمار النافعة. فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مدة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً، ولم تحصل النتيجة منه.

ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له. فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع. بل كل موضع تجد تفسيره، كامل المعنى، غير مراع لما مضى، مما يشبهه. وإن كان بعض المواضع، يكون أبسط من بعض، وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي لقارىء القرآن، المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه. فإنه يحصل له بسبب ذلك، خير كثير، ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثَّر في قلوب أُولي الألباب المهتدين فلهذا قال تعالى: **﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾** لما فيه من التخويف والترهيب المزعج. **﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾** أي: عند ذكر الرجاء والترغيب. فهو تارة يرغب لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذلك﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم. **﴿هدى الله﴾** أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم. **﴿يهدي به﴾** أي: بسبب ذلك **﴿من يشاء﴾** من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: **﴿ذلك﴾** أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هدى الله﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه **﴿يهدي به من يشاء من عباده﴾** ممن حسن قصده، كما قال تعالى: **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾**.

﴿ومَنْ يُضلِلِ الله فما له من هَادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلاّ توفيقه والتوفيق بالإقبال على كتابه. فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلاّ الضلال المبين والشقاء المهين.

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١١٧١):

لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات، والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان

عن ابن عمرو - رضي الله عنهما - مرفوعاً: **«إرحموا تُرحموا واغفروا يُغفر لكم، ويلٌ لأقماع القولِ، ويلٌ للمصرين الذين يصرونَ على مَا فَعلوا وهُمْ يعلمون»** رواه أحمد(1) [1].

وللترمذي عنه مرفوعاً: **«لا تكثروا الكلامَ بغيرِ ذكر الله فإنَّ كثرةَ الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلبِ، وإنَّ أبعدَ القلوبِ من الله القَلْبُ القَاسي»**(2).

ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذٰلك، فقال: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾**.

أي: ألم يأت الوقت الذي به تلين قلوبهم، وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ؟

وهٰذا فيه الحث على الاجتهاد، على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلٰهية، والأحكام الشرعية، كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذٰلك.

﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد﴾، أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب، والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولم يثبتوا، بل طال عليهم الزمان، واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم، وزال إيقانهم.

﴿فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزل الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإنه سبب لقسوة القلب، وجمود العين.

[1] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (٢/ ٩٣٣):

«ارحموا ترحموا» لأن الرحمة من صفات الخلق التي شمل بها عباده فلذا كانت

---

(1) أخرجه البخاري من الأدب المفرد رقم (٣٨٠) والإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٦٥ و٢١٩) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة رقم (٤٨٢).

(2) أخرجه الترمذي في سننه رقم (٢٥٣٦) والواحدي في الوسيط (١/ ٢٧/ ٢) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن الترمذي رقم (٤٢٣) والضعيفة برقم (٩٢٠).

ولهما عن جرير ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: **«من لا يرحمِ الناس لاَ يرحمهُ الله»** أخرجاه[1] [١].

أعلاما اتصف بها البشر فندب إليها الشارع في كل شيء حتى في قتال الكفار والذبح وإقامة الحجج وغير ذلك **«واغفروا يغفر لكم»** لأنه سبحانه وتعالى يحب أسماءه وصفاته التي منها الرحمة والعفو ويحب من خلقه من تخلق بها **«ويل لأقماع القول»** أي شدة هلكته لمن لا يعي أوامر الشرع ولم يتأدب بآدابه، والأقماع بفتح الهمزة جمع قمع بكسر القاف وفتح الميم وتسكن، الإناء الذي يجعل في رأس الظرف ليملأ بالمائع، شبه استماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ولا يعملون به بالأقماع التي لا تعني شيئاً مما يفرغ فيها فكأنه يمر عليها مجتازاً كما يمر الشراب في القمع **«ويل للمصرين»** على الذنوب أي العازمين على المداومة عليها **«الذين يصرون على ما فعلوا»** يقيمون عليها فلم يتوبوا ولم يستغفروا **«وهم يعلمون»** قال: أي يصرون في حال عليهم بأن ما فعلوه معصية أو يعلمون بأن الإصرار أعظم من الذنب أو يعلمون بأنه يعاقب على الذنب.

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى في بهجة قلوب الأبرار (ص ١٤٩ وما بعدها):

هذا الحديث يدل بمنطوقه على أن من لا يرحم الناس لا يرحمه الله، وبمفهومه: على أن من يرحم الناس يرحمه الله؛ كما قال ﷺ في الحديث الآخر:

«الرَّاحِمُون يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ، ارْحَمُوا مَنْ في الأَرْضِ، يَرْحَمكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[2].

فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله.

والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النعم واندفاع النقم: من رحمة الله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٦٠١٣ و٧٣٧٦) ومسلم أيضاً (٤/ ١٨٠٩) رقم (٢٣٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة حديث رقم (١٩٢٤) وأبو داود في سننه كتاب الأدب حديث رقم (٤٩٤١) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود برقم (٤١٣٢).

. . . .

فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٦] . وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله، والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم.

والرحمة التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزية، قد جبل الله بعض العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والحنان على الخلق، ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميع ما يقدرون عليه من نفعهم، بحسب استطاعتهم. فهم محمودون مثابون على ما قاموا به، معذورون على ما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم.

والنوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة تجعل قلبه على هذا الوصف، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجلِّ مكارم الأخلاق وأكملها، فيجاهد نفسه على الاتصاف به، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب، وما في فوته من حرمان الثواب؛ فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك، ويعلم أن الجزاء من جنس العمل، ويعلم أن الأخوة الدينية والمحبة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها بين المؤمنين، وأمرهم أن يكونوا إخواناً متحابين، وأن ينبذوا كل ما ينافي ذلك: من البغضاء، والعداوات، والتدابر.

فلا يزال العبد يتعرف الأسباب التي يدرك بها هذا الوصف الجليل، ويجتهد في التحقق به، حتى يمتلىء قلبه من الرحمة، والحنان على الخلق.

ويا حبذا هذا الخلق الفاضل، والوصف الجليل الكامل!

وهذه الرحمة التي في القلوب، تظهر آثارها على الجوارح واللسان: في السعي في إيصال البر والخير والمنافع إلى الناس، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم.

وعلامة الرحمة الموجودة في قلب العبد: أن يكون محبًّا لوصول الخير لكافة

. . . .

الخلق عموماً، وللمؤمنين خصوصاً، كارهاً حصول الشر و الضرر عليهم. فبقدر هذه المحبة والكراهة تكون رحمته.

ومن أُصيب حبيبه بموت أو غيره من المصائب، فإن كان حزنه عليه لرحمة: فهو محمود، ولا ينافي الصبر والرضا؛ لأنه ﷺ لما بكى لموت ولد ابنته، قال له «سعد»: «ما هذا يا رسول الله؟» فأتبع ذلك بعبرة أُخرى، وقال: **«هذه رحمة يجعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»**.

وقال عند موت ابنه «إبراهيم»:

«الْقَلْبُ يَحْزَنُ، والْعَيْنُ تَدْمَعُ، ولا نَقُولُ إلاَّ ما يُرْضِي رَبَّنا، وإنَّا لِفِراقِكَ يا إِبْراهِيمُ لَمَحْزُونُونَ».

وكذلك رحمة الأطفال الصغار، والرقة عليهم، وإدخال السرور عليهم: من الرحمة. وأما عدم المبالاة بهم، وعدم الرقة عليهم: فمن الجفاء والغلظة والقسوة، كما قال بعض جُفاة الأعراب حين رأى النبي ﷺ وأصحابه يقبلون أولادهم الصغار، [قال] ذلك الأعرابي:

«إنَّ لي عشرةً من الولَدِ ما قَبَّلتُ واحِداً منهم».

فقال النبي ﷺ: **«أَوَ أَمْلِكُ لَك شَيْئاً أنْ نَزَعَ الله مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟»**.

ومن الرحمة: رحمة المرأة البغي حين سقت الكلب، الذي كاد يأكل الثرى من العطش، فغفر الله لها بسبب تلك الرحمة.

وضدها: تعذيب المرأة التي ربطت الهرة، لا هي أطعمتها وسقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت.

ومن ذلك ما هو مشاهد مجرب: أن من أحسن إلى بهائمه بالإطعام والسقي والملاحظة النافعة: أن الله يبارك له فيها. ومن أساء إليها: عوقب في الدنيا قبل الآخرة.

وقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: الآية ٣٢] . وذلك لما في قلب الأول من القسوة والغلظة والشر، وما في قلب الآخر من الرحمة والرقة والرأفة؛ إذ هو بصدد إحياء كل من له قدرة على إحيائه من الناس، كما أن ما في قلب الأول من القسوة: مستعد لقتل النفوس كلها.

فنسأل الله أن يجعل في قلوبنا رحمة توجب لنا سلوك كل باب من أبواب رحمة الله، ونحنو بها على جميع خلق الله، وأن يجعلها موصلة لنا إلى رحمته وكرامته. إنه جواد كريم.

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٤/ ٦٧٤ وما بعدها):

كان عند النبي ﷺ الأقرع بن حابس من زعماء بني تميم، والغالب أن أهل البادية وأشباههم يكون فيهم جفاء، فقبّل النبي ﷺ الحسن، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلتُ واحداً منهم. أعوذ بالله من قلب قاسٍ ما قبّلهم ولو كانوا صغاراً، فنظر إليه النبي ﷺ وقال: **«من لا يرحم لا يُرحم»** يعني أن الذي لا يرحم عباد الله لا يرحمه الله. ويُفهم من هذا أن من رحم عباد الله رحمه الله، وهو كذلك فقد قال النبي ﷺ **«الراحمون يرحمهم الرحمن»**[1].

ففي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل الرحمة في معاملة الصغار ونحوهم، وأنه ينبغي للإنسان أن يقبّل أبناءه، وأبناء بناته، وأبناء أبنائه، يقبّلهم رحمة بهم، واقتداءً برسول الله ﷺ، أما ما يفعله بعض الناس من الجفاء والغلظة بالنسبة للصبيان، فتجده لا يمكّن صبيه من أن يحضر إلى مجلسه، ولا أن يمكن صبيّه من أن يطلب منه شيئاً، وإذا رآه عند الرجال انتهره فهذا خلاف السنة وخلاف الرحمة.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يصلي بالناس إحدى صلاتي العشي، إما العصر

(١) تقدم تخريجه قبل قليل.

وإما الظهر، فجاءته بنت بنته أُمامة، فكان النبي ﷺ يحملها وهو يصلي بالناس؛ إذا قام حملها، وإذا سجد وضعها[1].

أين هذا الخلق من أخلاقنا اليوم؟ الآن لو يجد الإنسان صبيّه في المسجد أخرجه، فضلاً عن كونه يحمله في الصلاة.

وكان النبي ﷺ يوماً من الأيام ساجداً، فجاءه الحسن أو الحسين فركب عليه. أي جعله راحلة، فأطال النبي ﷺ السجود، فلما سلم قال: **«إن ابني ارتحلني وإني كرهت أن أقوم حتى يقضي نهمته»**[2].

وكان ﷺ يخطب الناس يوماً على المنبر، فأقبل الحسن والحسين وعليهما ثوبان جديدان يعثران بهما، فنزل النبي ﷺ وحملهما بين يديه، وقال: **«صدق الله** ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: الآية ١٥] **نظرت إلى هذين الصبيّين يعثران فلم أصبر»**[3] يعني فما طابت نفسه حتى نزل وحملهما. ففي هذا كله وأمثاله دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يرحم الصغار، ويلطف بهم، وأن ذلك سبب لرحمة الله عز وجل، نسأل الله أن يعمنا وإياكم برحمته ولطفه وإحسانه.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة حديث رقم (٥١٦) ومسلم في صحيحه كتاب المساجد حديث رقم (٥٤٣).

(٢) أخرجه النسائي في سننه (٢/ ٢٢٩، ٢٣٠) وأحمد في المسند (٣/ ٤٩٤).

(٣) أخرجه النسائي في سننه (١/ ٣٠٦) وابن ماجه في سننه برقم (٣٦٠٠) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن النسائي برقم (١٣٤٠).

١٤ ـ باب ذكر ضعف القلب

وقول الله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [الكهف: الآية ١٤].

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكبوت: الآيات ١ ـ ٣] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٨٦٢):

يخبر تعالى، عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل مَنْ قال: «إنه مؤمن» وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة، يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه.

فإنه لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل. ولكن سنته تعالى وعادته في الأولين، في هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل، ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها، إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة.

فمَنْ كان عند ورود الشبهات، يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دلَّ على صدق إيمانه وصحته.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العَنكبوت: الآية ١٠] [١].

ولهما عن ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «**المسلمُ مَن سَلِمَ**

ومَنْ كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه، شكّاً وريباً، وعند اعتراض الشهوات، تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام: درجات، لا يحصيها إلاّ الله، فمستقل ومستكثر. فنسأل الله تعالى، أن يثبتنا بالقول الثابت، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس، بمنزلة الكير، يخرج خبثها، وطيبها.

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٨٦٤):

لما ذكر تعالى، أنه لا بد أن يمتحن مَن ادَّعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بيِّن تعالى أن من الناس فريقاً، لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل فقال: ﴿**ومن الناس مَنْ يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله**﴾ بضرب، أو أخذ مال، أو تعيير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل. ﴿**جعل فتنة الناس كعذاب الله**﴾ أي: يجعلها صادَّة له عن الإيمان، والثبات عليه، كما أن العذاب صادٌّ عمّا هو سببه.

﴿**ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم**﴾، لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿**ومن الناس مَنْ يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين**﴾.

﴿**أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين**﴾ أي: فلذلك قَدَّرَ مِحَناً وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرده، لأنهم قد يحتجون على الله، أنهم لو ابتُلوا، لثَبَتُوا.

المسلمُونَ مِن لسانِهِ ويَده، والمهاجر مَن هَجَرَ مَا نَهَىٰ الله عنه»(١). [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى في كتابه بهجة قلوب الأبرار (ص ١٦ و١٧):

ذكر في هذا الحديث كمال هذه الأسماء الجليلة، التي رتب الله ورسوله عليها سعادة الدنيا والآخرة. وهي الإسلام، والإيمان، والهجرة، والجهاد. وذكر حدودها بكلام جامع شامل، وأن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

وذلك أن الإسلام الحقيقي: هو الاستسلام لله. وتكميل عبوديته، والقيام بحقوقه وحقوق المسلمين. ولا يتم الإسلام حتى يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شر لسانه وشر يده. فإن هذا أصل هذا الفرض الذي عليه للمسلمين.

فمن لم يسلم المسلمون من لسانه أو يده، كيف يكون قائماً بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين؟

فسلامتهم من شره القولي والفعلي عنوان على كمال إسلامه.

وفسر المؤمن بأنه الذي يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم؛ فإن الإيمان إذا دار في القلب، وامتلأ به، أوجب لصاحبه القيام بحقوق الإيمان التي من أهمها: رعاية الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دمائهم وأموالهم. ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه، وأمنوه على دمائهم وأموالهم، ووثقوا به، لما يعلمون منه من مراعاة الأمانات؛ فإن رعاية الأمانة من أخص واجبات الإيمان، كما قال ﷺ: **«لاَ إيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ»**(٢).

وفسر ﷺ الهجرة التي هي فرض عين على كل مسلم بأنها هجرة الذنوب والمعاصي. وهذا الفرض لا يسقط عن كل مكلف في كل حال من أحواله؛ فإن الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (١٠ و٦٤٨٤) ومسلم أيضاً بشطره الأول فقط في كتاب الإيمان (١/ ٦٥) رقم (٤٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٥ و١٥٤ و٢١٠ و٢٥١) وغيره وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في المشكاة برقم (٣٥).

. . . .

حرم على عباده انتهاك المحرمات، والإقدام على المعاصي والهجرة الخاصة التي هي الانتقال من بلد الكفر أو البدع إلى بلد الإسلام، والسنة جزء من هذه الهجرة، وليست واجبة على كل أحد، وإنما تجب بوجود أسبابها المعروفة.

وفسر المجاهد بأنه الذي جاهد نفسه على طاعة الله؛ فإن النفس مَيَّالة إلى الكسل عن الخيرات، أمارة بالسوء، سريعة التأثر عند المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها على الصبر عند المصائب.

وهذه هي الطاعات: امتثال المأمور، واجتناب المحظور، والصبر على المقدور.

فالمجاهد حقيقة: من جاهدها على هذه الأمور، لتقوم بواجبها ووظيفتها.

ومن أشرف هذا النوع وأجلِّه، مجاهدتُها على قتال الأعداء، ومجاهدتهم بالقول والفعل؛ فإن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين.

فهذا الحديث من قام بما دل عليه فقد قام بالدين كله.

مَنْ سَلِمَ المسلمُون من لسانِه ويده، وأمِنَه الناس على دمائهم وأموالهم، وهجر ما نهى الله عنه، وجاهد نفسه على طاعة الله، فإنه لم يبق من الخير الديني والدنيوي الظاهري والباطني شيئاً إلا فعله، ولا من الشر شيئاً إلا تركه. والله الموفق وحده.

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٤/ ٦٢٧ وما بعدها):

قال المؤلف رحمه الله فيما رواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**».

والمسلم يطلق على معان كثيرة، منها المستسلم، فالمستسلم لغيره يقال له مسلم، ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحُجرَات: الآية ١٤] أي قولوا استسلمنا، ولم نقاتلكم، والقول الثاني في الآية إن المراد بالإسلام، الإسلام لله عز وجل وهو الصحيح.

. . . .

والمعنى الثاني يطلق الإسلام على الأصول الخمسة التي بينها النبي ﷺ لجبريل حين سأله عن الإسلام، فقال: **«أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»**[(1)].

ويطلق الإسلام على السلامة، يعني أن يسلم الناس من شره، فيقال أسلم بمعنى دخل في السلم أي المسالمة للناس، بحيث لا يؤذي الناس، ومنه هذا الحديث: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»**. سلم المسلمون من لسانه فلا يسبهم، ولا يلعنهم، ولا يغتابهم، ولا ينم بينهم، ولا يسعى بينهم بأي نوع من أنواع الشر والفساد فهو قد كف لسانه، وكف اللسان من أشد ما يكون على الإنسان، وهو من الأمور التي تصعب على المرء وربما يستسهل إطلاق لسانه.

ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل: **«أفلا أخبرك بملاك ذلك كله»**؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: **«كف عليك هذا»**، قلت: يا رسول الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، يعني هل نؤاخذ بالكلام؟ فقال: **«ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»**[(2)].

فاللسان من أشد الجوارح خطراً على الإنسان، ولهذا إذا أصبح الإنسان فإن الجوارح: اليدين والرجلين والعينين كل الجوارح تكفر اللسان، وكذلك أيضاً الفرج، لأن الفرج فيه شهوة النكاح، واللسان فيه شهوة الكلام، وقل من سلم من هاتين الشهوتين.

فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه أي كف عنهم؛ لا يذكرهم إلا بخير، ولا يسب، ولا يغتاب، ولا ينم، ولا يحرش بين الناس، فهو رجل مسالم، إذا سمع السوء

---

(1) جزء من حديث جبريل المشهور أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان برقم (٩٣) من حديث عمر رضي الله عنه وأخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٧٧٧) ومسلم في صحيحه برقم (٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٤١٠) وابن ماجه في سننه برقم (٣٩٧٢) وهو في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٢٠٩).

حفظ لسانه، وليس كما يفعل بعض الناس والعياذ بالله، إذا سمع السوء في أخيه المسلم طار به فرحاً وطار به في البلاد نشراً وإذاعة، فإن هذا ليس بمسلم.

الثاني: من سلم المسلمون من يده، فلا يعتدي عليهم بالضرب، أو الجرح، أو أخذ المال، أو ما أشبه ذلك، قد كف يده لا يأخذ إلا ما يستحقه شرعاً، ولا يعتدي على أحد، فإذا اجتمع للإنسان سلامة الناس من يده ومن لسانه، فهذا هو المسلم.

وعلم من هذا الحديث أن من لم يسلم الناس من لسانه أو يده، فليس بمسلم، فمن كان ليس له هم إلا القيل والقال في عباد الله، وأكل لحومهم وأعراضهم، فهذا ليس بمسلم، وكذلك من كان ليس له هم إلا الاعتداء على الناس بالضرب، وأخذ المال، وغير ذلك مما يتعلق باليد، فإنه ليس بمسلم.

هكذا أخبر النبي عليه الصلاة والسلام، وليس إخبار النبي ﷺ لمجرد أن نعلم به فقط، بل لنعلم به ونعمل به، وإلا فما الفائدة من كلام لا يعمل به، إذن فاحرص إن كنت تريد الإسلام حقّاً على أن يسلم الناس من لسانك ويدك، حتى تكون مسلماً حقّاً، أسأل الله أن يكفينا ويكف عنا، ويعافنا ويعفو عنا، إنه جواد كريم.

* * *

أبواب كبائر اللسان

١٥ ـ باب التحذير من شر اللسان

وقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٦٣] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٨٠١):

... ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منته على عباده الصالحين، وتوفيقهم للأعمال الصالحات، التي أكسبتهم المنازل العاليات، في غرف الجنات فقال: **﴿وعباد الرحمن﴾** إلى **﴿فسوف يكون لزاماً﴾**.

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون **﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾** وعبودية لألوهيته، وعبادته، ورحمته، وهي: عبودية أنبيائه، وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال، بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم **﴿يمشون على الأرض هوناً﴾** أي: ساكنين متواضعين لله، وللخلق، فهذا وصف لهم، بالوقار، والسكينة، والتواضع لله، ولعباده.

﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل، وإسناده لهذا الوصف، **﴿قالوا سلاماً﴾** أي: خاطبوهم خطاباً يسلمون فيه، من الإثم، ويسلمون

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: الآية ٥٥] [١].

وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: الآية ١٨] [٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» أخرجاه(١) [٣]. ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنهما

من مقابلة الجاهل بجهله. وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٨٥٤):

﴿**وإذا سمعوا اللغو**﴾ من جاهل خاطبهم به، أعرضوا عنه و﴿**قالوا**﴾ مقالة عباد الرحمن أولى الألباب ﴿**لنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾ أي: كل سيجازى بعمله، الذي عمله وحده، وليس عليه من وزر غيره شيء، ولزم من ذلك أنهم يتبرأون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل والكلام الذي لا فائدة فيه. ﴿**سلام عليكم**﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم فإننا ننزه أنفسنا عنه ونصونها عن الخوض فيه ﴿**لا نبتغي الجاهلين**﴾ من كل وجه.

[٢] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١١/ ٤١٦):

يقول تعالى ذكره: ما يلفظ الإنسان من قول فيتكلم به، إلا عند ما يلفظ به من قول رقيب عتيد، يعني حافظ يحفظه، عتيد مُعَدٌّ.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله: قال أهل اللغة:

يقال صمت يصمت، بضم الميم، صمتاً وصموتاً وصماتاً، أي سكت، . . .

وأما قوله ﷺ «**فليقل خيراً أو ليصمت**» أراد أن يتكلم فإن كان ما يتكلم به خيراً محققاً يثاب عليه، واجباً أو مندوباً، فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام، سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوى الطرفين، فعلى هذا يكون

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٦٤٧٥) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٦٨) رقم (٤٧).

مرفوعاً: «**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**»(١). [١].

وعن سفيان بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قَال: قلتُ يا رسول الله مَا أخوفُ ما تَخافُ عليَّ؟ فأخَذَ بلسانِ نفسهِ ثمَّ قالَ: «**كفَّ عليكَ هذا**» قالَ الترمذي حسن صحيح(٢).

وله وصححه عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ قلت يا رسولَ الله وإنَّا لمؤاخَذونَ بِمَا

الكلام المباح مأموراً بتركه مندوباً إلى الإمساك عنه مخافة من انجراره إلى المحرم أو المكروه، وهذا يقع في العادة كثيراً أو غالباً، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: الآية ١٨] . . . وقد ندب الشرع إلى الإمساك عن كثير من المباحات لئلا ينجر صاحبها إلى المحرمات أو المكروهات، وقد أخذ الإمام الشافعي رحمه الله معنى الحديث فقال: إذا أراد أن يتكلم فليفكر، فإن ظهر له أنه لا ضرر عليه تكلم، وإن ظهر له فيه ضرر أو شك فيه أمسك.

[١] قال الإمام ابن حجر رحمه الله في الفتح (١١/ ٣٧٤):

قوله: «**من يضمن**» من الضمان بمعنى الوفاء بترك المعصية فأطلق الضمان وأراد لازمه وهو أداء الحق الذي عليه، فالمعنى من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عما لا يعنيه وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام «**أضمن له الجنة**»، وقوله: «**لحييه**» بفتح اللام وسكون المهملة والتثنية هما العظمان في جانبي الفم، والمراد بما بينهما اللسان وما يتأتى به النطق، وبما بين الرجلين الفرج. . . وقال ابن بطال: دل الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدنيا لسانه وفرجه، فمن وقى شرهما وقى أعظم الشر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٦٤٧٤ و٦٨٠٧) والترمذي في سننه برقم (٢٤٠٨) والإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٤١٠) وابن ماجه في سننه برقم (٣٩٧٢) وأحمد في المسند (٣/ ٤١٣، ٤/ ٣٨٤) والدارمي في سننه برقم (٢٧١٤) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٢٠٨).

نتكلَّمُ بهِ؟ قالَ: **«ثَكلتْكَ أمكَ يا مُعاذُ. وهَل يَكُبُّ النَّاسَ على وجوهِهِمْ ـ أو قَال على مَنَاخِرِهِمْ ـ إلاَّ حَصائدُ ألسنتهم»**[1]. [١].

---

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (ص ٤٨٨):

قوله: «فأخذ بلسانه» الباء زائدة، والضمير راجع إلى النبي ﷺ: قال القاضي ناصر الدين: **«كف عليك»** أي كف عليك لسانك، ولا تتكلم إلا بما يعنيك، فإن من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه، كثرت ذنوبه، ولكثرة الكلام مفاسد يطول إحصاؤها، أو لا تتكلم بما يهجس في نفسك من الوساوس، فإنك غير مأخوذ به ما لم تظهر؛ لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: **«إن الله تعالى تجاوز عن أمتي ما وسوست صدورها ما لم تعمل أو تتكلم»**. أو لا تتفوه بما ستره الله عليك؛ فإن التوبة عنه أرجى قبولاً، والعفو عنه أرجى وقوعاً.

قوله: **«إنا لمؤاخذون»** المؤاخذة أن يأخذ أحد أحداً بذنبه. و**«ثكلتك أمك»** فقدتك، والثكل موت الولد، وفقد الحبيب، وهذه وأمثاله أشياء مزالة عن أصلها إلى معنى التعجب وتعظيم الأمر. قال المظهر: هذا دعاء عليه، ولا يراد وقوعه بل هو تأديب وتنبيه من الغفلة. و**«يكب»** مضارع كب بمعنى صرعه على وجهه، فأكب سقط على وجهه، وهذا من النوادر؛ فإن ثلاثيه متعد، ورباعيه لازم.

قوله: **«أو على مناخرهم»** «أو» لشك الراوى، **«المناخر»** جمع منخر ـ بفتح الميم وكسر الخاء، وفتحها ـ ثقبة الأنف.

«الحصائد» جمع حصيدة، فعيلة بمعنى مفعولة، من: حصد إذا قطع الزرع. وهذا إضافة المفعول إلى فاعله، أي محصودات الألسنة، شبه ما تكلم به اللسان بالزرع المحصود بالمنجل، فكما أن المنجل يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس، والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الإنسان يتكلم بكل نوع من الكلام القبيح والحسن، ثم حذف المشبه وأقيم المشبه به مقامه على سبيل الاستعارة المصرحة، وجعل الإضافة

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٤١٠) وابن ماجه في سننه برقم (٣٩٧٣) والإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٣١) وغيرهم وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه رقم (٣٢٠٩) والإرواء برقم (٤١٣).

. . . .

قرينة لها، والاستثناء مفرغ؛ لأن في الاستفهام معنى النفي، والتقدير: لا يكب الناس في النار شيء من الأشياء إلا حصائد ألسنتهم من الكلام القبيح، مثل: الكفر، والقذف، والشتم، والغيبة، والبهتان، ونحوها. وهذا الحكم وارد على الأغلب والأكثر؛ لأنك إذا جربت وفكرت لم تجد أحداً حفظ لسانه عن السوء، ولا يصدر منه شيء يوجب دخول النار إلا نادراً، هذا، ومن أراد مزيد بيان في المعاني والبيان فعليه بكتاب التبيان وشرحه.

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم (ص ٣٦٩ وما بعدها):

وقوله ﷺ: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلىٰ يا رسول الله، فأخذ بلسانه فقال: «**كفّ عليك هذا**» إلىٰ آخر الحديث، هذا يدلّ علىٰ أن كفّ اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير كله، وأنّ من ملك لسانه، فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه.

والمراد بحصائد الألسنة: جزاء الكلام المحرّم وعقوباته، فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، ثم يحصد يوم القيامة ما زرع، فمن زرع خيراً من قول أو عمل، حصد الكرامة، ومن زرع شرّاً من قول أو عمل، حصد غداً الندامة. وظاهر حديث معاذ يدلّ علىٰ أنّ أكثر ما يدخل الناس به النار النطق بألسنتهم، فإن معصية النطق يدخل على الله فيها الشرك وهو أعظم الذنوب عند الله عز وجل، ويدخل فيها القول بغير علم، وهو قرين الشرك، ويدخل فيها شهادة الزور التي عدلت الإشراك بالله عزّ وجلّ، ويدخل فيها السحر والقذف وغير ذلك من الكبائر والصغائر، كالكذب و الغيبة والنميمة، وسائر المعاصي الفعلية لا يخلو غالباً من قول يقترن بها يكون معيناً عليها.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان: الفم والفرج**»[1] خرّجه الإمام أحمد والترمذي.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٩١، ٣٩٢، ٤٤٢) وابن ماجه في سننه كتاب الزهد، رقم (٤٢٤٦) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٤٢٤).

. . . .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن ما فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[1].

وخرّجه الترمذي ولفظه: «**إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرىٰ بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار**»[2].

وروىٰ مالك، عن زيد بن أسلم عن أبيه أنّ عمر دخل علىٰ أبي بكر رضي الله عنهما، وهو يجبذ لسانه، فقال عمر: مه غفر الله لك، فقال أبو بكر: هذا الذي أوردني الموارد.

وقال ابن بريدة: رأيت ابن عباس رضي الله عنهما آخذاً بلسانه وهو يقول: ويحك قل خيراً تغنم أو اسكت عن سوء تسلم، وإلا فاعلم أنك ستندم، قال: فقيل له: يا أبا عباس، لم تقول هذا؟ قال: إنه بلغني أنّ الإنسان أراه قال ليس على شيء من جسده أشدّ حنقاً أو غيظاً يوم القيامة منه على لسانه إلا ما قال به خيراً، أو أملىٰ به خيراً.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يحلف بالله الذي لا إله إلا هو: ما علىٰ الأرض شيء أحوج إلىٰ طول سجن من لسان.

وقال الحسن: اللسان أمير البدن، فإذا جنىٰ علىٰ الأعضاء شيئاً، جنت، وإذا عفّ عفت.

وقال يونس بن عبيد: ما رأيت أحداً لسانه منه علىٰ بال إلا رأيت ذلك صلاحاً في سائر عمله.

وقال يحيىٰ بن أبي كثير: ما صلح منطق رجل إلا عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط إلاّ عرفت ذلك في سائر عمله.

وقال المبارك بن فضالة، عن يونس بن عبيد: لا تجد شيئاً من البرّ واحداً يتبعه

---

(١) سيأتي تخريجه إن شاء الله تعالى.

(٢) سيأتي تخريجه إن شاء الله تعالى.

ولَهُ عنْ أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**إذا أصبحَ ابن آدمَ فإنَّ الأعضاء كلها تكفرُ اللسانَ تقولُ: اتقِ الله فينا فإنَّمَا نحن بك، إن استقمتَ استقمنَا وإنِ اعوججت اعوججنَا**» قوله: تُكفرُ أي تذلُّ وتخضعُ(١). [١].

البرّ كله غير اللسان، فإنك تجد الرجل يصوم النهار ويفطر علىٰ حرام، ويقول الليل ويشهد الزور بالنهار، وذكر أشياء نحو هذا ولكن تجده لا يتكلم إلاّ بحق فيخالف ذلك عمله أبداً.

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (ص ٥٥٣ وما بعدها):

«**إذا أصبح ابن آدم**» دخل في الصباح «**فإن الأعضاء**» جمع عضو بضم العين و كسرها كل عظم وافر بلحمه «**كلها**» تأكيد لدفع توهم عدم إرادة الشمول «**تكفر اللسان**» تذل وتخضع له من قولهم: كفر اليهودي إذا خضع وطأطأ رأسه وانحنى لتعظيم صاحبه مأخوذ من الكافرة، وهي الكاذبة التي هي أصل الفخذ، ذكره القاضي وأصله للزمخشري حيث قال: وهو من تكفير الذمي وهو أن يطأطىء رأسه ويحني ظهره كالراكع عند تعظيم صاحبه قال:

تكفر باليدين إذا التقينا وتلقى من مخافتنا عصاكا

كأنه من الكافرتين وهما الكاذبتان لأنه يضع يديه عليهما أو ينثني عليهما أي يحكى في ذلك من يكفر شيئاً أي يغطيه ويستره. انتهى. «**فتقول**» أي بلسان الحال، وزعم أن المراد لسان القال جمود «**اتق الله فينا**» أي خفه في حفظ حقوقنا فلا تقتحم منهياً فنهلك معك «**فإنما نحن بك**» أي نستقيم ونعوج تبعاً لك «**فإن استقمت**» أي اعتدلت على الصراط المستقيم «**استقمنا**» اعتدلنا وفي التنزيل: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٧] أي عدلاً «**وإن اعوججت**» ملت عن الاعتدال «**اعوججنا**» ملنا عنه.

قال الغزالي رحمه الله تعالى: المعنى فيه أن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه رقم (٢٥٣١) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (١٩٦٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمةِ ما يتبينُ فيهَا، يزلُّ بها في النَّار أبعدَ مما بينَ المشرق والمغربِ**» أخرجاه[1] [١].

بالتوفيق والخذلان فاللسان أشد الأعضاء جماحاً وطغياناً وأكثرها فساداً وعدوانا، ويؤكد هذا المعنى قول مالك بن دينار رضي الله عنه: إذا رأيت قساوة في قلبك، ووهناً في بدنك، وحرماناً في رزقك، فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك؛ قال الطيبي: وهذا لا تناف بينه وبين خبر: «**إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد**» إلى آخره؛ لأن اللسان ترجمان القلب وخليفته في ظاهر البدن، فإذا أسند إليه الأمر فهو مجاز في الحكم كقولك: سقى الطبيب المريض الدواء.

قال الميداني: المرء بأصغريه قلبه ولسانه، أي تقوم معانيه بهما، قال الشاعر:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (١١/ ٣٧٦ فتح):

قوله «**بالكلمة**»: أي الكلام المشتمل على ما يفهم الخير أو الشر سواء طال أم قصر كما يقال: كلمة الشهادة وكما يقال للقصيدة: كلمة فلان. قوله «**ما يتبين فيها**»: أي لا يتطلب معناها أي لا يثبتها بفكره ولا يتأملها حتى تثبت فيها فلا يقولها إلا إن ظهرت المصلحة في القول؛ «**يزل بها**» أي يسقط «**أبعد ما بين المشرق والمغرب**» قوله: «**ما بين المشرق**» لفظ بين يقتضي دخوله على المتعدد والمشرق متعدد معنى، إذ مشرق الصيف غير مشرق الشتاء وبينهما بعد كبير ويحتمل أن يكون اكتفى بأحد المتقابلين عن الآخر مثل ﴿**سرابيل تقيكم الحر**﴾ قال ابن عبد البر: الكلمة التي يهوي صاحبها بسببها في النار هي التي يقولها عند السلطان الجائر وزاد ابن بطال: بالبغي أو بالسعي على المسلم فتكون سبباً لهلاكه وإن لم يرد القائل ذلك لكنها ربما أدت إلى ذلك فيكتب على القائل إثمها، والكلمة التي ترفع الدرجات ويكتب بها الرضوان هي التي يدفع بها عن المسلم مظلمة أو يفرج بها عنه كربه أو ينصر بها مظلوماً. . . وقال القاضي عياض: يحتمل أن تكون تلك الكلمة من الخنى والرفث وأن يكون في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٦٤٧٧) ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٠) رقم (٢٩٨٨).

وللترمذي وصححهُ عن بلال بن الحارثِ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**إنَّ الرجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ رضوانِ الله مَا كَانَ يظنُّ أن تبلغَ مَا بَلغتْ، يكتبُ الله لهُ بها رضوانهُ إلى يومِ يلقاهُ، وإنَّ الرجلَ ليتكلمُ بالكلمةِ من سخطِ الله تعالى مَا كان يظنُّ أن تبلغَ ما بلغتَ يكتبُ الله لهُ سخطهُ إلى يومِ يلقاه**»(١).

ولمسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً: «**أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان؟ فقال الله عز وجل، من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان إني قد غفرت له وأحبطت عملك**»(٢) وروي أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته(٣) [١].

التعريض بالمسلم بكبيرة أو بمجون أو استخفاف بحق النبوة والشريعة وإن لم يعتقد ذلك... وقال النووي: في هذا الحديث حث على حفظ اللسان فينبغي لمن أراد أن ينطق أن يتدبر ما يقول قبل أن ينطق، فإن ظهرت فيه مصلحة تكلم وإلا أمسك. قوله «**لا يلقى لها بالا**» أي لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر في عاقبتها ولا يظن أنها تؤثر شيئاً وهو من نحو قوله تعالى: ﴿**وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم**﴾ وقوله: «**يهوي**»: قال عياض المعنى ينزل فيها ساقطاً.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

معنى يتألى: يحلف، والألية اليمين وفيه دلالة لمذهب أهل السنة في غفران الذنوب بلا توبة إذا شاء الله غفرانها واحتجت المعتزلة به في إحباط الأعمال بالمعاصي الكبار، ومذهب أهل السنة أنها لا تحبط إلا بالكفر ويتأول حبوط عمل هذا على أنه اسقطت حسناته في مقابلة سيئاته وسمي إحباطاً مجازاً. ويحتمل أنه جرى منه أمر آخر

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه رقم (٢٣١٩) وابن ماجه في سننه رقم (٣٩٦٩) والإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٦٩) وغيرهم وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه رقم (٣٢٠٥) والصحيحة رقم (٨٨٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٣) رقم (٢٦٢١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه رقم (٤٩٠١) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤٠٩٧).

. . . .

أوجب الكفر، ويحتمل أن هذا كان في شرع من قبلنا، وكان هذا حكمهم.

وقال الإمام الطيبي في شرحه للمشكاة (٦/ ١٨٤٤):

«**من يتألى على الله**» أي من حكم على الله وحلف كما تقول: والله لا يدخل الله فلاناً النار، وفلاناً الجنة. (ومن هنا) فلا يجوز لأحد أن يجزم بالغفران أو بالعقاب لأن أحداً لا يعلم مشيئة الله وإرادته في عباده، بل نرجو للمطيع ونخاف للعاصي، وإنما نجزم القول في حق من جاء فيه نص كالعشرة المبشرة.



١٦ ـ باب ما جاء في كثرة الكلام

وقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: الآيات ١٠ ـ ١٢] [١].

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مرفوعاً: **«إن الله حرم عليكم: عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات، وكره لكم، قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»** أخرجاه(١) [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١٢/ ٤٨٠):

﴿وإن عليكم لحافظين﴾ يقول: وإن عليكم رقباء حافظين يحفظون أعمالكم، ويحصونها عليكم **﴿كراماً كاتبين﴾** يقول: كراماً على الله كاتبين يكتبون أعمالكم. **﴿يعلمون ما تفعلون﴾** يقول: يعلم هؤلاء الحافظون ما تفعلون من خير أو شر، يحصون ذلك عليكم.

[٢] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٥/ ٢٤٢ و٢٤٣):

حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ومنعاً وهات، ووأد البنات»** الشاهد من هذا الحديث قوله: **«عقوق الأمهات»** وهو قطع ما يجب لهن من البر، أما وأد البنات فهو دفنهن أحياء، وذلك لأنهم في الجاهلية كانوا يكرهون البنات، ويعيبون بقاء البنت عند الرجل، ويقولون: إن بقاء البنت عند الرجل مسبة له.

فكانوا والعياذ بالله يأتون بالبنت فيحفرون لها حفرة ويدفنونها وهي حية. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: الآيتان ٨، ٩] فحرم الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٩٧٥) ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٤١) رقم (٥٩٣).

. . . .

ذلك، وهو لا شك من أكبر الكبائر، وإذا كان قتل الأجنبي المؤمن سبباً للخلود في النار كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: الآية ٩٣] فالقرابة أشد وأشد.

«ومنعاً وهات» يعني أن يكون الإنسان جموعاً منوعاً؛ يمنع ما يجب عليه بذله من المال، ويطلب ما ليس له، فهات: يعني أعطوني المال، ومنعاً: أي يمنع ما يجب عليه، فإن هذا أيضاً مما حرمه الله عز وجل؛ لأنه لا يجوز للإنسان ما لا يستحق، فكلاهما حرام، ولهذا قال: **«إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات»**.

«وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال»، كره وحرم ليس بينهما فرق؛ لأن الكراهة في لسان الشارع معناها التحريم. ولكنَّ هذا والله أعلم من باب اختلاف التعبير فقط.

«كره لكم قيل وقال» يعني نقل الكلام، وكثرة ما يتكلم الإنسان ويثرثر به، وأن يكون ليس له هم إلا الكلام في الناس، قالوا كذا وقيل كذا، ولا سيما إذا كان هذا في أعراض أهل العلم وأعراض ولاة الأمور، فإنه يكون أشد وأشد كراهة عند الله عز وجل.

والإنسان المؤمن هو الذي لا يقول إلا خيراً كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[1].

وكثرة السؤال يحتمل أن يكون المراد السؤال عن العلم، ويحتمل أن يكون المراد السؤال عن المال.

أما الأول: وهو كثرة السؤال عن العلم فهذا إنما يكره إذا كان الإنسان لا يريد إلا إعنات المسؤول، والإشقاق عليه، وإدخال السآمة والملل عليه، أما إذا كان يريد العلم فإنه لا ينهى عن ذلك، ولا يكره ذلك، وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كثير

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٦٤٧٥) كتاب الرقاق، ومسلم في صحيحه رقم (٤٧) كتاب الإيمان.

وعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: **«إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون»** حسنه الترمذي(1) [1].

السؤال، فقد قيل له: بم أدركت العلم؟ قال: أدركت العلم بلسان سؤول، وقلبٍ عقول، وبدن غير ملول.

لكن إذا كان قصد السائل الإشقاق على المسؤول والإعنات عليه، وإلحاق السآمة به، أو تلقط زلاته لعله يزل فيكون في ذلك قدحٌ فيه، فإن هذا هو المكروه.

وأما الثاني: وهو سؤال المال فإن كثرة السؤال قد تلحق الإنسان بأصحاب الشح والطمع، ولهذا لا يجوز للإنسان سؤال المال إلا عند الحاجة، أو إذا كان يرى أن المسؤول يمن عليه أن يسأله، كما لو كان صديقاً لك قوي الصداقة، قريباً جداً، فسألته حاجة وأنت تعرف أنه يكون بذلك ممنوناً، فهذا لا بأس به، أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فلا يجوز أن تسأل إلا عند الضرورة.

وأما إضاعة المال فهو بذل الإنسان له في غير فائدة لا دينية ولا دنيوية، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: الآية ٥] فالمال قيام للناس؛ تقوم به مصالح دينهم ودنياهم، فإذا بذله الإنسان في غير ذلك فهذا إضاعة له، وأقبح من ذلك أن يبذله في محرم، فيرتكب في هذا محظورين:

المحظور الأول: إضاعة المال.

والمحظور الثاني: ارتكاب المحرم.

فالأموال يجب أن يحافظ عليها الإنسان، وألا يضعها وألا يبذلها إلا فيما فيه مصلحة له دينية أو دنيوية.

[1] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه للمشكاة (ص ٣١٠٥):

قوله: **«إن أحبكم إليَّ»** قال القاضي ناصر الدين: أفعل التفضيل إذا أضيف على

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢١٠٤) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (٢١٤٢) والصحيحة برقم (٧٩١).

. . . .

معنى أن المراد به زائد على المضاف إليهم في الخصلة التي هو وهم متشاركون فيها، جاز فيه الإفراد والتذكير في الحالات كلها؛ وتطبيقها لما هو وصف له لفظاً ومعنى، وقد جمع الوجهان في الحديث، فأفرد «أحب وأبغض» وجمع «أحاسن وأساوى» في رواية من روى: «أساويكم» بدل مساويكم، وهو جمع مسوأ كمحاسن جمع محسن، هو إما مصدر ميمي نعت به ثم جمع، أو اسم مكان بمعنى الأمر الذي فيه السوء، فأطلق على المنعوت به مجازاً و«أخلاق» نصب على التمييز.

قال الدارقطني: وأراد بـ«أبغضكم» بغيضكم وبـ«أحبكم» التفصيل. ولا يكون المخاطبون بأجمعهم مشتركين في البغض والمحبة، وقال الحاجبي: تقديره: بأحب المحبوبين منكم وأبغض المبغضين منكم. ويجوز إطلاق العام وإرادة الخاص للقرينة.

أقول إذا جعل الخطاب خاصّاً بالمؤمنين، فكما لا يجوز «أبغضكم» لا يجوز «بغيضكم» لاشتراكهم في المحبة. والقول ما ذهب إليه ابن الحاجب؛ لأن الخطاب عام يدخل فيه البر والفاجر والموافق والمنافق، فإذا أريد به المنافق الحقيقي فالكلام ظاهر، وإذا أريد به غير الحقيقي كما سبق في باب علامات النفاق، فمستقيم أيضاً يدل عليه الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. وهذا القول أولى والمقام له أدعى للحديث السابق.

وقوله: «الثرثارون» إما بدل من **«مساويكم أخلاقاً»**، فيلزم أن تكون هذه الأوصاف أسوأ الأخلاق؛ لأن المبدل كالتمهيد والتوطئة. وإما رفع على الذم على أنه خبر مبتدأ محذوف، فيكون أبلغ وأشنع.

قال ابن الأثير: الثرثارون هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق. والثرثرة كثرة الكلام وترديده. المتشدقون هم المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز. وقيل: المراد بالمتشدق المستهزىء بالناس يلوى شدقه لهم وعليهم. والمتفيهقون هم الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواهم، مأخوذ من الفهق وهو

. . . .

الامتلاء والاتساع، يقال: فهقت الإناء يفهق فهقاً، وبئر مفهاق كثيرة الماء.

وقيل: هذا من النكير والرعونة. وزاد في الفائق والنهاية على هذا: الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون. قالا: وهذا مثل وحقيقته من التوطئة وهي التمهيد والتذليل، وفراش وطيء، أي لا يؤذى جنب النائم. والأكناف الجوانب، أراد الذين جوانبهم وطيئة يتمكن فيها من يصاحبهم ولا يتأذى.

قال الإمام النووي: كره التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع بالمقدمات التي يعتادها المتفاصحون، وزخارف القول، فكل ذلك من التكلف المذموم، وكذلك التحري في دقائق الإعراب، ووحشي اللغة في حال مخاطبة العوام، بل ينبغي أن يقصد في مخاطبته إياهم لفظاً يفهمونه فهماً جلياً. ولا يدخل في الذم تحسين ألفاظ الخطب والمواعظ، إذا لم يكن فيها إفراط وإغراب؛ لأن المقصود منها تهييج القلوب إلى طاعة الله تعالى، ولحسن اللفظ في هذا أثر ظاهر، هكذا ذكره في الأذكار.

١٧ ـ باب التشدق وتكلف الفصاحة

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنَافِقون: الآية ٤] [١].

عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «**إن من البيان لسحراً**» رواه البخاري(١) [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١٢/ ١٠١):

يقول جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا رأيت هؤلاء المنافقين يا محمد تعجبك أجسامهم لاستواء خلقها وحسن صورتها ﴿**وإن يقولوا تسمع لقولهم**﴾ يقول جل ثناؤه، وإن يتكلموا تسمع كلامهم يشبه منطقهم منطق الناس ﴿**كأنهم خشب مسندة**﴾ يقول: كأن هؤلاء المنافقين خشب مسندة لا خير عندهم ولا فقه ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول. وقوله ﴿**يحسبون كل صيحة عليهم**﴾ يقول جل ثناؤه: يحسب هؤلاء المنافقون من خُبثهم وسوء ظنهم وقلة يقينهم، كل صيحة عليهم لأنهم على وجل أن يُنزل الله فيهم أمراً يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم وسبي ذراريهم، وأخذ أموالهم، فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل بهم من الله وحي على رسوله، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطبهم، يقول الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ: ﴿**هم العدو**﴾ يا محمد ﴿**فاحذرهم**﴾ فإن ألسنتهم إذا لقوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عين لأعدائكم عليكم، وقوله: ﴿**قاتلهم الله أنا يؤفكون**﴾ يقول: أخزاهم الله إلى أي وجه يصرفون عن الحق.

[٢] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٤/ ٢١١٤):

«**إن من البيان لسحراً**» أي إن منه لنوعاً يحل من العقول والقلوب في التمويه محل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٤٦) و(٥٧٦٧).

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة**» حسنه الترمذي(١) [١].

السحر، فإن الساحر بسحره يزين الباطل في عين المسحور حتى يراه حقًّا، فكذا المتكلم بمهارة في البيان، وتفننه في البلاغة، وترصيف النظم يسلب عقل السامع، ويشغله من التفكر فيه والتدبر له حتى يخيل إليه الباطل حقًّا والحق باطلاً، وهذا معنى قول ابن قتيبة: إن منه ما يقرب البعيد، ويبعد القريب، ويزين الباطل القبيح، ويعظم الصغير، فكأنه سحر، وما ضارعه فهو مكروه كما أن السحر محرم.

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (١٠/ ٣١٠٧):

قوله: «**يتخلل بلسانه**» هو الذي يتشدق في الكلام ويقحم به لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفاً، قال القاضي ناصر الدين: شبه إدارة لسانه حول الأسنان والفم حال التكلم تفاصحاً، مما تفعل البقرة بلسانها.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٣/ ١٦٥٩، ١٦٦٠):

قوله: «**إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال**» أي المظهر للتفصح تيهاً على الغير وتفاصحاً واستعلاء ووسيلة إلى الاقتدار على تصغير عظيم أو تعظيم حقير أو بقصد تعجيز غيره أو تزيين الباطل في صورة الحق أو عكسه أو إجلال الحكام له ووجاهته وقبول شفاعته فلا ينافى كون الجمال في اللسان ولا أن المروءة في البيان ولا أنه زينة من زينة الدنيا وبهاء من بهائها ولا يناقض هذا ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: الآيتان ٣، ٤] لأن جعله من نعم الوهاب آية أن موضع البغض ما كان على جهة الإعجاب والتعاظم، فمن فهم تناقض الخبر والآية فقد وهم، وإلى ذلك المعنى المراد يشير قوله: «**الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة**» جماعة البقر «**بلسانها**» أي الذي يتشدق بلسانه كما تتشدق البقرة ووجه الشبه إدارة لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلم كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل وخص البقرة من بين البهائم، لأن سائرها تأخذ النبات بأسنانها والبقرة لا تحتش إلا بلسانها ذكره جمع أخذاً من قول التوربشتي: ضرب للمعنى مثلاً

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم (٥٠٠٥) والترمذي في سننه برقم (٢٨٥٣) والإمام أحمد في المسند برقم (١٨٧) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (٨٨٠).

. . . .

يشاهده الراؤون من حال البقرة ليكون أثبت في الضمائر وذلك أن كل دابة تأخذ النبات بأسنانها والبقرة بلسانها يضرب بها المثل لأنهم كانوا في مغزاهم كالبقرة؛ التي لا تستطيع أن تميز في رعيها بين الرطب والشوك والحلو والمر بل تلف الكل بلسانها لفاً فكذا هؤلاء لا يميزون في مأكلهم بين الحلال والحرام ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٢] .

وقال القاضي: شبه إدارة لسانه حول الأسنان والفم حال التكلم تفاصحاً بما يفعل البقر وما ذكر من أن الرواية يتخلل بخاء معجمة هو المشهور وفي بعض نسخ المصابيح يتجلل بالجيم قال القاضي: فيكون تشبيهاً له في تكلمه بالهجر وفحش الكلام بالجلالة في تناول النجاسات.

قال الغزالي: مر بعض السلف بقاص يدعو بسجع، فقال له: أعلى الله تتبالغ؟ ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق.

قال في الأذكار: فيكره التقعير في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع بالمقامات التي يعتادها المتفاصحون وزخارف القول فكله من التكلف المذموم، وكذا تحري دقائق الإعراب ووحشى اللغة حال مخاطبة العوام.

قال بعض العارفين: لا تقاوم فصاحة الذات إعراب الكلمات ألا ترى كيف جعل الله موسى أفضل من أخيه عليهما السلام، لفصاحة ذاته وكان هارون عليه السلام أفصح منه في نطقه وبلاغته ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٤] ولله در القائل:

سر الفصاحة كامن في المعدن ... لخصائص الأرواح لا للألسن

وقال: يا من أعرب فيما أغرب، وعبر فما غبر، وأثار المغنى، وما أنار المعنى، هل الجنان لمن أصلح الجنان، أم لمن أتى بالإغراب في الإعراب؟.

وقال بعضهم:

لسان فصيح معرب في كلامه ... فياليته في موقف الحشر يسلم

وما ينفع الإعراب إن لم يكن تقى ... وما ضر ذا تقوى لسان معجم

(تنبيه) البلاغة عند المتقدمين أن يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في جنانه أو إيصال

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**من تعلم صرف الكلام ليصرف به قلوب الرجال أو الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**» رواه أبو داود[1].

ولأحمد عن معاوية رضي الله عنه: «**لعن رسول الله الذين يشققون الكلام تشقيق الشعر**»[2].

المعنى إلى الغير بأحسن لفظ أو الإيجاز مع الإفهام والتصرف من غير إضمار في الكلام أو قليل لا يبهم وكثير لا يسأم أو إجمال اللفظ واتساع المعنى أو تقليل اللفظ وتكثير المعنى أو حسن الإيجاز وإصابة الحقيقة والمجاز أو سهولة اللفظ مع البديهة أو لمحة دالة أو كلمة تكشف البغية أو الإيجاز من غير عجز والإطناب من غير خطأ أو النطق في موضعه والسكوت في موضعه أو معرفة الفصل والوصل أو الكلام الدال أوله على آخره وعكسه أقوال وفي عرف أهل المعاني والبيان مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع الفصاحة وهي خلوة عن التعقيد.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٥٠٠٦) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود برقم (١٠٦٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/٩٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١١٦): وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف.

١٨ ـ باب شدة الجدال

وقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٤] [١].

عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»(١) [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري في تفسيره (٢/ ٣٢٧): الألد من الرجال: الشديد الخصومة.. وأما الخصام فهو مصدر من قول القائل: خاصمت فلاناً خصاماً ومخاصمة. وهذا خبر من الله تبارك وتعالى عن المنافق الذي أخبر نبيه محمداً ﷺ أنه يعجبه إذا تكلم قيله ومنطقه، ويستشهد الله على أنه محق في قبله ذلك، لشدة خصومته وجداله بالباطل والزور من القول.

[٢] قال النووي رحمه الله: قوله ﷺ: «**أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**» هو بفتح الخاء وكسر الصاد، والألد: شديد الخصومة مأخوذ من لديدي الوادي وهما جانباه، ولأنه كلما احتج عليه بحجة أخذ في جانب آخر وأما الخصم فهو الحاذق بالخصومة والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حق أو إثبات باطل والله أعلم.

وقال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (٨/ ٢٦١٢): قوله: «**الألد الخصم**»: قال التوربتشي الألد الشديد الخصومة والأصل في الألد الشديد اللديد وهو صفحة العنق وذلك لما لا يمكن صرفه عما يريده والخصم المختص بالخصومة، فالأول منبىء عن الشدة والثاني عن الكثرة. أقول: هذا إذا قيد الألد بالخصومة قراراً

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٥٢٣) و(٧١٧٨) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٦٨).

وللترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «**كفى بك إثماً أن لا تزال مخاصماً**»[1].

عن التكرار وإذا ترك على أصله يكون المعنى أنه شديد في نفسه بليغ في خصومته فلا يلزم التكرار، وعليه قوله تعالى: ﴿**وهو ألد الخصام**﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (١٩٩٤) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن الترمذي برقم (٣٤١) والضعيفة برقم (٤٠٩٦).

١٩ ـ باب من هابه الناس خوفاً من لسانه

وقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ [الهُمَزة: الآية ١] [١].

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من وَدَعَه الناس ـ أو تركه ـ الناس اتقاء فحشه**» [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١٢/ ٦٨٦):

يعني تعالى ذكره بقوله ﴿**ويل لكل همزة**﴾ الوادي يسيل من صديد أهل النار وقيحهم ﴿**لكل همزة**﴾ يقول: لكل مغتاب للناس يغتابهم ويبغضهم. . . ويعني باللمزة: الذي يعيب الناس ويطعن فيهم.

[٢] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

في الحديث مداراة من يتقي فحشه وجواز خيبة الفاسق المعلن فسقه ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه.

وقال الإمام ابن حجر رحمه الله (١٠/ ٥٥٨ فتح):

قوله: «**اتقاء شره**» أي قبح كلامه لأن المذكور كان من جفاة العرب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٣١٣٢ و٦٠٥٤ و٦١٣١) ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠٢) برقم (٢٥٩١).

٢٠ ـ باب البذاء والفحش

وقـول الله تـعــالــى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٧٢] [١].

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**ليسَ المؤمنُ بالطعانِ وَلاَ اللعانِ**

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٨٠٢):

﴿**والذين لا يشهدون الزور**﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس، المشتملة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك. وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلة في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية، ﴿**وإذا مروا باللغو**﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية، ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿**مروا كراماً**﴾ أي: نزهوا أنفسهم، وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا أن الخوض فيه، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربأوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿**وإذا مروا باللغو**﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره، ولا سماعه، ولكن عند المصادفة، التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

ولاَ الفاحش ولا البذيء» حسنهُ الترمذي[(1)] [١].

وله وصححه عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: **«مَا مِنْ شيءٍ أثقلَ في ميزانِ المؤمن يومَ القيامةِ مِنْ حسنِ الخلقِ، وإنَّ الله يبغضُ الفاحِشَ البذيءَ الذي يَتَكَلَّمُ بالفحشِ»**[(2)] [٢].

---

[١] قال العلامة الجيلاني رحمه الله في فضل الله الصمد (١/ ٤١١):

«البذيء»: البذاء الفحش في القول فالفحش الأول في الفعال، قال الجوهري: هو التكلم بكلام لا ينفع، وقال القاري: هو الذي لا حياء له.

وقال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٠/ ٥١٧٧):

«ليس المؤمن بالطعّان» أي الوقاع في أعراض الناس بنحو ذم أو غيبة، قال ابن العربي، وإنما سماه طعنا لأنه سهام الكلام كسهام النصال حسّاً، وجرح اللسان كجرح اليد **«ولا اللعان»** أي الذي يكثر لعن الناس بما يبعدهم من رحمة ربهم، إما صريحاً كأن يقول: لعنة الله على فلان أو كناية كغضبه عليه أو أدخله النار ذكره الطيبي **«ولا الفاحش»** أي ذي الفحش في كلامه وفعاله، قال ابن العربي: والفحش الكلام بما يكره سماعه مما يتعلق بالدين **«ولا البذيء»** أي الفاحش من منطقه وإن كان الكلام صدقاً.

[٢] قال الإمام المباركفوري رحمه الله في تحفة الأحوذي (٦/ ١٣٠):

قوله: **«ما من شي»** أي ثوابه أو صحيفته أو عينه المجسد، **«من خلق حسن»** فإنه تعالى يحبه ويرضى عن صاحبه **«فإن الله يبغض الفاحش»** الذي يتكلم بما يكره سماعه، أو من يرسل لسانه بما لا ينبغي **«البذيء»** قال المنذري في الترغيب: البذيء بالذال المعجمة ممدوداً هو المتكلم بالفحش ورديء الكلام.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (١٩٧٧) وأحمد في المسند (١/ ٤٠٥، ٤١٦) والحاكم في المستدرك (١/ ١٢) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (٣٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٠٠٢) وأبو داود في سننه برقم (٤٧٩٩) وأحمد في المسند (٦/ ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥١) مختصراً وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (٨٧٦).

ولمسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً: **«إنَّ الرفقَ لاَ يكونُ في شيءٍ إلاَّ زانهُ، ولاَ ينزَعُ من شيءٍ إلاَّ شانه»**(١) [١].

وللترمذي وحسنه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: **«ألا أخبركُمْ بمنْ يُحرَّمُ على النَّار وتحرم عليه النَّارُ؟ تُحرَّمُ على كلِّ قريبٍ هينٍ سهلٍ»**(٢) [٢].

وقال في النهاية: البذاء بالمد: الفحش في القول. . . قال القاري: ومن المقرر أن كل ما يكون مبغوضاً لله ليس له وزن وقدر، كما أن كل ما يكون محبوباً له يكون عنده عظيماً، قال تعالى من حق الكفار: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٥] وفي الحديث المشهور: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»** وبهذا تمت المقابلة بين القرينتين. انتهى.

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ٢٨٥):

في الحديث الحث على أن يكون الإنسان رفيقاً في جميع شؤونه، رفيقاً في معاملة أهله، وفي معاملة إخوانه، وفي معاملة أصدقائه، وفي معاملة عامة الناس يرفق بهم، فإن الله تعالى رفيق يحب الرفق ولهذا فإن الإنسان إذا عامل الناس بالرفق يجد لذة وانشراحاً وإذا عاملهم بالشدة والعنف ندم، ثم قال ليتني لم أفعل، لكن بعد أن يفوت الأوان، أما إذا عاملهم بالرفق واللين والأناة انشرح صدره، ولم يندم على شيء فعله. وفق الله الجميع لما فيه الخير والصلاح وحسن الأخلاق والآداب.

[٢] قال الحافظ المناوي رحمه الله في فيض القدير (٥/ ٢٤١٠):

«ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار» أي: دخول نار جهنم **«على كل هين»** مخففاً من الهون بفتح الهاء وهو السكينة والوقار **«لين»** مخفف لين بالتشديد على فعيل من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠٤) برقم (٢٥٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٤٨٨) وابن حبان في صحيحه برقم (٤٧٠) والطبراني في معجمه برقم (١٠٥٦٢) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (٩٣٨).

ولمسلم عن جرير رضي الله عنه مرفوعاً: «**مَنْ يُحرمِ الرفق يحرم الخير كلَّهُ**»(١) [١].

اللين ضد الخشونة «**قريب**» أي إلى الناس «**سهل**» يقضي حوائجهم وينقاد للشارع في أمره ونهيه.

قال الماوردي: بين بهذا الحديث أن حسن الخلق يدخل صاحبه الجنة ويحرمه على النار فإن حسن الخلق عبارة عن كون الإنسان سهل العريكة، لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة، كما سبق، لكن لهذه الأوصاف حدود مقدرة في مواضع مستحقة فإن تجاوز بها الخير صارت ملقاً وإن عدل بها عن مواضعها صارت نفاقاً، والملق: ذل، والنفاق لؤم.

[١] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١١/٦٠٥٨):

«**من يحرم**» من الحرمان «**الرفق**» ضد العنف «**يحرم الخير كله**» بالبناء للمجهول أي صار محروماً من الخير، وهو الخير الحاصل من الرفق وفيه فضل الرفق وشرفه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢٠٠٣) برقم (٢٥٩٢).

٢١ ـ باب ما جاء في الكذب

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝١٠٥﴾ [النحل: الآية ١٠٥] [١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ [الجاثية: الآية ٧] [٢].

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**إنَّ الصدقَ يهدي إلى البرّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة وإنَّ الرجُلَ ليصدقُ ويتحرى الصدق حتَّى يُكتب عند الله صديقاً، وإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار، وإنَّ الرجُلَ**

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٧/ ٦٥٠):

... ثم أخبر تعالى ذكره المشركين الذين قالوا للنبي ﷺ: إنما أنت مفتر أنهم هم أهل الفرية والكذب لا نبي الله ﷺ والمؤمنون به وبرأ من ذلك نبيه ﷺ وأصحابه، فقال: إنما يتخرص الكذب ويتقول الباطل الذين لا يصدقون بحجج الله وإعلامه، لأنهم لا يرجون على الصدق ثواباً، ولا يخافون على الكذب عقاباً، فهم أهل الإفك وافتراء الكذب، لا من كان راجياً من الله على الصدق الثواب الجزيل، وخائفاً على الكذب العقاب الأليم. وقوله: ﴿**وأولئك هم الكاذبون**﴾ يقول: والذين لا يؤمنون بآيات الله هم أهل الكذب لا المؤمنون.

[٢] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١١/ ٢٥٤):

يقول تعالى ذكره: الوادي السائل من صديد أهل جهنم، لكل كذاب ذي إثم بربه، مفتر عليه.

ليكذبُ ويتحرى الكَذب حتَّى يكتبَ عند الله كذَّاباً»[1] [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (١/ ٢٦٨ وما بعدها):

قوله: «**عليكم بالصِّدق**»... أي: ألزموا الصدق والصِّدْق مُطَابقة الخبر للواقع. وقد سبق في حديث كعب وصاحبيه ما يدلُّ على فضيلة الصِّدق وحُسْن عاقبته وأنَّ الصَّادق هو الذي له العاقبة والكاذب هو الذي يكون عمله هباءً. ولهذا يُذكر أنَّ بعض العامَّة قال: إنَّ الكَذِب يُنَجِّي فقال لهُ أخُوه: الصِّدْقُ أنجىٰ وأنْجىٰ. وهذا صحيح.

واعلم أنَّ الخبر يكون باللِّسان ويكون بالأركَان.

أما باللِّسان فهو القول وأما بالأرْكان فهو الفعل، ولكن يكون الكذب بالفعل!! إذا فعل الإنسان خلاف ما يُبْطن فهذا قد كذب بفعله، فالمنافق مثلاً كاذب لأنَّه يظهر للنَّاس أنه مؤمن يُصَلِّي مع الناس ويصوم مع الناس ويتصدَّق ولكنه بخيل. وربما يحجُّ، فمن رأى أفعاله حكم عليه بالصَّلاح، ولكن هذه الأفعال لا تنبىء عما في الباطن فهي كذب.

ولهذا نقول الصِّدق يكون باللِّسان وبالأركان. فمتى طابق الخبر الواقع فهو صِدْقَ وهذا باللِّسان ومتى طابقت أعمال الجوارح مَا فِي القلب فهي صِدْق وهذا صدق بالأقوال.

ثم بيَّن النبي عليه الصلاة والسلام عندما أمر بالصِّدق بيَّن عاقبته فقال: «**إنَّ الصِّدق يَهْدي إلى البر وإن البر يهْدي إلى الجَنَّة**».

البرّ كَثْرة الخير ومنه من أسماء الله البَرّ أي كثير الخير والإحسان عز وجل.

والبر من نتائج الصِّدق وقوله: «**وإنَّ البر يَهْدي إلى الجَنَّة**» فصَاحب البر ـ نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم ـ يَهْديه بِرُّه إلى الجنة والجنة غاية كل مطلب.

ولهذا يُؤمر الإنسان أن يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النَّار ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٠٩٤) ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١٢) برقم (٢٦٠٧).

. . . .

وقوله: **«إنَّ الرَّجُل ليَصْدق حتَّى يُكْتب عندَ الله صدِّيقاً»** وفي رواية: **«ولا يزال الرَّجلُ يصْدُق ويتَحرَّى الصِّدق حتَّى يُكْتب عندَ الله صِدِّيقاً»**.

الصِّديق في المرتبة الثَّانية من الخلق من الذين أنعم الله عليهم كما قال الله سبحانه ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النِّساء: الآية ٦٩] فالرجل الذي يتحرى الصدق يكتب عند الله صِدِّيقاً ومعلوم أن الصِّديقية درجة عظيمة لا ينالها إلا أفذاذ من الناس.

وتكون في الرِّجال وتكون في النِّساء قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المَائدة: الآية ٧٥].

وأفضل الصِّديقين على الإطلاق أصدقهم، وهو أبو بكر رضي الله عنه.

عبد الله بن عثمان بن أبي قُحافة الذي استجاب للنَّبي ﷺ حين دعاه إلى الإسلام ولم يحصل عنده أيّ ترَدُّد وأي توقف بمجرد مَا دَعاه الرسول إلى الإسلام أسْلم.

وصدّق النبي ﷺ حين كذبه قومه، وصدّقه حين تحدث عن الإسراء والمعراج وكذَّبه الناس وقالوا كيف تذهب يا محمد من مكة إلى بيت المقدس وترجع في ليلة واحدة ثم تقول إنك صعدت إلى السماء هذا لا يمكن.

ثم ذهبوا إلى أبي بكر وقالوا لهُ: أمَا تَسْمَعُ ما يقول صاحبك قال: ماذا قال؟ قالوا: إنَّه قال كذا وكذا قال: **«إنْ كانَ قَدْ قال ذلك فقد صَدق»**، فمنذ ذلك اليوم سُمِّي الصِّديق رضي الله عنه.

وأما الكذب فإنه قال: **«وإياكم والكذب»**.

«إياكم» للتحذير أي احذروا الكذب، وهو الإخبار بما يُخَالف الواقع سواء كان بالقول أو بالفعل.

فإذا قال قائل: ما اليوم؟ فقلت اليوم يوم الخميس أو يوم الثلاثاء فكذب لأنه لا يُطَابق الواقع لأن اليوم الأربعاء.

والمنافق كاذب لأن ظاهره يدلُّ على أنَّه مسلم وهو كافر فهو كاذب بفعله.

وقوله: **«وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور»** الفجور الخروج عن طاعة الله لأن

. . . .

الإنسان يفسق ويتعدَّى طوره، ويخرج عن طاعة الله إلى معصيته وأعظم الفجور الكفر.

فإن الكَفَرة فَجَرة كما قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عَبَسَ: الآية ٤٢] وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾ [المطففين: الآيات ٧-١١] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: الآية ١٤].

فالكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار.

وقوله **«وإن الرَّجُل ليَكْذِب»** وفي لفظ: **«لا يزالُ الرَّجل يكْذِب ويتَحَرى الكَذِب حَتَّى يُكْتَبَ عند الله كَذَّاباً»** والكَذِب من الأمور المحرمة بل قال بعض العلماء: إنَّه من كبائر الذُّنوب لأنَّ الرسول ﷺ توعَّده بأنَّه يُكْتب عند الله كذاباً.

ومن أعظم الكذب: ما يفعله النَّاس اليوم يأتي بالمقَالة كاذباً لكن من أجْل أن يضحك الناس.

وقد جاء في الحديث الوعيد على هذا فقال الرسول عليه الصَّلاة والسلام: **«ويلٌ لِمَنْ حَدَّثَ فَكَذبَ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْم ويلٌ لهُ ثُمَّ ويلٌ لهُ»**[1] وهذا وعِيدٌ على أمْر سهل عند كثير من الناس.

فالكذب كله حرام وكله يَهدي إلى الفجور ولا يُسْتثني منه شيء.

ورد في الحديث[2] أنَّه يستثنى من ذلك ثلاثة أشياء؛ في الحرب والإصلاح بين الناس وحَديثُ المرأة زَوجها وحديثه إيَّاها.

ولكن بعض أهل العلم قال: إنَّ المراد بالكذب في هذا الحديث التَّورية وليس الكذب الصريح.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم (٤٩٩٠) كتاب الأدب. والترمذي في سننه رقم (٢٣١٥) كتاب الزهد وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود برقم (٤١٧٥).

(٢) وهو حديث أم كلثوم بنت عقبة قالت: «ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: الحربُ، والإصلاحُ بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها» أخرجه مسلم في صحيحه رقم (٢٦٠٥) كتاب البر والصلة.

وفي الموطأ عنه: «**لاَ يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ، فينكتُ في قلبِهِ نكتةٌ سوداءُ حتَّى يسود قلبهُ فيكتبَ عند الله من الكاذبين**»[١].

وفيه عن صفوان بن سليم قال: قيل لرسول الله: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «**نعمْ**». قيلَ: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قالَ: «**نَعم**». قيلَ: أيكونُ المؤمنُ كذَّاباً؟ قال: «**لاَ**»[٢].

وللترمذي وحسنهُ عن ابن عمرَ: «**إذَا كذب العبد تباعدَ عنهُ الملك ميلاً مِن نَتْنِ مَا جَاءَ بِهِ**»[٣].

وقال: التَّورية قد تُسَمَّى كذباً كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيﷺ قال: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتين فيهن في ذات الله تعالى، قوله: إني سقيم وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة**..» الحديث[٤] وهو لم يكذب وإنما ورى تورية هو فيها صادق.

وسواء كان هذا أو هذا فإن الكذب لا يجوز إلاَّ في هذه الثَّلاث على رأي كثير من أهل العلم.

وأشدُّ شيء في الكذب أن يكذب ويحلف ليأكل أموال الناس بالباطل، مثل أن يُدَّعى عليه بحق ثابت فينكر ويقول والله مَا لَك عليَّ حق، أو يَدَّعي ما ليس له فيقول: لي عندك كذا وكذا وهو كاذب، فهذا إذا حَلَفَ على دعواه وكذب فإن ذلك هو اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم تغمسه في النار والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠) برقم (١٨) موقوفاً على ابن مسعود.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠) برقم (١٩) وإسناده مرسل. قال ابن عبد البر: لا أحفظه مسنداً من وجه ثابت.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه برقم (١٩٧٢) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن الترمذي برقم (٣٣٧) والضعيفة برقم (١٨٢٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه،رقم (٣٣٥٧، ٣٣٥٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم في صحيحه، رقم (٢٣٧١) كتاب الفضائل.

. . . .

وثبت عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يمين صَبْرٍ هُو فيها فَاجِر يَقْتَطع بها مَال امرِىء مُسْلم لَقِي الله وهُو علَيْه غَضْبان**»[1] فالحاصل أن الكذب حرام ولا يجوز للإنسان أن يكذب مطلقاً إلا على المسائل الثّلاث على الخلاف السّابق.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور برقم (٦٦٧٦) ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان برقم (١٣٨).

٢٢ ـ باب ما جاء في إخلاف الوعد

وقول الله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: الآية ٧٧] [١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**» أخرجاه[(١)].

ولهما عن ابن عمر مرفوعاً: «**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[(٢)] [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٦/ ٤٢٤):

يخبر تعالى ذكره عن عقوبة هؤلاء المنافقين الذين عاهدوا الله على الصدقة ثم بخلوا وأدبروا عن عهدهم **﴿فأعقبهم﴾** الله **﴿نفاقاً في قلوبهم﴾** ببخلهم بحق الله الذي فرضه عليهم فيما آتاهم من فضله وإخلافهم الوعد الذي وعدوا الله، ونقضهم عهده في قلوبهم **﴿إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾** من الصدقة والنفقة في سبيله **﴿وبما كانوا يكذبون﴾** في قيلهم، وحرمهم التوبة منه لأنه جل ثناؤه اشترط في نفاقهم أنه أعقبهموه إلى يوم يلقونه، وذلك يوم مماتهم وخروجهم من الدنيا.

[٢] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥) ومسلم في صحيحه (١/ ٧٨) برقم (٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٣٤ و٢٤٥٩ و٣١٧٨).

. . . .

(٧/ ٥٠ وما بعدها):

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«آية المنافق ثلاث»** آيته يعني علامته ثلاث **«إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»** يعني أن هذه من علامات المنافقين.

إذا رأيت الرجل يكذب إذا حدث، ويخلف إذا وعد، ويخون إذا اؤتمن، فهذه من علامات المنافقين، لأن أصل المنافق مبني على التورية والستر، يستر الخبيث ويظهر الطيب، يستر الكفر ويظهر الإيمان.

والكاذب كذلك يخبر بخلاف الواقع، والواعد الذي يعد ويخلف كذلك، وكذلك الذي يخون إذا اؤتمن فهذه علامات النفاق والعياذ بالله.

وفي هذا التحذير من الكذب وأنه من علامات المنافقين، فلا يجوز للإنسان أن يكذب، لكن إن اضطر إلى التورية وهي التأويل فلا بأس؛ مثل أن يسأله أحد عن أمر لا يحب أن يطلع عليه غيره فيحدث بشيء خلاف الواقع، لكن يتأول فهذا لا بأس به.

وأما إخلاف الوعد فحرام، يجب الوفاء بالوعد سواء وعدته مالاً، أو وعدته إعانة تعينه في شيء، أو أي أمر من الأمور إذا وعدت فيجب عليك أن تفي بالوعد.

وفي هذا ينبغي للإنسان أن يحدد المواعيد ويضبطها فإذا قال لأحد إخوانه: أواعدك في المكان الفلاني، فليحدد الساعة الفلانية حتى إذا تأخر الموعود وانصرف الواعد يكون له عذر، حتى لا يربطه في المكان كثيراً.

وقد اشتهر عند بعض السفهاء أنهم يقولون: أنا أواعدك ولا أخلفك؛ وعدي إنجليزي، يظنون أن الذين يوفون بالوعد هم الإنجليز، ولكن الوعد الذي يُوفى به هو وعد المؤمن، ولهذا ينبغي لك أن تقول إذا وعدت أحداً وأردت أن تؤكد: إنه وعد مؤمن، حتى لا يخلفه، لأنه لا يخلف الوعد إلا المنافق.

«وإذا اؤتمن خان» يعني إذا ائتمنه الناس على أموالهم أو على أسرارهم أو على أولادهم أو على أي شيء من هذه الأشياء، فإنه يخون والعياذ بالله، فهذه أيضاً من علامات النفاق.

. . . .

وأما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ففيه: **«أربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها»** المراد به أن هذه الأربع لا تجتمع إلا في المنافق الخالص، وإن كان المؤمن قد يحصل له واحدة منها، لكنه لا يكون منافقاً خالصاً، بل يكون فيه خصلة من نفاق حتى يدعها.

وهذه الأربع هي:

«إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب» وسبق الكلام على هاتين الجملتين.

والثالثة: قال: **«وإذا عاهد غدر»** ـ وهو قريب من قوله فيما سبق **«إذا وعد أخلف»** ـ أي إذا عاهد أحداً غدر به، ولم يف بالعهد الذي عاهده عليه.

والرابعة: **«إذا خاصم فجر»** الخصومة: هي المخاصمة عند القاضي ونحوه، فإذا خاصم فجر. والفجور في الخصومة على نوعين:

أحدهما: أن يدعي ما ليس له.

والثاني: أن ينكر ما يجب عليه.

مثال الأول: ادعى شخص على آخر فقال عند القاضي: أنا أطلب من هذا الرجل ألف ريال ـ وهو كاذب ـ وحلف على هذه الدعوى، وأتى بشاهد زور، فحكم له القاضي، فهذا خاصم ففجر، لأنه ادعى ما ليس له، وحلف عليه.

مثال الثاني: أن يكون عند شخص ألف ريال فيأتيه صاحب الحق فيقول: أوفني حقي، فيقول: ليس لك عندي شيء، فإذا اختصما عند القاضي ولم يكن للمدعي بينة، حلف هذا المنكر الكاذب في إنكاره أنه ليس في ذمته له شيء، فيحكم القاضي ببراءته، فهذه خصومة فجور والعياذ بالله، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«من حلف على يمينِ صبر ليقتطع بها حق امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»**[1] نعوذ بالله.

وهذه الخصال الأربع إذا اجتمعت في المرء كان منافقاً خالصاً، لأنه استوفى خصال النفاق والعياذ بالله، وإذا كان فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٦٧٦) كتاب الإيمان والنذور. ومسلم رقم (١٣٨) كتاب الإيمان.

. . . .

وفي هذا الحديث دليل على التحذير البليغ من هذه الصفات الأربع: الخيانة في الأمانة، والكذب في الحديث، والغدر بالعهد، والفجور في الخصومة.

وفيه أيضاً دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال نفاق لقوله: **«كان فيه خصلة من النفاق»**، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، أن الإنسان يكون فيه خصلة نفاق، وخصلة إيمان، وخصلة فسوق، وخصلة عدالة، وخصلة عداوة، وخصلة ولاية، يعني أن الإنسان ليس بالضرورة أن يكون كافراً خالصاً أو مؤمناً خالصاً، بل قد يكون فيه خصال من الكفر وهو مؤمن، وخصال من الإيمان.

وقال العلامة السعدي رحمه الله في كتابه بهجة قلوب الأبرار (ص ١٨ وما بعدها):

النفاق أساس الشر. وهو أن يظهر الخير، ويبطن الشر.

هذا الحدُّ يدخل فيه النفاق الأكبر الاعتقادي، الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر. وهذا النوع مُخرج من الدين بالكلية، وصاحبه في الدَّرك الأسفل من النار.

وقد وصف الله هؤلاء المنافقين بصفات الشر كلها: من الكفر، وعدم الإيمان، والاستهزاء بالدين وأهله، والسخرية منهم، والميل بالكلية إلى أعداء الدين؛ لمشاركتهم لهم في عداوة دين الإسلام. وهم موجودون في كل زمان، ولا سيما في هذا الزمان الذي طغت فيه المادية والإلحاد والإباحية.

والمقصود هنا: القسم الثاني من النفاق الذي ذكر في هذا الحديث. فهذا النفاق العملي ـ وإن كان لا يخرج من الدين بالكلية ـ فإنه دهليز الكفر. ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الأربع فقد اجتمع فيه الشر، وخلصت فيه نعوت المنافقين، فإن الصدق، والقيام بالأمانات، والوفاء بالعهود، والورع عن حقوق الخلق، هي جماع الخير، ومن أخص أوصاف المؤمنين.

فمن فقد واحدة منها فقد هدم فرضاً من فروض الإسلام والإيمان، فكيف بجميعها؟

فالكذب في الحديث يشمل الحديث عن الله، والحديث عن رسول الله ﷺ الذي

. . . .

من كذب عليه متعمداً فليتبوأ مقعده من النار: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [الصَّف: الآية ٧]. ويشمل الحديث عما يخبر به من الوقائع الكلية والجزئية.

فمن كان هذا شأنه فقد شارك المنافقين في أخص صفاتهم، وهي الكذب الذي قال فيه النبي ﷺ: «**إيَّاكُمْ والْكَذِبَ، فإنَّ الكَذِبَ يذعو إلى الفُجور، وإنَّ الفُجورَ يذعو إلى النارِ، و لا يزالُ الرجُلُ يَكْذِبُ ويتحَرَّى الكذِبَ حتَى يُكْتَبَ عندَ الله كذَّاباً**»[1]، ومن كان إذا ائتمن على الأموال والحقوق والأسرار خانها، ولم يقم بأمانته، فأين إيمانه؟ وأين حقيقة إسلامه؟ وكذلك من ينكث العهود التي بينه وبين الله، والعهود التي بينه وبين الخلق، متصف بصفة خبيثة من صفات المنافقين. وكذلك من لا يتورع عن أموال الخلق وحقوقهم، ويغتنم فرصها، ويخاصم فيها بالباطل، ليثبت باطلاً، أو يدفع حقاً.

فهذه الصفات لا تكاد تجتمع في شخص، ومعه من الإيمان ما يجزي أو يكفي، فإنها تنافي الإيمان أشد المنافاة.

واعلم أن من أصول أهل السنة والجماعة: أنه قد يجتمع في العبد خصال خير وخصال شر، وخصال إيمان وخصال كفر أو نفاق. ويستحق من الثواب والعقاب بحسب ما قام به من موجبات ذلك.

وقد دل على هذا الأصل نصوص كثيرة من الكتاب والسنة. فيجب العمل بكل النصوص، وتصديقها كلها. وعلينا أن نتبرأ من مذهب الخوارج الذين يدفعون ما جاءت به النصوص: من بقاء الإيمان وبقاء الدين، ولو فعل الإنسان من المعاصي ما فعل، إذا لم يفعل شيئاً من المكفرات التي تخرج صاحبها من الإيمان. فالخوارج يدفعون ذلك كله، ويرون من فعل شيئاً من الكبائر ومن خصال الكفر أو خصال النفاق خارجاً من الدين، مخلداً في النار. وهذا مذهب باطل بالكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة.

---

(١) تقدم تخريجه.

٢٣ ـ باب ما جاء في زعموا

وقـول الله تـعـالـى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النُّور: الآية ١٥] [١].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحُجرَات: الآية ٦] [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٩/ ٢٨٥):

يقول تعالى ذكره: لمسكم فيما أفضتم فيه من شأن عائشة عذاب عظيم، حين تلقونه بألسنتكم. . . ويعني بقوله: ﴿**تلقونه**﴾ تتلقون الإفك الذي جاءت به العصبة من أهل الأفك فتقبلونه، ويرويه بعضكم عن بعض ﴿**وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم**﴾ يقول تعالى ذكره: وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم من الأمر الذي تروونه، فتقولون: سمعنا أن عائشة فعلت كذا وكذا ولا تعلمون حقيقة ذلك ولا صحته، ﴿**وتحسبونه هيناً**﴾ وتظنون أن قولكم ذلك وروايتكموه بألسنتكم وتلقيكموه بعضكم عن بعض، هين سهل لا إثم عليكم فيه ولا حرج ﴿**وهو عند الله عظيم**﴾ يقول: وتلقيكم ذلك كذلك، وقولكموه بأفواهكم، عند الله عظيم من الأمر، لأنكم كنتم تؤذون به رسول الله ﷺ وحليلته.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١١١٣):

وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بنبأ، أي: خبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال، بغير حق بسبب ذلك

عن ابن مسعود أو حذيفة ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «**بئس مطية الرجل زعموا**»(1) رواه أبو داود بسند صحيح [١].

ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع**»(2) [٢].

الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند سماع خبر الفاسق التثبت والتبين. فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كُذِّب، ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه، ولهذا السبب كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج المعروفين بالصدق ولو كانوا فساقاً.

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (٢/ ٦٢٣):

يعني لو لم يكن للرجل كذب إلا تحديثه بكل ما سمع ـ من غير تبينه أنه صدق أو كذب، لأن جميع ما يسمع الرجل لا يكون صدقاً، بل يكون بعضه كذبا. وهذا زجر عن التحدث بشيء لم يعلم صدقه، بل يلزم على الرجل أن يبحث في كل ما سمع من الحكايات والأخبار، وخاصة من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، فإذا علم صدقه يتحدث، وإلاَّ فلا يتحدث.

[٢] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٩/ ٤٤٣٥):

«**كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع**» أي إذا لم يتثبت لأنه يسمع عادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع لا محالة يكذب، والكذب الإخبار عن الشيء على غير ما هو عليه وإن لم يتعمد، لكن التعمد شرط الإثم. وقال في لفظ الحديث الآخر «**كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما يسمع**» يعني لو لم يكن للرجل إثما إلا تحدثه بكل ما يسمعه من غير بينة أنه صدق أم كذب يكفيه من الإثم، لأنه إذا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٩٧٢) وأحمد في المسند (٥/ ٤٠١) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤١٥٩). والصحيحة برقم (٨٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٠١) برقم (٥) وأبو داود في سننه برقم (٤٩٩٢).

. . . .

تحدث بكل ما يسمعه لم يخلص من الكذب إذ جميع ما يسمع ليس بصدق بل بعضه كذب، فعليه أن يبحث ولا يتحدث إلا بما ظن صدقه فإن ظن كذبه حرم، وإن شك وقد أسنده لقائله وبين حاله برىء من عهدته، وإلا امتنع أيضاً، ومحل ذلك ما إذا لم يترتب عليه لحوق ضرر وإلا حرم، وإن كان صدقاً بل إن تعين الكذب طريقاً لدفع ذلك وجب.

٢٤ ـ باب ما جاء في الكذب والمزاح ونحوه

وقول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٧] [١].

عن أم كلثوم بنت عقبة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً: «**ليسَ الكذَّابُ الذي يصلحُ بين النَّاسِ فيقولُ خيراً أو ينمي خيراً**» أخرجاه(١).

ولمسلم: قالتْ: ولمْ أسمعه يرخص في شيء ممَّا يقولُ الناسُ، إلاَّ في ثلاثٍ: في الحرب، والإصلاح بينَ النَّاس، وحديث الرَّجُلِ امرأتَهُ، وحديث المرأةِ زوجَها(٢) [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١/ ٣٧٨): ﴿**قالوا اتتخذنا هزوا**﴾ و«الهزؤ» اللعب والسخرية، ولا ينبغي أن يكون من أنبياء الله. فيما أخبر عن الله من أمر أو نهي هزؤ أو لعب. فظنوا بموسى أنه في أمره إياهم ـ عن أمر الله تعالى ذكره بذبح البقرة عند تدارئهم في القتيل إليه ـ أنه هازىء لاعب. ولم يكن لهم أن يظنوا ذلك بنبي الله، وهو يخبرهم أن الله هو الذي أمرهم بذبح البقرة... فأخبرهم موسى ـ إذ قالوا ما قالوا ـ أن المخبر عن الله جل ثناؤه بالهزء والسخرية، من الجاهلين، وبرأ نفسه مما ظنوا به من ذلك فقال: ﴿**أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**﴾ يعني: من السفهاء الذين يروون عن الله الكذب والباطل.

[٢] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين: (٥/ ٤٣ وما بعدها):

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٦٩٢) ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١١) برقم (٢٦٠٥).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١٢) برقم (٢٦٠٥).

وعَن عبد الله بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قالَ: دعتني أمي يوماً ورسولُ الله ﷺ جَالسٌ في بيتِنَا. فقالت: هَا تَعالَ أعطِكَ. فقال رسولُ الله ﷺ: **«ومَا أردتِ أن**

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: **«ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً»** فالإنسان إذا قصد الإصلاح بين الناس وقال للشخص: إن فلاناً يثني عليك ويمدحك ويدعو لك وما أشبه ذلك من الكلمات، فإن ذلك لا بأس به.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة، هل المراد أن يكذب الإنسان كذباً صريحاً؟ أو أن المراد أن يورّي، بمعنى أن يظهر للمخاطب غير الواقع، لكنه له وجه صحيح، كأن يعني بقوله مثلاً: فلان يثني عليك أي على جنسك وأمثالك من المسلمين، فإن كل إنسان يثني على المسلمين من غير تخصيص.

أو يريد بقوله: إنه يدعو لك؛ أنه من عباد الله، والإنسان يدعو لكل عبد صالح في كل صلاة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«إنكم إذا قلتم ذلك»** ـ يعني قلتم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ـ **«فقد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض»**[1].

وقال بعضهم: إن التورية تعد كذباً، لأنها خلاف الواقع، وإن كان المتكلم قد نوى بها معنى صحيحاً، واستدلوا على ذلك بقول النبي ﷺ: **«إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعتذر عن الشفاعة بأنه كذب ثلاث كذبات في ذات الله»**[2] وهو لم يكذب عليه الصلاة والسلام، ولكنه ورّى.

وعلى كل حال فالإنسان المصلح ينبغي له أن يتحرز من الكذب، وإذا كان ولا بد فليتأول، ليكون بذلك مورّياً، والإنسان إذا كان مورّياً فلا إثم عليه فيما بينه وبين الله، والتورية جائزة عند المصلحة.

أما اللفظ الثاني ففيه زيادة عن الإصلاح بين الناس، وهو الكذب في الحرب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (١٢٠٢) كتاب العمل في الصلاة، ومسلم في صحيحه، رقم (٤٠٢) كتاب الصلاة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (٣٣٥٧) كتاب الأنبياء، ومسلم في صحيحه، رقم (٢٣٧١) كتاب الفضائل.

تعطيهِ» قالت: أعطيهِ تمراً، فقالَ لَها رسولُ الله ﷺ: **«أمَا إنكِ لو لَمْ تُعطيهِ لكتبتْ عليكِ كذبةٌ»** رواه أحمد وأبو داود[(1)] [١].

ولأحمد عن أبي هريرة مرفوعاً: **«مَنْ قَالَ لصبي هَا تَعالَ أعطك ثُمَّ لَمْ يُعطهِ فهي كَذْبَةٌ»**[(2)].

ولَهُ عن أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ قُلتُ: يا رسولَ الله، إنْ قالتْ

والكذب في الحرب هو أيضاً نوع من التورية مثل أن يقول للعدو: إن ورائي جنوداً عظيمة وما أشبه ذلك من الأشياء التي يرهب بها الأعداء.

وتنقسم التورية في الحرب إلى قسمين:

قسم في اللفظ، وقسم في الفعل. مثل ما فعل القعقاع بن عمرو رضي الله عنه في إحدى الغزوات، فإنه أراد أن يرهب العدو فصار يأتي بالجيش في الصباح ثم يغادر المكان ثم يأتي به في صباح يوم آخر وكأنه مدد جديد جاء ليساعد المحاربين المجاهدين، فيتوهم العدو أن هذا مدد جديد فيرهب ويخاف، وهذا جائز للمصلحة.

أما المسألة الثالثة فهي أن يحدث الرجل زوجته وتحدث المرأة زوجها، وهذا أيضاً من باب التورية، مثل أن يقول لها: إنك من أحبِّ الناس إليَّ، وإني أرغب في مثلك، وما أشبه ذلك من الكلمات التي توجب الألفة والمحبة بينهما. ولكن مع هذا لا ينبغي فيما بين الزوجين أن يكثر الإنسان من هذا الأمر، لأن المرأة إذا عثرت على شيء يخالف ما حدثها به، فإنه ربما تنعكس الحال وتكرهه أكثر مما كان يتوقع، وكذلك المرأة مع الرجل.

[١] قال العظيم آبادي رحمه الله في عون المعبود (١٣/ ١٦٧):

«دعتني» أي طلبتني وأنا صغير... «وما أردت» أي أي شيء نويت... وفي الحديث أن ما يتفوه به الناس للأطفال عند البكاء مثلاً بكلمات هزلاً أو كذباً بإعطاء شيء أو بتخويف من شيء حرامٌ داخل في الكذب.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٩٢) وأحمد في المسند(٣/ ٤٤٧) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤١٧٦) والصحيحة برقم (٧٤٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٥٢) وهو في الصحيحة (٢/ ٣٧٤).

إحدانا لشيءٍ تشتهيهِ لا أشتهيهِ، أيعدُّ ذلكَ كَذِباً؟ قال: «**نَعْم إنَّ الكذبَ يكتب كذباً حتَّى تُكتبَ الكذيبة كذيبة**»(١).

وللترمذي وحسنهُ مرفوعاً: «**وَيلٌ للذي يُحَدث بالحديثِ ليضحكَ بِهِ القومَ فيكذبُ. ويلٌ لهُ ويلٌ لَهُ**»(٢) [١].

---

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٢/ ٦٣٤١):

«**ويل للذي يحدث فيكذب**» في حديثه «**ليضحك به القوم، ويل له، ويل له**» كرره إيذانا بشدة هلكته، وذلك لأن الكذب وحده رأس كل مذموم، وجماع كل فضيحة، فإذا انضم إليه استجلاب الضحك الذي يميت القلب، ويجلب النسيان، ويورث الرعونه، كان أقبح القبائح، ومن ثم قال الحكماء: إيراد المضحكات على سبيل السخف نهاية القباحة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٣٨) والطبراني في معجمه (٢٤/ ١٥٥) برقم (٤٠٠).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٤٢١) وأبو داود في سننه برقم (٤٩٩٠) وأحمد في المسند (٥/ ٥، ٧) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤١٧٥).

٢٥ ـ باب ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه

وقول الله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٠][١].

وروى الإمام أحمدُ عن أبي داودَ عن شعبةَ عن قيس بن مسلم أنهُ سمعَ طارق بن شهابٍ يحدثُ عن عبد الله يقول: «إنَّ الرَّجلَ ليخرجُ من بيتهِ ومعهُ دينُهُ فيلقَى الرَّجُلَ ولَهُ إليهِ حاجةٌ، فيقولُ لهُ: أنتَ كيتَ وكيت، يُثني عليهِ لعلَّهُ أن يقضيَ مِنْ حَاجَتِهِ شيئاً، فيسخطُ الله عليهِ، فيرجعُ ومَا مَعهُ من دِينِهِ شيءٌ»(١).

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٩/ ١٤٤):

وقوله: ﴿**واجتنبوا قول الزور**﴾ يقول تعالى ذكره: واتقوا قول الكذب والفرية على الله بقولكم في الآلهة: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُمَر: الآية ٣] وقولكم للملائكة: هي بنات الله، ونحو ذلك من القول، فإن ذلك كذب وزور وشرك بالله.

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٩/ ١١٢) برقم (٨٥٦٢) بنحوه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١١٨): رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح.

٢٦ ـ باب ما جاء
في النهي عن كون الإنسان مداحاً

وقــول الله تــعــالــى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: الآية ٤٩] [١].

ولمسلم عن المقداد ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رجلاً جعلَ يمدحُ عثمان. فجثى المقدادُ على ركبتيهِ فجعَلَ يحثو في وجههِ التراب، فقالَ لهُ عثمانُ ـ رضي الله عنه ـ: ما شأنُك؟ قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إذَا رأيتُم المداحينَ فاحثُوا في وجوهِهِمُ التُّرابَ**»(١) [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٤/ ١٢٩):

يعني بذلك جل ثناؤه: ألم تر يا محمد بقلبك الذين يزكون أنفسهم من اليهود فيبرئونها من الذنوب ويطهرونها... وأنهم لله أبناء وأحباء من اليهود والنصارى، المبرئيها من الذنوب، يقول الله لهم: ما الأمر كما زعمتم أنه لا ذنوب لكم ولا خطايا، وأنكم برآء، مما يكرهه الله، ولكنكم أهل فرية وكذب على الله، وليس المزكى من زكى نفسه، ولكنه الذي يزكيه الله، والله يزكي من يشاء من خلقه فيطهره ويبرئه من الذنوب، بتوفيقه لاجتناب ما يكرهه من معاصيه، إلى ما يرضاه من طاعته.

[٢] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

هذا الحديث قد حمله على ظاهره المقداد الذي هو راوية ووافقه طائفة، وكانوا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٧) برقم (٣٠٠٢).

وفي المسند عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**إِيَّاكُمْ والمدحَ، فإنَّهُ الذبحُ**»[1] [١].

يحثون التراب في وجهه حقيقة. وقال آخرون: معناه: خيبوهم فلا تعطوهم شيئاً لمدحهم.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٢/ ٦٠٥):

«**إذا رأيتم المداحين**» أي الذين صناعتهم الثناء على الناس والمدح كما في الصحاح الثناء الحسن، قال التبريزي: من قولهم تمدحت الأرض إذا اتسعت فكان معنى مدحته وسعته شكراً «**فاحثوا في وجوههم التراب**» الحثو في التراب بمنزلة الصب في الماء، والمراد زجر المادح، والحث على منعه من المدح لإيرائه الغرور والتكبر، أو أنه يخيب ولا يعطي أو معناه أعطوهم قليلاً، بشبه التراب لقلته وخسته، أو اقطعوا ألسنتهم بالمال فإنه شيء حقير كالتراب، وهذا يؤذن بذم الاحتراف، وقيل: لا تؤاخ شاعراً، فإنه يمدحك بثمن، ويهجوك مجاناً.

[١] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٥/ ٢٤٥٣):

«**إياكم والتمادح**» وفي رواية: والمدح «**فإنه الذبح**» لما فيه من الآفة في دين المادح والممدوح وسماه ذبحاً، لأنه يميت القلب فيخرج من دينه، وفيه ذبح للممدوح فإنه يغره بأحواله ويغريه بالعجب والكبر، ويرى نفسه أهلاً للمدحة سيما إذا كان من أبناء الدنيا، أصحاب النفوس وعبيد الهوى، وفي رواية: «**فإنه من الذبح**»، وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهو مهلك كالذبح فلذلك شبه به.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٩٢، ٩٣، ٩٨، ٩٩) وابن ماجه في سننه برقم (٣٧٤٣) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (١٢٨٤).

٢٧ ـ باب ما يمحق الكذب من البركة

٦١ ـ عن حكيم بن حزام رضيَ الله تعالى عنهُ مرفوعاً: **«البيعانِ بالخيارِ مَا لَمْ يتفرقا، فإنْ صدقا وبينا بوركَ لهما في بيعهمَا، وإنْ كذبا وكتما محقتْ بركةُ بيعهما»**(١) [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (١/ ٢٩٢ وما بعدها):

قوله ﷺ: **«البَيِّعان»** أي البائع والمُشتري، وأطلق عليهما اسم البَيِّع من باب التَّغليب كما يقال: القمران للشمس والقمر، والعُمران لأبي بكر وعمر.

وقوله: **«بالخيار»** أي كل منهما يختار ما يريد ما لم يتفرّقا أي ما داما في مكان العقد لم يتفرَّقا فإنهما بالخيار.

ومثاله: رجل باع على آخر سيارة بعشرة آلاف فما داما في مكان العقد ولم يتفرَّقا فهما بالخيار إن شاء البائع فسَخَ البيع، وإن شاء المشتري فسخ البيع، وذلك من نعمة الله سبحانه وتعالى وتوسيعه على العباد، لأن الإنسان إذا كانت السِّلعة عند غيره صارت غالية في نفسه يحب أن يَحصُل عليها بكل وسيلة، فإذا حَصُلت له فربما تَزُول رغبته عنها، لأنه أدركها فجعل الشَّارع له الخيار لأجل أن يَتَرَوّى ويتزوّد بالتأني والنَّظر.

فما دام الرَّجلان لم يتفرّقا فهما بالخيار وإن طال الوقت لعموم قوله: **«أو يُخَيِّر أَحَدُهُما الآخر»**(٢) أي أو يقول أحدهما للآخر الخيار لك وحدك، فحينئذٍ يكون الخيار

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٠٧٩، ٢٠٨٢، ٢١٠٨، ٢١١٠، ٢١١٤) ومسلم في صحيحه (٣/ ١١٦٤) برقم (١٥٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (١٥٣١ [٤٤]) كتاب البيوع.

. . . .

له وحده، والثَّاني لا خيار له: أو يقولا جميعاً لا خيار بَيْننا.

فالصُّور أربع:

١ ـ إمَّا أن يثبت الخيار لهما وذلك عند البيع المُطلق الذي ليس فيه شرط.

٢ ـ وإما أن يتبايعا على أن لا يكون الخيار لواحد مِنهما وحينئذ يلزم البيع لمجرد العقد ولا خيار لأحد.

٣ ـ وإما أن يتبايعا أن الخيار للبائع وَحْدَهُ دون المُشْتَرِي وهنا يكون الخيار للبائع والمشتري لا خيار له.

٤ ـ وإمَّا أن يَتَبَايعا على أن الخيار للمشتري والبائع لا خيار له وحينئذٍ يكون الخيار للمُشْتَري وليس للبائع خيار.

وذلك لأنَّ الخيار حق للبائع والمُشْتَري، فإذا رَضِينَا بإسْقاطه أو رَضِيَ أحدهما دون الآخر فالحق لهما لا يَعْدُوهما، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«المُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِم إلاَّ شَرْطاً أَحَلَّ حَرَاماً أَوْ حرَّم حَلالاً»**[1].

وقول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: **«ما لَمْ يتَفرقا»** لم يبيّن التَّفرق ولكن المراد التفرق بالبدن. فإن تفرقا بطل الخيار ولَزِم البيع. قال النبي ﷺ: **«فإنْ صَدَقا وبينا بُورِكَ لَهُما في بَيْعِهِما»** وهذا هو الشَّاهد من الحديث في الباب، لأنَّ الباب باب الصدق.

قوله: **«فَإِنْ صَدَقَا وبَيَّنَا»** إن صدقا فيما يَصِفان السِّلعة به من الصِّفات المرغوبة، وبيَّنا فيما يَصِفان به السِّلعة من الصِّفات المكروهة. فمثلاً لو باع عليه هذه السيَّارة وقال هذه السيَّارة جديدة موديلها كذا ونَظيفة ويمْدحُها بما ليس فيها، نقول: هذا كذب فيما قال، وإذا باعَهُ السيَّارة وفيها عَيْبٌ ولم يخبره بالعيب نقول هذا كتم ولم يبين والبركة في الصِّدق والبيان.

فالفرق بين الصدق والبيان أن الصدق فيما يكون مرغوباً من الصفَّات والبَيان فيما

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، تاب الأحكام، رقم (١٣٧٦) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (١٠٨٩).

. . . .

يكون مَكْروهاً من الصِّفات فكتمان العيب هذا ضد البيان ووصفه السِّلعة بما ليس فيها هذا ضد الصِّدق.

و مثال آخر باع عليه شاة وفيها مرض غير بيّن لكنه كَتَمه نقول هذا لم يبين. وإذا وصفها بما ليس فيها من الصِّفات المطلوبة فهذا قد كذب ولم يَصْدُق. ومنه ما يفعله بعض النَّاس الآن نسأل الله العافية يجعل الطيب من المال فوق والرَّديء أسْفَل، فهذا لم يبيّن ولم يَصْدُق. لم يبَيِّن لأنَّه مَا بيَّن التَّمر المعيب، ولم يصدق لأنَّه أظهر التمر بمظهر طيب وليس كذلك.

٢٨ ـ باب من تحلم ولم ير شيئاً

٦٢ ـ روى البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «**مَنْ تحلَّمَ بحلمٍ لمْ يَرهُ كُلِّفَ أن يعقد بين شعيرتينِ ولن يفعل**»[1] [١].

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٢/ ٥٢٩):

قوله: «**من تحلم**»: أي من تكلف «**بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل**» والمراد بالتكليف نوع من التعذيب.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١١/ ٥٧٣١):

«**ولن**» يقدر أن «**يعقد بينهما**» وأن اتصال أحدها بالأخرى غير ممكن عادة فهو يعذب حتى يفعل ذلك ولا يمكنه فعله فكأنه يقول: يكلف ما لا يستطيعه فيعذب عليه فهو كنايته عن تعذيبه على الدوام. . . . وإنما شدد الوعيد على ذلك مع أن الكذب في اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه إذ يكون شهادة من قتل أو حد لأن الكذب في النوم كذب على الله تعالى لأن الرؤيا جزء من النبوة وما كان من أجزائها فهو منه تعالى والكذب على الخالق أقبح منه على المخلوق.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٠٤٢).

٢٩ ـ باب ذكر مرض القلب وموته

وقول الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠] [١].

وقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٣٢):

وقوله: **﴿في قلوبهم مرض﴾** المراد بالمرض هنا: مرض الشك، والشبهات، والنفاق، وذلك أن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق، والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا، ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها، من مرض الشهوات، كما قال تعالى: **﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾** وهو شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: **﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾** بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: **﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾**، وقال تعالى: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾**، وقال تعالى: **﴿وأما الذين في قلوبهم رجس فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾**، فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: **﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾**.

﴿تَقۡتِيلٗا ٦١﴾ [الأحزاب: الآية ٦٠ ـ ٦١] [١].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المؤمنَ إذا أذنَبَ ذنباً كانتْ نكتةٌ سوداء في قلبهِ، فإن تابَ ونزعَ واستعتبَ صَقُل قلبهُ، وإنْ زادَ زادتْ حتَّى تعلوا قلبهُ، فذلكَ الرانُ الذي قالَ تعالى فيه: ﴿كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾** [المطفّفين: الآية ١٤]» رواه الترمذي. قال حسن صحيح[(١)] [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٩٢٥):

وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله: **﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾** أي مرض شك أو شهوة **﴿والمرجفون في المدينة﴾** أي المخوفون المرهبون الأعداء، المتحدثون بكثرتهم وقوتهم وضعف المسلمين. ولم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه، ليعم ذلك كل ما توحي به أنفسهم إليهم، وتوسوس به، وتدعو إليه من الشر، من التعريض بسبب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة، وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء. **﴿لنغرينك بهم﴾** أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ويسلطك عليهم: ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع. ولهذا قال: **﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا﴾** أي لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن نقتلهم أو تنفيهم.

وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر، وأبعد منه، ويكونون **﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقُتّلوا تقتيلا﴾** أي مبعدين حيث وجدوا لا يحصل لهم أمن، ولا يقر لهم قرار، يخشون أن يُقتلوا أو يحبسوا أو يعاقبوا.

[٢] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (٦/ ١٨٤٨):

قوله «**الران**»: أصل الرين الطبع والتغطية والران والرين سواء كالذام و الذيم والعاب والعيب، قال القاضي ناصر الدين: المعنى بالقصد الأول في التكليف بالأعمال

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣٣٣٤) وابن ماجه في سننه برقم (٤٢٤٤) وأحمد في المسند (٢/ ٢٩٧) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه رقم (٣٤٢٢).

وقال الأعمش: أرانا مجاهدٌ بيدهِ قال: كانُوا يرونَ أنَّ القلبَ في مثلِ هذا: يَعني الكفَّ فإذَا أذنبَ العبدُ ذنباً ضَمَّ منهُ بأصبعهِ الخنصرِ هكذا، فَإذا أذنبَ، ضَمَّ وقالَ بأصبعهِ الأخرى هكذا، فإذا أَذْنَبَ ضمَّ وقَالَ بإصبع آخر هكذا» حتى ضَمَّ أصابعهُ كلَّها قالَ ثُمَّ يُطبعُ عليهِ بطابعٍ، وكانوا يرونَ أن ذَٰلِكَ هُوَ الرَّانُ. رواه ابن جرير عن أبي كريب عَنْ وكيعٍ عنهُ بنحوهِ وعنْ مُجاهدٍ أيضاً قال: الرَّانُ أيسرُ من الطبعِ، والطَّبعُ أيسرُ مِنَ الإقفالِ.

وعنْ أبي سعيد رضي الله تعالى عنهُ قالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «**القلوبُ أربعة: قلبٌ أجردُ فيهِ مثلُ السراجِ يزهِرُ، وقلبٌ أغلفٌ مربوطٌ بغلافِه، وقلبٌ منكوسٌ، وقلبٌ مصفّحٌ، فأمَّا القلبُ الأجردُ فَقَلبُ المؤمِنِ، فسراجُهُ فيهِ نورٌ، وأمَّا القلب الأغلفُ فقلبُ الكافر، وأمَّا القلبُ المنكوسُ فقلبُ المنافق الخالص عرفَ الحقَّ ثُمَّ أنكرَ. وأمَّا القلبُ المصفَّح فقلبٌ فيهِ إيمانٌ ونفاقٌ ومثلُ الإيمانِ فيهِ كمثلِ البقْلَةِ يمدُّهَا الماءُ الطيبُ، ومَثَلُ النفاقِ فيهِ كمثلِ القرحَةِ يمدها القيحُ والدمُ فأيُّ المادتين غلبتْ على الأخرى غلبت عليه**»[1].

الظاهرة والأمر بمحاسنها والنهي عن مقابحها هو ما يكتسب النفس منها من الأخلاق الفاضلة، والهيئات الذميمة، فمن أذنب ذنباً أثر ذلك في نفسه، وأورث لها كدورة ما، فإن تحقق قبحه وتاب عنه، زال الأثر، وصارت النفس مصقولة صافية، وإن انهمك فيه، وأصر عليه زاد الأثر، وفشا في النفس، واستعلى عليها، وصار من أهل الطبع وقوله: «**فذلكم الران**» أي فذلك الأصر المستعلى ما أخبر الله تعالى وعبر عنه بقوله: «**ران على قلوبهم**» أي غلب واستولى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من الذنوب.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٧) والطبراني في معجمه الصغير (٢/ ١٠٩) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في تخريجه لكتاب الإيمان لابن تيمية (ص ٢٨٨).

٣٠ - باب ذكر الرضاء بالمعصية

روي عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قالَ: هَلكْتَ إن لَم يَعرِفْ قلبكَ المعروفَ وينكرِ المنكَرَ.

ولمسلم عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«مَا مِن نبيٍّ بَعثَهُ الله في أُمَّة قبلي إلاَّ كانَ له من أمتِه حواريونَ وأصحابٌ يأخذونَ بسنتِه، ويقتدونَ بأمرِه، ثمَّ إنَّهَا تخلفُ من بعدهم خلوفٌ يقولونَ مَا لا يفعلونَ، ويفعلونَ ما لا يُؤمرونَ، فمنْ جاهدهمْ بيدِهِ فهوَ مؤمنٌ، ومن جَاهدهمْ بلسانهِ فهوَ مؤمنٌ، ومَنْ جَاهدهُمْ بقلبهِ فهوَ مؤمنٌ وليسَ وراءَ ذلكَ مِنَ الإيمانِ حبَّةُ خردلٍ»**(1) [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية؛ إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف. ثم إنه قد يتعين كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف. قال العلماء رضي الله عنهم: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول، وكما قال الله عز وجل: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المَائدة: الآية ٩٩] ومثل العلماء هذا بمن يرى إنساناً في الحمام أو غيره مكشوف بعض العورة، ونحو ذلك، والله أعلم.

قال العلماء: ولا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال ممتثلاً ما يأمر به

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٩ - ٧٠) برقم (٥٠).

. . . .

مجتنباً ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وإن كان مخلاً بما يأمر به، والنهي وإن كان متلبساً بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر؟ قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين. قال إمام الحرمين: والدليل عليه إجماع المسلمين؛ فإن غير الولاة في الصدر الأول والعصر الذي يليه كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر، مع تقرير المسلمين إياهم، وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية، والله أعلم.

ثم إنه إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة، كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد، لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء، ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه، لأن على أحد المذهبين: كل مجتهد مصيب، وهذا هو المختار عند كثيرين من المحققين أو أكثرهم، وعلى المذهب الآخر: المصيب واحد والمخطىء غير متعين لنا والإثم مرفوع عنه، لكنه إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق، فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بسنة أو وقوع في خلاف آخر. وذكر القاضي أبو الحسن الماوردي البصري الشافعي، في كتابه: «الأحكام السلطانية»، خلافاً بين العلماء في أن من قلده السلطان الحسبة هل له أن يحمل الناس على مذهبه فيما اختلف فيه الفقهاء، إذا كان المحتسب من أهل الاجتهاد، أم لا يغير ما كان على مذهب غيره، والأصح أنه لا يغير لما ذكرناه، ولم يزل الخلاف في الفروع بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم رضي الله عنهم أجمعين ولا ينكر محتسب ولا غيره على غيره، وكذلك قالوا: ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصّاً أو إجماعاً أو قياساً جليّاً، والله أعلم.

. . . .

واعلم أن هذا الباب، أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح و الطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: الآية ٦٣]، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيم، لا سيما وقد ذهب معظمه، ويخلص نيته، ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته، فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: الآية ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: الآية ١٠١].
وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: الآيات ١ ـ ٣].

واعلم أن الأجر على قدر النصب؛ ولا يشاركه أيضاً لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقاً، ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه، وعدوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته وإن حصّل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه، وإنما كان إبليس عدّواً لنا لهذا، وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها، ونسأل الله الكريم توفيقنا وأحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته، وأن يعمنا بجوده ورحمته، والله أعلم.

وينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب، فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

. . . .

ومما يتساهل أكثر الناس فيه من هذا الباب ما إذا رأى إنساناً يبيع متاعاً معيباً أو نحوه، فإنهم لا ينكرون ذلك ولا يعرفون المشتري بعيبه، وهذا خطأ ظاهر، وقد نص العلماء على أنه يجب على من علم ذلك أن ينكر على البائع، وأن يعلم المشتري به، والله أعلم.

وأما صفة النهي ومراتبه فقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، فقوله ﷺ: فبقلبه، معناه فليكرهه بقلبه وليس ذلك بإزالة وتغيير منه للمنكر ولكنه هو الذي في وسعه.

وقوله ﷺ: **«وذلك أضعف الإيمان»** معناه، والله أعلم، أقله ثمرة.

قال القاضي عياض رحمه الله: هذا الحديث أصل في صفة التغيير، فحق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قولاً كان أو فعلاً، فيكسر آلات الباطل، ويريق المسكر بنفسه أو يأمر من يفعله، وينزع الغصوب ويردها إلى أصحابها بنفسه أو بأمره إذا أمكنه، ويرفق في التغيير جهده بالجاهل وبذي العزة الظالم المخوف شره، إذ ذلك أدعى إلى قبول قوله، كما يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعنى، ويغلظ على المتمادي في غيّه والمسرف في بطالته، إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكراً أشد مما غيره، لكون جانبه محمياً عن سطوة الظالم، فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكراً أشد منه، من قتله أو قتل غيره بسببه، كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه وكان في سعة، وهذا هو المراد بالحديث إن شاء الله تعالى، وإن وجد من يستعين به على ذلك استعان ما لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحرب، وليرفع ذلك إلى من له الأمر إن كان المنكر من غيره، أو يقتصر على تغييره بقلبه، هذا هو فقه المسألة وصواب العمل فيها عند العلماء والمحققين، خلافاً لمن رأى الإنكار بالتصريح بكل حال وإن قتل ونيل منه كل أذى. هذا آخر كلام القاضي رحمه الله.

قال إمام الحرمين رحمه الله: ويسوغ لآحاد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح، فإن انتهى الأمر إلى

. . . .

ذلك ربط الأمر بالسلطان. قال: وإذا جار والي الوقت وظهر ظلمه وغشمه ولم ينزجر حين زجر عن سوء صنيعه بالقول، فلأهل الحل والعقد التواطؤ على خلعه ولو بشهر الأسلحة ونصب الحروب. هذا كلام إمام الحرمين. وهذا الذي ذكره من خلعه غريب ومع هذا فهو محمول على ما إذا لم يخف منه إثارة مفسدة أعظم منه. قال وليس للآمر بالمعروف البحث والتنقير و التجسس واقتحام الدور بالظنون، بل إن عثر على منكر غيره جهده. هذا كلام إمام الحرمين.

وقال القاضي الماوردي: ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات، فإن غلب على الظن استسرار قوم بها لأمارة وآثار ظهرت، فذلك ضربان: أحدهما: أن يكون ذلك في انتهاك حرمة يفوت استدراكها، مثل أن يخبره من يثق بصدقه أن رجلاً خلا برجل ليقتله أو بامرأة ليزني بها، فيجوز له في مثل هذا الحال أن يتجسس ويقدم على الكشف والبحث حذراً من فوات ما لا يستدرك، وكذا لو عرف ذلك غير المحتسب من المتطوعة جاز لهم الإقدام على الكشف والإنكار.

الضرب الثاني ما قصر عن هذه الرتبة؛ فلا يجوز التجسس عليه ولا كشف الأستار عنه، فإن سمع أصوات الملاهي المنكرة من دار أنكرها خارج الدار، لم يهجم عليها بالدخول لأن المنكر ظاهر وليس عليه أن يكشف عن الباطن.

وقد ذكر الماوردي في آخر الأحكام السلطانية باباً حسناً في الحسبة مشتملاً على جمل من قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أشرنا هنا إلى مقاصدها، وبسطت الكلام في هذا الباب لعظم فائدته وكثرة الحاجة إليه وكون من أعظم قواعد الإسلام، والله أعلم.

قوله: عن صالح بن كيسان عن الحارث عن جعفر بن عبد الله بن الحكم عن عبد الرحمن بن المسور عن أبي رافع عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن**

. . . .

جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» قال أبو رافع فحدثت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فأنكره عليّ فقدم ابن مسعود رضي الله عنه فنزل بقناة فاستتبعني إليه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يعوده فانطلقت معه فلما جلسنا سألت ابن مسعود عن هذا الحديث فحدثنيه كما حدثته ابن عمر قال صالح وقد تحدث بنحو ذلك عن أبي رافع، قال الشيخ أبو عمرو: وأما قوله: **«اصبروا حتى تلقوني»** فذلك حيث يلزم من ذلك سفك الدماء أو إثارة الفتن أو نحو ذلك. وما ورد في هذا الحديث من الحث على جهاد المبطلين باليد واللسان فذلك حيث لا يلزم منه إثارة فتنة. على أن هذا الحديث مسوق فيمن سبق من الأمم وليس في لفظه ذكر لهذه الأمة. هذا آخر كلام الشيخ أبي عمرو، وهو ظاهر كما قال.

وأما الحواريون المذكورون فاختلف فيهم، فقال الأزهري وغيره: هم خلصان الأنبياء وأصفياؤهم، والخلصان الذين نقوا من كل عيب، وقال غيرهم: أنصارهم، وقيل المجاهدون، وقيل الذين يصلحون للخلافة بعدهم.

قوله ﷺ: **«ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف»**، الضمير في إنها هو الذي يسميه النحويون ضمير القصة والشأن، ومعنى تخلُف تحدث، وهو بضم اللام. وأما الخُلوف، فبضم الخاء، وهو جمع خلْف، باسكان اللام، وهو الخالف بشر، وأما بفتح اللام، فهو الخالف بخير، هذا هو الأشهر. وقال جماعة وجماعات من أهل اللغة منهم أبو زيد: يقال كل واحد منهما بالفتح والإسكان، ومنهم من جوز الفتح في الشر ولم يجوز الإسكان في الخير، والله أعلم.

قوله: **«فنزل بقناة»** هكذا هو في بعض الأصول المحققة بقناة، بالقاف المفتوحة وآخره تاء التأنيث، وهو غير مصروف للعملية والتأنيث، وهكذا ذكره أبو عبد الله الحميدي في الجمع بين الصحيحين، ووقع في أكثر الأصول ولمعظم رواة كتاب مسلم بفنائه، بالفاء المكسورة وبالمد وآخره هاء الضمير قبلها همزة، والفناء ما بين أيدي المنازل والدور، وكذا رواه أبو عوانة الإسفرايني. قال القاضي عياض رحمه الله في رواية السمرقندي بقناة: وهو الصواب، وقناة واد من أودية المدينة على مال من

. . . .

أموالها. قال: ورواية الجمهور بفنائه وهو خطأ وتصحيف.

قوله ﷺ: **«يهتدون بهديه»** هو بفتح الهاء وإسكان الدال، أي بطريقته وسمته.

وقال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (ص ٦٢٤): قوله: **«نبي»** نكرة، والمناسب أن يؤتى **«أمة»** نكرة، إذ المعنى ما من نبي من الأنبياء في أمة من الأمم، لاقتضاء «ما» النافية و«من» الاستغراقية ذلك، ولأن قوله: **«كان له من أمته»** عبارة عن النكرة، فهو كالتعريف باللام بعد النكرة.

«الحوارى» الناصر، وأصله أن أصحاب عيسى عليه السلام كانوا قصارين يبيضون الثياب، فلما صاروا أنصاره قيل لكل ناصر لنبيه: حوارى، وهو الوجه المستقيم؛ لأنهم خلصان الأنبياء، ولأن حوارى الرجل صفوته وخالصته الذي أخلص ونقى من كل عيب. و«الخلف» بالتحريك والتسكين، وخص الأول بالخلف الصدق، والثاني بالسوء، ويجمع خلف على أخلاف، كسلف وأسلاف، وخلف على خلوف، كعدل وعدول، والمعنى أنه يجيء من بعد أولئك السلف الصالح أناس لا خير فيهم، ولا خلاق لهم في أمور الديانات.

وقوله: **«حبة خردل»** يعنى أدنى مراتب أهل الإيمان تضرب قلوبهم لظهور المنكر، ويكون منه في جهد وعناء، حتى لا يستقر، ولا ينقطع النزاع عنها، فإن استقرت على ذلك وانقطع عنها النزاع الذي هو حق الإيمان وسمت المؤمنين وسمتهم ـ أذنت بأنها خالية عن القوى الإيمانية، عرية عن الصفات النورانية.

وأقول: إن ذهب إلى الرواية الصحيحة يكون «من قبلى» صفة «أمة»، وإلى الأخرى يجوز أن يتعلق بـ«نعت»، أو يكون حالاً من «أمته»، و«أصحابه» يجوز أن يكون عطفاً تفسيرياً على «الحواريون»، وأن يكون الأصحاب غير الحواريين. و«ثم» ههنا يجوز أن يجري على الحقيقة، وعلى معنى البعد في المرتبة. والضمير في «أنها» للقصة، والجملة بعدها مفسرة لها، وصف الخلوف بوصفين مقابلين، لما وصف الأصحاب بهما فهم تصلفوا، حيث قالوا: فعلنا ما أمرنا به من واجبات الدين، وفضائل الأعمال، ولم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل فعلوا ما نهوا عنه، وهو المعنى

وَلَهُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهَا مَرْفُوعاً: **«إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُون فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِيَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ»** أَيْ مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَأَنْكَرَ بِقَلْبِهِ»(١).

وفي رواية غَيْرِ الصحيح، بَعْدَ وتابع: **«فَأُولَئِكَ هُمُ الهَالِكُونَ»** [١].

بقوله: **«ويفعلون ما لا يؤمرون»** إذ فعل ما لم يؤمر به شرعاً من البدع المنهي عنها، ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: الآية ٣] بخلاف السلف الصالح؛ فإنهم لما اقتدوا بهدى نبي الله انخرطوا في سلك الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

والفاء في **«فمن جاهدهم»** جزاء شرط محذوف، والتنكير في **«مؤمن»** للتنويع، فإن الأول دل على كمال الإيمان، والثالث على نقصانه، والمتوسط على القصد فيه، وفي **«حبة خردل»** على نفيه بالكلية، وهي اسم ليس، و**«وراء ذلك»** خبره، و**«من الإيمان»** صفتها، قدمت فصارت حالاً منها. وذهب المظهر إلى أن الإشارة بذلك إلى الإيمان في المرتبة الثالثة، ويحتمل أن يشار به إلى المذكور كله، أي ليس وراء ما ذكرت من مراتب الإيمان مرتبة قط؛ لأن من لم ينكر بالقلب رضي بالمنكر، والرضى بالمنكر كفر، فتكون هذه الجملة المصدرة بليس معطوفة على الجملة قبلها بكمالها.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

هذا الحديث فيه معجزة ظاهرة بالأخبار بالمستقبل ووقع ذلك كما أخبر ﷺ، وأما قوله ﷺ **«فمن كره فقد برىء»** معناه: من كره ذلك المنكر فقد برىء من إثمه وعقوبته وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده ولا لسانه فليكرهه بقلبه وليبرأ.

وقوله ﷺ **«ولكن من رضي وتابع»** معناه ولكن الإثم والعقوبة على من رضي وتابع. وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت بل إنما يأثم بالرضى به أو بأن لا يكرهه بقلبه أو بالمتابعة عليه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٤٨١) برقم (١٨٥٥) وأبو داود في سننه برقم (٤٧٦٠ و٤٧٦١) والترمذي في سننه برقم (٢٢٦٩).

٣١ ـ باب ذكر تمني المعصية والحرص عليها

في الصحيحين عن أبي بكرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**إذَا التقَى المسْلِمَانِ بسيفيهمَا فالقَاتلُ والمقتولُ في النَّار**» قالوا يا رسُولَ الله: هَذا القاتِلُ فَما بالُ المقتولِ؟ قالَ: «**إنَّهُ كَانَ حريصاً على قَتْلِ صاحِبِهِ**»(١) [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرح رياض الصالحين (١/ ٥٩ وما بعدها):

قوله: «**إذا التقى المُسلِمان بسيفيهما**» أي: يريد كل واحد منهما أن يقتل الآخر فسلَّ عليه السَّيف وكذلك لو أشهر عليه السِّلاح كالبندقية أو غيرها مما يقتل كحجر ونحوه!

فَذِكرُ السَّيف هنا على سبيل التمثيل وليس على سبيل اليقين بل إذا التقى المسلمان بأي وسيلة يكون بها القتل فقتل أحدهما الآخر فالقاتل والمقتول في النار والعياذ بالله!! فقال أبو بكرة للنبي ﷺ: هذا القاتل؟ يعني أن كونه في النار واضح لأنه قتل نفساً مؤمنة متعمداً والذي يقتل نفساً مؤمنة متعمداً بغير حقّ فإنَّه في نار جهنم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: الآية ٩٣] فأبو بكرة رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: «**هذا القاتل**» وهذه الجملة هي ما يُعرف في باب المناظرة بالتسليم يعني سَلَّمنا أن القاتل في النَّار فما بال المقتول كيف يكون في النار؟!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣١ و٦٨٧٥ و٧٠٨٣) ومسلم في صحيحه كتاب الفتن (٤/ ٢٢١٣) برقم (٢٨٨٨).

وعن أبي كَبشَةَ الأنماريِّ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**مثلُ هذه الأمةِ كمثلُ أربعةِ رجالٍ: رجلٌ آتاهُ الله مَالاً وعلماً فهو يعملُ في مالِه بعلمِهِ ـ ورجُلٌ آتاهُ الله علماً وَلَمْ يُؤتِهِ مالاً. فقالَ لَوْ كَانَ لي مالٌ مِثلُ مَالِ فُلانٍ لعملتُ فيه مثلَ عملهِ، فهمَا في**

قال النبي ﷺ: «**لأنَّه كان حَريصاً عَلَى قَتل صاحبه**» فهو حريص على قتل صاحبه ولهذا جاء بآلة القتل ليقتله ولكن تفوّق عليه الآخر فقتله فيكون هذا والعياذ بالله بنيته القتل وعمله السّبب الموصل للقتل يكون كأنه قاتل ولهذا قال: «**لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه**».

ففي هذا الحديث: دليلٌ على أن الأعمال بالنِّيات وأن هذا لما نوى قتل صاحبه صار كأنه فاعلٌ ذلك أي كأنه قاتل وبهذا نعرف الفرق بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ دُون دَمِه فَهُو شِهيدٌ، ومنْ قُتِلَ دُون أهْلِهِ فَهُو شَهيدٌ، ومنْ قُتِلَ دُون مَالِه فَهُو شَهيدٌ**»[1]. وقوله فيمَن أتى ليأخذ مالك: «**إن قَتَلْتَهُ فهُو في النَّار، وإن قتلَكَ فأنْتَ شَهيد**».

وذلك لأن الإنسان الذي يُدافع عن ماله وأهْله ونفسه وعرضه إنما دافع رجلاً معتدياً صائلاً لا يندفع إلا بالقتل، فهنا إذا قتل الصَّائل كان في النَّار وإن قتل الدَّافع كان شهيداً في الجنة فهذا هو الفرق بينهما. فبهذا عُلِمَ أن من قتل أخاه مريداً لقتله فإنه في النار ومن قتله أخوه وهو يُريد قتل أخيه لكن عجز فالمقتول أيضاً في النار.

وفي هذا الحديث: دليل على عظم القتل وأنّه من أسباب دخول النار والعياذ بالله.

وفيه دَليلٌ على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يوردون على الرسول ﷺ الشُّبهة فيجيب عنها.

ولهذا لا نجد شيئاً من الكتاب والسُّنة فيه شبهة حقيقية إلا وقد وجد حلها. إما أن يكون حلّها بنفس الكتاب والسُّنة من غير إيراد سؤال وإما أن يكون بإيراد سؤال يجاب عنه.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم (٤٧٧٢) كتاب السنة. والترمذي في سننه رقم (١٤٢١) كتاب الديات، وابن ماجه في سننه مختصراً رقم (٢٥٨٠) كتاب الحدود. وصححه شيخنا الألباني رحمه الله كما في صحيح الجامع رقم (٦٤٤٥) والإرواء رقم (٧٠٨).

الأجرِ سواءٌ ـ ورجُلٌ آتاهُ الله مالاً وَلَمْ يُؤتيهِ علماً فهوَ يتخبطُ في مَالِهِ لا يدرِي مَا لَهُ مِمَّا عليهِ ـ ورجلٌ لَم يُوتِه الله مَالاً ولاَ علماً فقالَ: لَوْ كانَ لي مِثلُ مالِ فُلانٍ لعملتُ فيهِ مثلَ عَملِ فُلانٍ فهمَا في الوزرِ سواءٌ» صححه الترمذي[1] [١].

ومن ذلك أن الرسول ﷺ لما أخبر بأن الدَّجال يمكث في الأرض أربعين يوماً اليوم الأول كسنة والثاني كشهر والثَّالث كالأسبوع وبقية الأيام كأيامنا، سأله الصحابة هذا اليوم الذي كسنة هل تكفينا فيه صلاة يوم واحد؟ قال: «**لا. لكن اقْدروا لَهُ قَدْرَه**»[2] ففي هذا أبينُ دليل على أنه لا يوجد ولله الحمد في الكتاب والسنة شيء مشتبه لا حلَّ له، لكن الذي يوجد قصور في الأفهام تعجز عن معرفة الحل أو تقصير في الطلب والتأمل والتَّفتيش فيشتبه عليه الأمر.

أما في الواقع فليس في الكتاب والسُّنة شيء مُشْتبه إلاَّ وجد حلُّه في الكتاب أو السّنة إمَّا ابتداءً وإمَّا جواباً عن سؤال يقع من الصَّحابة، والله الموفق.

[١] قال الإمام المباركفوري رحمه الله في تحفة الأحوذي (٧/ ٣٢):

«**إنما الدنيا لأربعة نفر**» أي إنما حال أهلها أربعة: الأول «**عبد**» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وبالجر على أنه بدل مما قبله، «**رزقه الله مالاً**» من جهة حل، «**وعلماً**» أي شرعيًا نافعاً، «**فهو يتقي ربه فيه**» أي في الإنفاق من المال والعلم، «**ويصل به**» أي بكل منهما «**رحمة**» أي بالصلة من المال، وبالإسعاف بجاه العلم «**ويعلم لله فيه حقًا**» من وقف وإقراء وإفتاء وتدريس، «**فهذا**» أي العبد الموصوف بما ذكر «**بأفضل المنازل**» أي بأفضل الدرجات عند الله تعالى، «**وعبد رزقه الله علماً**» أي شرعيًا نافعاً «**ولم يرزقه مالاً**» ينفق منه من وجوه القرب، «**يقول**» فيما بينه وبين الله، «**يعمل فلان**» أي الذي له مال ينفق منه في البر، «**فهو بنيته**» أي يؤجر على حسبها، «**فأجرهما سواء**» أي فأجر من عقد عزمه على أنه لو كان له مال أنفق منه في الخير، وأجر من له مال ينفق منه سواء، ويكون أجر العلم زيادة له، «**يخبط من ماله**» بكسر الباء جملة حالية،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٤٢٢٨) والترمذي في سننه برقم (٢٣٢٥) وأحمد في المسند (٤/ ٢٣٠) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (٢٩٣٧) كتاب الفتن.

. . . .

أو استئناف بيان، أي: يصرفه في شهوات نفسه **«بغير علم»** بل بمقتضى نفسه، قال القاري: أي بغير استعمال علم بأن يمسك تارة حرصاً، وحبًّا للدنيا، وينفق أخرى للسمعة والرياء والفخر والخيلاء، **«لا يتقي فيه ربه»** أي لعدم علمه في أخذه وصرفه، **«ولا يصل فيه رحمه»** أي لقلة رحمته وعدم حلمه، وكثرة حرصه وبخله **«ولا يعلم لله فيه حقًّا»** وفي المشكاة: **«ولا يعمل فيه بحق»** قال القاري رحمه الله، أي بنوع من الحقوق المتعلقة بالله وبعباده **«فهو بأخبث المنازل»** عند الله تعالى أي أخسها وأحقرها، **«لعملت فيه بعمل فلان»** أي من أهل الشر **«فهو بنيته»** أي فهو مجزي بنيته.

٣٢ ـ باب ذكر الريب

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ الآية [الحُجرَات: الآية ١٥] [١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١١٧):

﴿إنما المؤمنون﴾، أي: على الحقيقة **﴿الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا في سبيل الله﴾**، أي: من جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله. فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان التام في قلبه؛ لأن من جاهد غيره على الإسلام، والإيمان، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقوَ على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه.

وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب، أي: الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

وقوله: **﴿أولئك هم الصادقون﴾**، أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى عظيمة في كل شيء يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان. وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

﴿يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: الآيتان ٤، ٥] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٣):

ثم قال: **﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾** وهو القرآن والسنة، قال تعالى: **﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾**، فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله، على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: **﴿وما أنزل من قبلك﴾** يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بالكتب السماوية كلها، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: **﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾**، و«الآخرة» اسم لما يكون بعد الموت، وخصَّه بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، و«اليقين» هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، والموجب للعمل.

﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة **﴿على هدى من ربهم﴾** أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم، وأيُّ هدايةٍ أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل الهداية في الحقيقة إلا هدايتهم وما سواها مما خالفها، فهي ضلالة.

وأتى بـ«على» في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ«في» كما في قوله: **﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾** لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: الآية ٣٢] [١].

وكانَ معاذٌ ـ رضي الله عنه ـ يقولُ في مجلسهِ كلَّ يومٍ قلَّما يخطئهُ: «الله حكَمٌ قسطٌ، هلكَ المرتابونَ».

وقالَ ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ «إنَّ مِنَ اليقين أنْ لا تُرضي أحداً بسخطِ الله؛ ولاَ تحمدَ أحداً على ما آتاك الله، ولاَ تلومَ أحداً على مَا لم يُؤتكَ الله، وإنَّ الله بعلمهِ وقسطهِ جعلَ الهمَّ والحزنَ في الشَّكِ والسخطِ، وإنَّ رزقَ الله لا يجره حرصُ حريصٍ ولا يردُه كراهيةُ كارهٍ».

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ يومَ الحديبيةِ: «فعملتُ لذلكَ أعمالاً».

ثم قال: ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسارة التي تفضي بسالكها إلى الهلاك.

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١١/ ٢٦٨):

يقول تعالى ذكره: ويقال لهم حينئذ ﴿**وإذا قيل**﴾ لكم ﴿**إن وعد الله**﴾ الذي وعد عباده، أنه محييهم من بعد مماتهم، وباعثهم من قبورهم ﴿**حق والساعة**﴾ التي أخبرهم أنه يقيمها لحشرهم، وجمعهم للحساب والثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، آتية ﴿**لا ريب فيها**﴾ يقول: لا شك فيها يعني في الساعة، . . . ومعنى الكلام: والساعة لا ريب في قيامها فاتقوا الله وآمنوا بالله ورسوله واعملوا لما ينجيكم من عقاب الله فيها ﴿**قلتم ما ندري ما الساعة**﴾ تكذيباً منكم بوعد الله جل ثناؤه، ورداً لخبره وإنكاراً لقدرته على إحيائكم من بعد مماتكم. وقوله: ﴿**إن نظن إلا ظنًّا**﴾ يقول: وقلتم ما نظن أن الساعة آتية إلا ظناً ﴿**وما نحن بمستيقنين**﴾ إنها جائية، ولا أنها كائنة.

وفيه معنى - قوله ﷺ: **«ذاق طعمَ الإيمانِ من رضي الله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً»** أخرجه مسلم(1). وعَنْ العباس - رضي الله عنه - مثلُه [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قال صاحب التحرير رحمه الله: معنى رضيت بالشيء قنعت به واكتفيت به ولم أطلب معه غيره. فمعنى الحديث: لم يطلب غير الله تعالى: ولم يسع من غير طريق الإسلام ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ ولا شك في أن من كانت هذه صفته، فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه.

وقال القاضي عياض رحمه الله: معنى الحديث: صح إيمانه واطمأنت به نفسه، وخامر باطنه، لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته، ونفاذ بصيرته، ومخالطة بشاشته قلبه، لأن من رضي أمراً سهل عليه، فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذت له، والله أعلم.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٦/ ٣٣٠١):

«ذاق طعم الإيمان من رضي الله ربّاً» أي قنع بالله ربّاً واكتفى به ولم يطلب غيره **«وبالإسلام ديناً»** بأن لم يسع من غير طريقه، قال الطيبي: ولا يخلو إما أن يراد بالإسلام الانقياد كما في حديث جبريل أو مجموع ما يعبر بالدين عنه كما في خبر: **«بني الإسلام على خمس»**، ويؤيد الثاني اقترانه بالدين، لأن الدين جامع بالاتفاق، وعلى التقديرين هو عطف على قوله: **«بالله ربًا»** عطف عام على خاص وكذا قوله: **«وبمحمد رسولاً»** بأن لم يسلك إلا ما يوافق شرعه ومن كان هذا نعته فقد وصلت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه، شبه الأمر الحاصل الوحداني من الرضا بالأمور المذكورة، بمطعوم يستلذ به ثم ذكر المشبه به وأراد المشبه، ورشح بقوله: ذاق فإن قيل: الرضى بالثالث مستلزم للأولين فلم ذكرها؟ قلنا التصريح أن الرضا بكل منهما مقصود، قال الراغب: والذوق وجود الطعم في الفم وأصله فيما يقل تناوله وإذا كثر يقال له الأكل واستعمل في القرآن بمعنى وجود الإصابة إما في الرحمة نحو: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هُود: الآية ٩] وأما العذاب نحو: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وقال غيره: الذوق ضرب مثلاً لما ينالونه عند المصطفى ﷺ من الخير.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٢) برقم (٣٤).

٣٣ ـ باب السُّخط

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التّغابُن: الآية ١١] [١].

قال علقمةُ: هوَ الرجلُ تصيبهُ المصيبةُ فيعلمُ أنها من عندِ الله فيرضى ويُسَلِّمُ.

وعن أنس رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله إذا أَحَبَّ قوماً ابتلاهُمْ، فمن رضي فلهُ الرضى، ومَنْ سخطَ فعليهِ السَّخَطُ**» رواه الترمذي وحسنه[1] [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١٢/ ١١٥):

﴿**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾ يقول: ومن يصدق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك يهد قلبه، يقول: يوفق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه.

[٢] قال الإمام المباركفوري رحمه الله في تحفة الأحوذي (٧/ ١٢٢):

. . . فمن ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم «**ابتلاهم**» أي اختبرهم بالمحن والرزايا «**فمن رضي**» بما ابتلاه به «**فله الرضى**» منه تعالى، وجزيل الثواب «**ومن سخط**» بكسر الخاء، أي كره بلاء الله، وفزع، ولم يرضى بقضائه «**فله السخط**» منه تعالى وأليم العذاب، ومن يعمل سوءاً يجز به، والمقصود الحث على الصبر على البلاء بعد وقوعه، لا الترغيب في طلبه للنهي عنه.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٣٩٦) وابن ماجه في سننه برقم (٤٠٣١) وأحمد في المسند (٥/ ٤٢٧) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٦).

٣٤ ـ باب القلق والاضطراب

وقول الله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الفتح: الآية ٢٦] [١].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: الآية ٦٥] [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١١/ ٣٦٤):

وقوله: **﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾** يقول تعالى ذكره فأنزل الله الصبر والطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين إذ حمي الذين كفروا حمية الجاهلية، ومنعوهم من الطواف بالبيت، وأبوا أن يكتبوا في الكتاب بينه وبينهم بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله **﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾** يقال: ألزمهم قول لا إله إلا الله التي يتقون بها النار وأليم العذاب **﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾** يقول تعالى ذكره: وكان رسول الله ﷺ والمؤمنون أحق بكلمة التقوى من المشركين وأهلها **﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾** يقول تعالى ذكره: ولم يزل الله بكل شيء ذا علم، لا يخفى عليه شيء هو كائن، ولعلمه أيها الناس بما يحدث من دخولكم مكة وبها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم، لم يأذن لكم بدخولكم مكة في سفرتكم هذه.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢١٥):

... ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة، أنهم لا يؤمنون، حتى يحكموا رسوله، فيما شجر بينهم أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف. بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسُنّة. ثم لا يكفي هذا التحكيم، حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض. ثم لا يكفي هذا التحكيم، حتى يسلموا لحكمه تسليماً، بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨﴾ [الفَجر: الآيتان ٢٧، ٢٨] [١].

ولهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«ليسَ الشديدُ بالصُّرعةِ إنَّما الشديدُ الذي يَملكُ نفسهُ عندَ الغضبِ»**(١) [٢].

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمن استكمل هذه المراتب، وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. ومَنْ ترك هذا التحكيم المذكور، غير ملتزم له فهو كفر. ومَنْ تركه ـ مع التزامه ـ فله حكم أمثاله من العاصين.

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١٢/ ٥٨٠):

وقوله: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾** يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل الملائكة لأوليائه يوم القيامة: يا أيتها النفس المطمئنة، يعنى بالمطمئنة التي أطمأنت إلى وعد الله **﴿ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾** هذا خبر من الله جل ثناؤه عن قيل الملائكة لنفس المؤمن عند البعث، تأمرها أن ترجع من جسد صاحبها.

[٢] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (١/ ٢١٠):

هذان الحديثان اللذان ذكرهما المؤلف في الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم، فيستشيط غضباً ويحتمي جسده، وتنتفخ أوداجه، ويحمر وجهه، ويتكلم بكلام لا يعقله أحياناً ويتصرف تصرفاً لا يعقله أيضاً.

ولهذا جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أوصني، قال: **«لا تغضب»** قال: أوصني قال: **«لا تغضب»** قال: أوصني، قال: **«لا تغضب»**(٢).

وبين النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة هذا الذي ذكره المؤلف رحمه الله أن الشديد ليس بالصرعة فقال: **«ليس الشديد بالصرعة»** أي ليس القوي في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦١١٤) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٠٩) (٤/ ٢٠١٤).

(٢) سيأتي تخريجه بعد قليل.

وللبخاري أنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ أوصِني قالَ: **«لاَ تغضبْ»** فردد مراراً قال: **«لاَ تغضبْ»**[1] [١].

الصرعة الذي يكثر صرع الناس فيطرحهم ويغلبهم.

هذا يقال عنه عند الناس إنه شديد وقوي لكن النبي ﷺ يقول ليس هذا هو الشديد حقيقة **«إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»** أي القوي حقيقة هو الذي يصرع نفسه، إذا صارعته وغضب ملكها وتحكم فيها لأن هذه هي القوة الحقيقة.

قوة داخلية معنوية يتغلب بها الإنسان نفسه عند الغضب وأن لا يسترسل فيه لأنه يندم بعده.

كثيراً ما يغضب الإنسان فيطلق امرأته وربما تكون هذه الطلقة آخر تطليقة.

كثيراً ما يغضب الإنسان فيتلف ماله إما بالحرق أو بالتكسير.

كثيراً ما يغضب على ابنه حتى يضربه وربما مات بضربه.

وكذلك يغضب على زوجته مثلاً فيضربها ضرباً مبرحاً وما أشبه ذلك من الأشياء الكثيرة التي تحدث للإنسان وقت الغضب ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان[2] لأن الغضب يمنع القاضي من تصور المسألة ثم من تطبيق الحكم الشرعي عليها فيهلك ويحكم بين الناس بغير الحق.

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في كتابه بهجة قلوب الأبرار (ص ١٢٨):

عن «أبي هريرة» رضي الله عنه قال: جاءَ رَجلٌ، فقال: يا رسولَ الله: أوْصِني. فقال: **«لا تَغْضَبْ»**. ثم رَدَّدَ مِرَاراً. فقال: **«لا تَغْضَبْ»**. رواه البخاري.

هذا الرجل ظن أنها وصية بأمر جزئي، وهو يريد أن يوصيه النبي ﷺ بكلام كلي. ولهذا ردد. فلما أعاد عليه النبي ﷺ، عرف أن هذا كلام جامع.

وهو كذلك؛ فإن قوله: **«لا تغضب»** يتضمن أمرين عظيمين:

أحدهما: الأمر بفعل الأسباب، والتمرن على حسن الخلق والحلم والصبر، وتوطين النفس على ما يصيب الإنسان من الخلق من الأذى القولي والفعلي. فإذا وفّق

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦١١٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٧١٥٨) كتاب الأحكام. ومسلم في صحيحه رقم (١٧١٧) كتاب الأقضية.

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**قَدْ أفلحَ مَن أخلصَ الله قلبهُ للإيمانِ وجعلَ قلبهُ سليماً، ولسانهُ صادقاً، ونفسهُ مطمئنةً، وخليقتهُ مستقيمةً، وجعلَ أذنهُ مستمعةً وعينهُ ناظرةً، فأمَّا الأذنُ فقمعٌ وأمَّا العينُ فمعبرةٌ لما يُوعي القلبُ وقَدْ أَفلحَ مَنْ جَعَلَ الله قلبهُ واعياً**» رواه أحمد[1].

لها العبد، وورد عليه وارد الغضب، احتمله بحسن خلقه، وتلقاه بحلمه وصبره، ومعرفته بحسن عواقبه؛ فإن الأمر بالشيء أمر به، وبما لا يتم إلا به. والنهي عن الشيء أمر بضده، وأمر بفعل الأسباب التي تعين العبد على اجتناب المنهي عنه. وهذا منه.

الثاني: الأمر ـ بعد الغضب ـ أن لا ينفذ غضبه؛ فإن الغضب غالباً لا يتمكن الإنسان من دفعه ورده، ولكنه يتمكن من عدم تنفيذه. فعليه إذا غضب أن يمنع نفسه من الأقوال والأفعال المحرمة التي يقتضيها الغضب.

فمتى منع نفسه من فعل آثار الغضب الضارة، فكأنه في الحقيقة لم يغضب. وبهذا يكون العبد كامل القوة العقلية، والقوة القلبية، كما قال ﷺ: «**لَيسَ الشَّدِيدُ بالصَّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الَّذي يَمْلِكُ نَفْسَه عندَ الغَضَبِ**».

فكمال قوة العبد: أن يمتنع من أن تؤثر فيه قوة الشهوة، وقوة الغضب، الآثارَ السيئة، بل يصرف هاتين القوتين إلى تناول ما ينفع في الدين والدنيا، وإلى دفع ما يضر فيهما.

فخير الناس: من كانت شهوته وهواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، وغضبه ومدافعته في نصر الحق على الباطل.

وشر الناس: من كان صريع شهوته وغضبه.

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٤٧/٥) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع برقم (٤٠٧٥).

٣٥ ـ باب الجهالة

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٤٠٠):

يقول تعالى ـ مبيناً كثرة الغاوين الضالين، المتبعين إبليس اللعين: **﴿ولقد ذرأنا﴾** أي: أنشأنا وبثثنا **﴿لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾** صارت البهائم أحسن حالة منهم.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة.

﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم.

﴿أولئك﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة **﴿كالأنعام﴾** أي: البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى، على ما يبقى، فسلبوا خاصية العقل.

﴿بل هم أضل﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان، تدرك بها، مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم. و**﴿أولئك هم الغافلون﴾** الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله، وطاعته، وذكره.

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون، بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها، يعملون.

وعن ابن عباس ومعاوية وغيرهما ـ رضي الله عنهم ـ أن رسول الله ﷺ ـ قالَ: «مَنْ يردِ الله بهِ خيراً يفقهه في الدينِ»(١) [١].

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبته، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

في الحديث فضيلة العلم والتفقه في الدين، والحث عليه، وسببه أنه قائد إلى تقوى الله تعالى.

وقال الإمام ابن حجر رحمه الله في الفتح (١/ ٢١٨):

هذا الحديث مشتمل على ثلاثة أحكام: أحدها فضل التفقه في الدين... قوله **«يفقهه»** أي يفهمه... يقال فقه بالضم إذا صار الفقه له سجية، وفقه بالفتح إذا سبق غيره إلى الفهم، وفقه بالكسر إذا فهم، ونكر **«خيراً»** ليشمل القليل والكثير، والتنكير للتعظيم لأن المقام يقتضيه. ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين.. أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع ـ فقد حرم الخير.... وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم.

وقال العلامة السعدي رحمه الله في كتابه بهجة قلوب الأبرار (ص ٢٤):

هذا الحديث من أعظم فضائل العلم وفيه:

أن العلم النافع علامة على سعادة العبد، وأن الله أراد به خيراً.

والفقه في الدين يشمل الفقه في أصول الإيمان، وشرائع الإسلام والأحكام، وحقائق الإحسان.

فإن الدين يشمل الثلاثة كلها، كما في حديث «جبريل» لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وأجابه ﷺ بحدودها. ففسر الإيمان بأصوله الستة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٧١ و٣١١٦ و٣٦٤١ و٧٣١٢) ومسلم في صحيحه (٣/ ١٥٢٤) برقم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٦٤٥) وأحمد في المسند (١/ ٣٠٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «أن المرتاب هو الذي يقول إذا سأله الملكان: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»[1].

وفسر الإسلام بقواعده الخمس. وفسر الإحسان بـ«**أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، فيدخل في ذلك التفقه في العقائد، ومعرفة مذهب السلف فيها، والتحقق به ظاهراً وباطناً، ومعرفة المخالفين، وبيان مخالفتها للكتاب والسنة.

ودخل في ذلك: علم الفقه، أصوله وفروعه، وأحكام العبادات والمعاملات، والجنايات وغيرها.

ودخل في ذلك: التفقه بحقائق الإيمان، ومعرفة السير والسلوك إلى الله، الموافقة لما دل عليه الكتاب والسنة.

وكذلك يدخل في هذا: تعلُّم جميع الوسائل المعينة على الفقه في الدين، كعلوم العربية بأنواعها.

فمن أراد الله به خيراً فقهه في هذه الأمور، ووفقه لها.

ودل مفهوم الحديث على أن من أعرض عن هذه العلوم بالكلية، فإن الله لم يرد به خيراً، لحرمانه الأسباب التي تنال بها الخيرات، وتكتسب بها السعادة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٩٥) والحاكم في المستدرك (١/ ٣٧). وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في المشكاة برقم (١٦٣٠) وكتاب الجنائز (ص ١٥٥).

٣٦ ـ باب القُحَّة(١)

وقول الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ الآية [النّساء: الآية ١٠٨] [١].

وفي البخاري عن أبي مسعود عقبة بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما**

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢٣٦):

. . . ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم **﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾**. وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم، أعظم من مخافة الله فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة، على عدم الفضيحة عند الناس، وهم ـ مع ذلك ـ قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم. وهو معهم بالعلم، في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ، ليفعل ما بيتوه.

فقد جمعوا بين عدة جنايات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: **﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾** أي: قد أحاط بذلك علماً. ومع هذا، لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم، الموجب للعقوبة البليغة.

---

(١) هكذا ورد في المخطوط وورد في المطبوع: الخفية، وهو تصحيف، ومعنى القح كما في اللسان (ص ٣٥٣٥): الخالص من اللؤم والكرم ومن كل شيء، يقال: لئيم قح إذا كان معروفاً في اللؤم.

شئت»[1] [١].

---

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (١٠/ ٣٢٣١):
قال التوربشتي: المعنى أن مما بقي بين الناس فأدركوه من كلام الأنبياء. ويجوز أن يكون فاعل «أدرك» ضميراً راجعاً إلى «ما» و«الناس» مفعولة، وعليه كلام القاضي: أي مما بلغ الناس من كلام الأنبياء المتقدمين أن الحياء هو المانع عن اقتراف القبائح، والاشتغال بمنهيات الشرع ومستهجنات العقل، قوله: **«من كلام النبوة الأولى»** قال الخطابي: معناه: اتفاق كلام الأنبياء عليهم السلام على استحسان الحياء فما من نبي إلا وقد ندب إليه وبعث عليه، ولم ينسخ فيما نسخ من شرائعهم، ولم يبذل منها، وذلك أنه أمر قد علم صوابه، وبان فضله، واتفقت العقول على حسنه. وما كان هذا صفته لم يجر عليه النسخ والتبديل، وقيد النبوة «الأولى» للإرشاد إلى اتفاق كلمة الأنبياء عليهم السلام على استحسانه من أولهم إلى آخرهم. قوله: **«فاصنع ما شئت»** قال الإمام النووي: إن قانون الشرع في معنى الحياء يحتاج إلى اكتساب ونية. وعلى هذا المعنى يحمل الحديث فالقانون فيه أنك إذا أردت أمراً أو اكتسبت فعلاً، وأنت بين الإقدام والإحجام فيه، فانظر إلى ما تريد أن تفعله فإن كان ذلك مما لا يستحي فيه من الله تعالى ولا من رسله وأنبيائه قديماً وحديثاً فافعله، ولا تبال من الخلق، وإن استحييت من الخلق، وإن كان مما يستحيي فيه من الله تعالى ومنهم فدعه، وإن لم يستحيي من الخلق فيه... فدخل الحديث إذا في جملة جوامع الكلم التي استأثر الله بها رسولهﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٣٤٨٣، ٣٤٨٤، ٦١٢٠).

٣٧ ـ باب الحرص على المال والشرف

عن كعب رضي الله عنه مرفوعاً: **«ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»** صححه الترمذي(١) [١].

---

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (ص ٥٣٥٣):

«ما» بمعنى ليس **«ذئبان»** اسمها **«جائعان»** صفة له، وفي رواية عاديان والعادي الظالم المتجاوز للحد **«أرسلا في غنم»** الجملة في محل رفع صفة **«بأفسد»** خبر ما والباء زائدة أي: أشد فساداً والضمير في **«لها»** للغنم واعتبر فيه الجنسية فلذا أنث، وقوله: **«من حرص المرء»** هو المفضل عليه لا اسم التفضيل **«على المال»** متعلق بحرص **«الشرف»** عطف على المال والمراد به الجاه والمنصب **«لدينه»** اللام فيه للبيان، نحوها في قوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٣] فكأنه قيل هنا: بأفسد لأي شيء؟ قيل: لدينه، ذكره الطيبي، فمقصود الحديث أن الحرص على المال والشرف أكثر إفساداً للدين من إفساد الذئبين للغنم؛ لأن ذلك الأشر والبطر يستفز صاحبه ويأخذ به إلى ما يضره وذلك مذموم لاستدعائه العلو في الأرض والفساد المذمومين شرعاً، قال الحكيم: وضع الله الحرص في هذه الأمة ثم ذمه في المؤمنين بزمام التوحيد واليقين وقطع علائق الحرص بنور السبحات فمن كان حظه من نور اليقين ونور السبحات أوفر كان وثاق حرصه أوثق والحرص يحتاجه الآدمي لكن بقدر معلوم، وإذا لم يكن لحرصه وثاق وهبت رياحه استفزت النفس فتعدى القدر المحتاج إليه فأفسد؛ وعرف بعضهم الحرص بأنه مدد القوة الموضوعة في الآدمي ومثيرها، وعمادها.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٣٧٦) وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٦، ٤٦٠) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (١٩٣٥).

٣٨ - باب الهلع والجبن

وقول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [المعَارج: الآية ١٩] إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٢٢﴾ [المعَارج: الآية ٢٢] [١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«شر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع»** رواه أبو داود بسند جيد(١) [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٢٣٦):

﴿وإن الإنسان خلق هلوعاً﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو، وصف طبيعته أنه هلوع، وفسر الهلوع بقوله: **﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾** فيجزع إن أصابه فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له، من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله.

﴿وإذا مسه الخير منوعاً﴾ فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء **﴿إلا المصلين﴾** الموصوفين بتلك الأوصاف فإنهم إذا مسهم الخير، شكروا الله وأنفقوا مما خولهم، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا.

[٢] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (٧/ ٣٦٤٦):

«شر ما في الرجل» أي شر ما مساوىء أخلاقه **«شح هالع»** أي جازع يعني شح يحمل على الحرص على المال والجزع على ذهابه، وقيل: هو أن لا يشبع كلما وجد شيئاً بلعه ولا قرار له ولا يتبين في جوفه ويحرص على تهيئة شيء آخر، وقال

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٢٥١١) وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٢، ٣٢٠) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٢١٢) وفي الصحيحة برقم (٥٦٠).

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: **«اتقوا الشحّ فإن الشح أهلك ما كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»**(1) [1].

التوربشتي: والشح بخل مع حرص فهو أبلغ في المنع من البخل، فالبخل يستعمل في الضنة بالمال والشح في كل ما يمنع النفس عن الاسترسال فيه من بذل مال أو معروف أو طاعة، قال: والهلع أفحش الجزع ومعناه أنه يجزع في شحه أشد الجزع على استخراج الحق منه، قالوا: ولا يجتمع الشح مع معرفة الله أبداً فإن المانع من الإنفاق والجود خوف الفقر وهو جهل بالله وعدم وثوق بوعده وضمانه ومن تحقق أنه الرزاق لم يثق بغيره.

«وجبن خالع» أي شديد كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه، والمراد به، ما يعرض من أنواع الأفكار وضعف القلب عند الخوف من الخلع وهو نزع الشيء عن الشيء بقوة يعني حين يمنعه من محاربة الكفار والدخول في عمل الأبرار، فكان الجبن يخلع القوة والنجدة من القلب أو يخلع المتصف به عن كونه من الفحول أو يخلع الشجاعة ويذهب بها، لأنه إذا كان وثاباً هجاماً في الغمرات كان أعظم الناس منزلة عند الله.

[1] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٤/٥٩٨):

«واتقوا الشحّ» الشحُّ: الحرص على المال، **«فإنه أهلك من كان قبلكم»** لأن الحرص على المال ـ نسأل الله السلامة ـ يوجب للإنسان أن يكسب المال من أي وجه كان، من حلال أو حرام، بل قال النبي عليه الصلاة والسلام **«حملهم»** أي حمل من كان قبلنا **«على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»** يسفك الشحيح الدماء إذا لم يتوصل إلى طمعه إلا بالدماء، كما هو الواقع عند أهل الشحّ، يقطعون الطريق على المسلمين، ويقتلون الرجل، ويأخذون متاعه، ويأخذون بعيره، وكذلك أيضاً يعتدون على الناس في داخل بيوتهم، ويهتكون حُجُبَ بيوتهم، فيأخذون المال بالقوة والغلبة.

فحذر النبي ﷺ من أمرين: من الظلم ومن الشحّ. فالظلم هو الاعتداء على الغير، والشح هو الطمع فيما عند الغير. فكل ذلك حرام، ولهذا قال الله تعالى في

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١١٩٦) برقم (٢٥٧٨).

. . . .

كتابه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩] فدلت الآية على أن من لم يوق شح نفسه فلا فلاح له. المفلح من وقاه الله شحَّ نفسه. نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الظلم، وأن يقينا شح أنفسنا وشرورها.

٣٩ ـ باب البخل

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [النساء: الآية ٣٧] [١].

وقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات: الآية ١٩] [٢].

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سيدكم يا بني سلمة؟**» قلنا: الجد بن قيس على أنا نُبَخِّلُهُ، قال: «**وأي داء أدوأ من البخل، بل سيدكم عمرو بن**

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢٠٦):

قوله تعالى: ﴿**الذين يبخلون**﴾ أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة. ﴿**ويأمرون الناس بالبخل**﴾ بأقوالهم وأفعالهم.

﴿**ويكتمون ما آتاهم الله من فضله**﴾ أي: من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل، ما يحول بينهم وبين الحق. فجمعوا بين البخل بالمال، والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم، وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، فلهذا قال تعالى: ﴿**وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ أي: كما تكبّروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه، وتسببوا في منع غيرهم، من البخل، وعدم الاهتداء، أهانهم بالعذاب الأليم، والخزي الدائم. فعياذاً بك اللهم من كل سوء.

[٢] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١١/ ٤٥٦):

وقوله: ﴿**وفي أموالهم حق للسائل والمحروم**﴾ يقول تعالى ذكره: وفي أموال هؤلاء المحسنين الذين وصف صفتهم حق لسائلهم المحتاج إلى ما في أيديهم والمحروم وهو الذي قد حرم الرزق واحتاج.

الجموح»[1] رواه البخاري في الأدب المفرد [١].

---

[١] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٢/ ٦٣٢٣):

«وأي داء أدوى» أي أقبح **«من البخل»** أي عيب أقبح منه، وأي مرض أعظم منه لا شيء أعظم منه لأن من ترك الأنفاق خشية الإملاق لم يصدق الشارع، فهو داء مؤلم لصاحبه في العقبى، وإن لم يكن مؤلماً في الدنيا، فتشبيهه بالدواء من حيث كونه مفسداً للدين مورثاً له سوء الثناء كما أن الداء يؤول إلى طول الضنى وشدة العناء، ومن ثم عد بعضهم هذا الحديث من جوامع الكلم.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٢٩٧) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في تخريجه للأدب المفرد.

٤٠ ـ باب عقوبة البخل

وقول الله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٠]

[١] فيه: «**لا توعي فيوعي الله عليك**» [٢] كما في الحديث الآخر: «**ارضخي**

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٣/ ٥٣٢):

﴿**سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**﴾ سيجعل الله ما بخل به المانعون الزكاة، طوقاً في أعناقهم كهيئة الأطواق المعروفة.

[٢] لفظ الحديث كما في البخاري برقم (٢٥٩٠) من حديث أسماء رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ما لي مال إلا ما أدخل عليّ الزبير، فأتصدق؟ قال: «**تصدقي، ولا توعي فيوعي عليك**».

وفي رواية برقم (٢٥٩١): «**أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعى الله عليك**».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٥/ ٢٧٣):

المعنى لا تجمعي في الوعاء وتبخلي بالنفقة فتجازي بمثل ذلك.

وقال رحمه الله في الفتح (٣/ ٣٨٣):

يقال أوعيت المتاع في الوعاء أوعيه إذا جعلته فيه، ووعيت الشيء حفظته، . . . والمعنى النهي عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة، لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يعطي ولا يحسب.

يرضخ لك» أي وسعي يوسع لك[1] [١].

وقوله عليه السلام: **«اللهم أعط ممسكاً تلفاً، وأعط منفقاً خلفاً»**[2] [٢].

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٣/ ٣٨٤):

قوله: **«ارضخي»** بكسر الهمزة من الرضخ(بمعجمتين) وهو العطاء اليسير، فالمعنى أنفقي بغير إجحاف ما دمت قادرة مستطيعة.

[٢] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٣/ ٣٨٨):

قوله: **«خلفاً»** أي عوضاً، وقوله: **«أعط ممسكاً تلفاً»** التعبير بالعطية في هذه للمشاكلة لأن التلف ليس بعطيه.. ودعاء الملك بالخلف يحتمل أن يكون لأحوال الدنيا أو أحوال الآخرة، وأما الدعاء بالتلف فيحتمل تلف ذلك المال بعينه أو تلف نفس صاحب المال والمراد به فوات أعمال البر بالتشاغل بغيرها... قال القرطبي: وهو يعم الواجبات والمندوبات، لكن الممسك عن المندوبات لا يستحق هذا الدعاء إلا أن يغلب عليه البخل المذموم بحيث لا تطيب نفسه بإخراج الحق الذي عليه ولو أخرجه.

وقال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قال العلماء: هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك، بحيث لا يذم ولا يسمى سرفا، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا.

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ٦٢ و٦٣):

... فالله عز وجل وعد في كتابه أن ما أنفقه الإنسان فإن الله يخلفه عليه، يعطيه خلفاً عنه، وهذا يفسره قول الرسول عليه الصلاة والسلام في الأحاديث التي ساقها المؤلف مثل قوله ﷺ: **«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»** يعني أتلف ماله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (١٤٣٤، ٢٥٩٠، ٢٥٩١) ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٤) برقم (١٠٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٤٤٢) ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٠) برقم (١٠١٠).

. . . .

والمراد بذلك من يمسك عما أوجب الله عليه من بذل المال فيه، وليس كل ممسك يُدعى عليه، بل الذي يمسك ماله عن إنفاقه فيما أوجب الله، فهو الذي تدعو عليه الملائكة بأن الله يتلفه ويتلف ماله.

والتلف نوعان: تلف حسي، وتلف معنوي.

١ ـ **التلف الحسي**: أن يتلف المال نفسه، بأن يأتيه آفة تحرقه أو يسرق أو ما أشبه ذلك.

٢ ـ **والتلف المعنوي**: أن تنزع بركته، بحيث لا يستفيد الإنسان منه في حياته، ومنه ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال لأصحابه: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله**»؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا وماله أحب إليه.

فمالك أحب إليك من مال زيد وعمرو وخالد، ولو كان من ورثتك، قال: «**فإن ماله ما قدّم ومال وارثه ما أخّر**»[1].

وهذه حكمة عظيمة ممن أوتي جوامع الكلم ﷺ، فمالك الذي تقدمه لله عز وجل تجده أمامك يوم القيامة، ومال الوارث ما يبقى بعدك منه مالك فينتفع به ويأكله الوارث، فهو مال وارثك على الحقيقة. فأنفق مالك فيما يرضي الله، وإذا أنفقت فإن الله يخلفه وينفق عليك، كما قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: أنفق يا ابن آدم ينفق عليك**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق، حديث رقم (٦٤٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النفقات، حديث رقم (٥٣٥٢) ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة، حديث رقم (٩٩٣).

٤١ ـ باب ازدراء النعمة والاستخفاف بحرمات الله[1]

(١) بعد هذه الترجمة بياض في المخطوطة.

٤٢ ـ باب بغض الصالحين

وقـول الله تـعـالـى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحَشر: الآية ١٠] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١١٨٦):

وحَسْبُ مَنْ بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم، ويأتمّ بهداهم، ولهٰذا ذكر الله من اللاحقين، من هو مؤتم بهم، فقال: ﴿**والذين جاءوا من بعدهم**﴾، أي: من بعد المهاجرين والأنصار ﴿**يقولون**﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين، ﴿**ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان**﴾.

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، من السابقين، من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهٰذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان، المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهٰذا ذكر الله في هٰذا الدعاء، نَفْيَ الغل عن القلب، الشامل لقليله وكثيره، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو: المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿**سبقونا بالإيمان**﴾ دليل على المشاركة فيه، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هٰذا الوصف التام إلا عليهم.

ووصفهم بالإقرار بالذنوب، والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد لإخوانهم المؤمنين لأن دعاءهم بذٰلك، مستلزم لما

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «**يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب**» أخرجه[1] «معناه إذا خرج رجلان من الصفين للقتال وههنا من عادى وليّ الله فهو مبارز الله بالحرب» [١].

ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً، حيّاً وميتاً.

ودلت الآية الكريمة على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض.

ثم ختموا دعاءهم بإسمين كريمين، دالّين على كمال رحمة الله، وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل أجلّه، توفيقهم للقيام بحقوقه وحقوق عباده. فهٰؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هٰذه الأمة، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام. وهٰؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٣/ ٧٢):

نقل المؤلف رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**قال الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**» المعاداة هي المباعدة، وهي ضد الموالاة، والولي بيّنه الله عز وجل في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: الآيتان ٦٢، ٦٣] هؤلاء هم أولياء الله، ﴿**الذين آمنوا**﴾ أي حققوا الإيمان في قلوبهم بكل ما يجب الإيمان به، ﴿**وكانوا يتقون**﴾ أي حققوا العمل الصالح بجوارحهم، فاتقوا جميع المحارم من ترك الواجبات، أو فعل المحرمات، فهم جمعوا بين صلاح الباطن بالإيمان، وصلاح الظاهر بالتقوى، هؤلاء هم أولياء الله.

وليست ولاية الله سبحانه وتعالى تأتي بالدعوى، كما يفعله بعض الدجالين الذين يموهون على العامة بأنهم أولياء لله وهم أعداء والعياذ بالله، فتجد في بعض البلاد الإسلامية أناساً يموهون للعامة؛ يقولون نحن أولياء، ثم يفعل من العبادات الظاهرة ما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٣١) برقم (٦٥٠٢).

. . . .

يموه به على العامة وهو من أعداء الله، لكنه يتخذ من هذه الدعوة وسيلة إلى جمع المال، وإلى إكرام الناس له، وإلى تقربهم إليه وما أشبه ذلك.

وعندنا ولله الحمد ضابط بيّنه الله عز وجل، وتعريف جيد للأولياء ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ هؤلاء هم أولياء الله. فالذي يعادي أولياء الله يقول الله عز وجل: «**فقد آذنته بالحرب**» يعني أعلنت عليه الحرب. فالذي يعادي أولياء الله محارب لله عز وجل نسأل الله العافية، ومن حارب الله فهو مهزوم مخذول لا تقوم له قائمة.

وفي هذا الحديث عدة فوائد:

أولاً: إثبات الولاية لله عز وجل، وولاية الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

ولاية عامة: وهي السلطة على جميع العباد، والتصرف فيهم بما أراد. كل إنسان فإن الذي يتولى أموره وتدبيره وتصريفه هو الله عز وجل، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعَام: الآية ٦١ ـ ٦٢] فهذه ولاية عامة تشمل جميع الخلق.

أما الولاية الخاصة: مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٧] والولاية العامة تكون بغير سبب من الإنسان، يتولى الله الإنسان شاء أم أبى وبغير سبب منه، أما الولاية الخاصة فإنها تكون بسبب من الإنسان فهو الذي يتعرض لولاية الله حتى يكون الله وليّاً له، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يُونس: الآية ٦٣] ومن فوائد هذا الحديث فضيلة أولياء الله، وأن الله سبحانه وتعالى يعادي من عاداهم، بل يكون حرباً عليهم عز وجل.

٤٣ ـ باب الحسد

وقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: الآية ٥٤].

عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١) [١].

---

[١] تقدم شرحه في الباب رقم (٩) وقال الحافظ المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٢/٦٥٠٧):

«**لا يؤمن أحدكم**» إيماناً كاملاً، فالمراد بنفيه هنا نفي بلوغ حقيقته، ونهايته من قبيل خبر: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن «**حتى يحب**» بالنصب لأن حتى جارة، وأن بعدها مضمرة، ولا يجوز الرفع فتكون حتى عاطفة لفساد المعنى إذ عدم الإيمان ليس سبباً للمحبة، ذكره الكرماني «**لأخيه**» في الإسلام من الخير فمن قصره على كف الأذى فقد قصر ولا حاجة لقول البعض هو عام مخصوص إذ المرء يحب لنفسه وطء حليلته لا لغيره، والخير كلمة جامعة تعم الطاعات والمباحات الدينية والدنيوية، وتخرج المنهيات، لأن اسم الخير لا يتناولها والمحبة إرادة ما تعتقده خيراً.

قال النووي: المحبة: الميل إلى ما يوافق المحب، وقد يكون بحواسه كحسن الصورة أو بعلته أو بعقله إما لذاته كالفضيل والكمال أو لإحسانه كجلب نفع أو دفع ضرر، والمراد هنا: الميل الاختياري دون القهري.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/٦٧) برقم (٤٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب**» رواه أبو داود(١).

عن أبي هريرة مرفوعاً: «**لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر**»(٢) [١].

«**ما يحب لنفسه**» من ذلك، وأن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من السوء، ولم يذكره لأن حب الشيء مستلزم بغض نقيضه، وذلك ليكون المؤمنون كنفس واحدة.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

معنى الحديث أن من عرف مرتبة الأنصار، وما كان منهم من نصرة دين الإسلام والسعي في إظهاره وإيواء المسلمين، وقيامهم في مهمات دين الإسلام حق القيام وحبهم النبي ﷺ وحبه إياهم، وبذلهم أموالهم وأنفسهم بين يديه، وقتالهم ومعاداتهم سائر الناس إيثاراً للإسلام... ثم أحب الأنصار لهذا كان ذلك من دلائل صحة إيمانه وصدقه في إسلامه، لسروره بظهور الإسلام والقيام بما يرضي الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، ومن أبغضهم كان بضد ذلك، واستدل به على نفاقه وفساد سريرته، والله أعلم.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٩٠٣) والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٢٧٢) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة برقم (١٩٠١، ١٩٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٨٦) برقم (٧٦).

٤٤ ـ باب سوء الظن بالمسلمين

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢] [١].

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**» رواه مسلم(١) [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره ص (١١١٦):

نهى الله عز وجل عن كثير من الظن السيء بالمؤمنين، حيث قال: ﴿**إن بعض الظن إثم**﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي.

وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه، وعداوته المأمور بخلافها منه.

[٢] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله ﷺ: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**» المراد: النهي عن ظن السوء. قال الخطابي: هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس فإن ذلك لا يملك.

ومراد الخطابي: أن المحرم من الظن ما يستمر صاحبه عليه، ويستقر في قلبه دون ما يعرض في القلب ولا يستقر، فإن هذا لا يكلف به كما سبق في حديث تجاوز الله تعالى عما تحدثت به الأمة ما لم تتكلم أو تعمد.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠/ ٤٨١) برقم (٦٠٦٤) ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٦٥) برقم (٢٥٦٣).

. . . .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٠/ ٥٩٠):

وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث مع أن تعمد الكذب لا يستند إلى ظن أصلاً أشد من الأمر الذي يستند إلى الظن، فللإشارة إلى أن الظن المنهي عنه هو الذي لا يستند إلى شيء ويجوز الاعتماد عليه فيعتمد عليه ويجعل أصلاً ويجزم به، فيكون الجازم به كاذباً وإنما صار أشد من الكاذب لأن الكذب في أصله مستقبح، مستغنى عن ذمه، بخلاف هذا فإن صحبه بزعمه مستند إلى شيء فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة في ذمه والتنفير منه، وإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالباً، ووضوح الكذب المحض.

٤٥ ـ باب ما جاء
في الكذب على الله أو على رسوله

وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٨] [١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٠] [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٨٧٧):

﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً**﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل، إلى الله ﴿**أو كذب بالحق لما جاءه**﴾ على يد رسوله محمد ﷺ، ولكن هذا الظالم العنيد أمامه جهنم ﴿**أليس في جهنم مثوى للكافرين**﴾ يؤخذ بها منهم الحق ويخزون لها، وتكون منزلهم الدائم، الذي لا يخرجون منه.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٠٠٧):

يخبر تعالى عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم تكون يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلج واضح، كأنه الصبح. فكما سوَّدوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿**أليس في جهنم مثوى للمتكبرين**﴾ عن الحق، عن عبادة ربهم، المفترين عليه؟ بلى، والله، إن فيها لعقوبة وخزياً وسخطاً، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه، باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله وشرعه.

وفي الصحيح عن أنس رضي الله تعالى عنهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ: قال: «**إنَّ كذباً عليَّ ليسَ ككذِبٍ على غيري: مَنْ كَذَب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعدهُ من النَّارِ**»[1].

ولمسلم عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**مَنْ حدَّثَ عني بحديثٍ يرى أنَّهُ كذبٌ فهوَ أحدُ الكذابِينَ**»[2] [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم:

قوله ﷺ: «**فليتبوأ مقعده من النار**». قال العلماء معناه: فلينزل. وقيل: فليتخذ منزله من النار. وقال الخطابي: أصله من مباءة الإبل وهي أعطانها. ثم قيل: إنه دعاء بلفظ الأمر، أي بوأه الله ذلك وكذا فليلج النار. وقيل: هو خبر بلفظ الأمر، أي معناه: فقد استوجب ذلك فليوطن نفسه عليه. ويدل عليه الرواية الأخرى: «**يلج النار**» وجاء في رواية: «**بني له بيت في النار**».

ثم معنى الحديث أن هذا جزاؤه وقد يجازى به وقد يعفو الله الكريم عنه ولا يقطع عليه بدخول النار. وهكذا سبيل كل ما جاء عن الوعيد بالنار لأصحاب الكبائر غير الكفر، فكلها يقال فيها هذا جزاؤه وقد يجازى وقد يعفى عنه، ثم إن جوزي وأدخل النار فلا يخلد فيها، بل لا بد من خروجه منها بفضل الله تعالى ورحمته، ولا يخلد في النار أحدٌ مات على التوحيد، وهذه قاعدة متفقٌ عليها عند أهل السنة، وسيأتي دلائلها في كتاب الإيمان قريباً إن شاء الله. والله أعلم.

وأما الكذب فهو عند المتكلمين من أصحابنا: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو، عمداً كان أو سهواً. هذا مذهب أهل السنة. وقالت المعتزلة: شرطه العمدية. ودليل خطاب هذه الأحاديث لنا فإنه قيده عليه السلام بالعمد، لكونه قد يكون عمداً وقد يكون سهواً، مع أن الإجماع والنصوص المشهورة في الكتاب والسنة متوافقةٌ متظاهرةٌ على أنه لا إثم على الناسي والغالط، فلو أطلق عليه السّلام الكذب لتوهم أنه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٢٩١) ومسلم في صحيحه برقم (٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٩).

. . . .

يأثم الناسي أيضاً، فقيده. وأما الروايات المطلقة فمحمولة على المقيدة بالعمد، والله أعلم.

واعلم أن هذا الحديث يشتمل على فوائد وجمل من القواعد:

إحداها: تقرير هذه القاعدة لأهل السنة، أن الكذب يتناول إخبار العامد والساهي عن الشيء بخلاف ما هو.

الثانية: تعظيم تحريم الكذب عليه ﷺ، وأنه فاحشة عظيمة وموبقة كبيرة، ولكن لا يكفر بهذا الكذب إلا أن يستحله. هذا هو المشهور من مذاهب العلماء من الطوائف. وقال الشيخ أبو محمد الجويني، والد إمام الحرمين أبي المعالي من أئمة أصحابنا: يكفر بتعمد الكذب عليه ﷺ. حكى إمام الحرمين عن والده هذا المذهب وأنه كان يقول في درسه كثيراً: من كذب على رسول الله ﷺ عمداً كفر وأريق دمه، وضعف إمام الحرمين هذا القول وقال: إنه لم يره لأحد من الأصحاب، وأنه هفوة عظيمة، والصواب ما قدمناه عن الجمهور، والله أعلم.

ثم إن من كذب على رسول الله ﷺ عمداً في حديث واحد فسق وردت رواياته كلها، وبطل الاحتجاج بجميعها. فلو تاب وحسنت توبته فقد قال جماعة من العلماء، منهم أحمد بن حنبل وأبو بكر الحميدي شيخ البخاري وصاحب الشافعي وأبو بكر الصيرفي من فقهاء أصحابنا الشافعيين وأصحاب الوجوه منهم ومتقدميهم في الأصول والفروع: لا تؤثر توبته في ذلك ولا تقبل روايته أبداً، بل يحتم جرحه دائماً، وأطلق الصيرفي وقال: كل من أسقطنا خبره من أهل النقل بكذب وجدناه عليه لم نعد لقبوله بتوبته تظهر، ومن ضعفنا نقله لم نجعله قوياً بعد ذلك. قال: وذلك مما افترقت فيه الرواية والشهادة، ولم أر دليلاً لمذهب هؤلاء، ويجوز أن يوجه بأن ذلك جعل تغليظاً وزجراً بليغاً عن الكذب عليه ﷺ لعظم مفسدته، فإنه يصير شرعاً مستمراً إلى يوم القيامة. بخلاف الكذب على غيره والشهادة، فإن مفسدتهما قاصرة ليست عامة.

قلت: وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة ضعيفٌ مخالفٌ للقواعد الشرعية. والمختار: القطع بصحة توبته في هذا، وقبول رواياته بعدها إذا صحت توبته بشروطها المعروفة وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها. فهذا

. . . .

هو الجاري على قواعد الشرع. وقد أجمعوا على صحة رواية من كان كافراً فأسلم، وأكثر الصحابة كانوا بهذه الصفة، وأجمعوا على قبول شهادته ولا فرق بين الشهادة والرواية في هذا، والله أعلم.

الثالثة: أنه لا فرق في تحريم الكذب عليه ﷺ بين ما كان في الأحكام وما لا حكم فيه، كالترغيب والترهيب والمواعظ وغير ذلك. فكله حرام من أكبر الكبائر وأقبح القبائح، بإجماع المسلمين الذين يعتد بهم في الإجماع، خلافاً للكرامية الطائفة المبتدعة في زعمهم الباطل أنه يجوز وضع الحديث في الترغيب والترهيب، وتابعهم على هذا كثيرون من الجهلة الذين ينسبون أنفسهم إلى الزهد، أو ينسبهم جهلة مثلهم. وشبهة زعمهم الباطل أنه جاء في رواية: «من كذب عليّ متعمداً ليضل به فليتبوأ مقعده من النار»، وزعم بعضهم: أن هذا كذب له عليه الصلاة والسلام لا كذب عليه، وهذا الذي انتحلوه وفعلوه واستدلوا به غاية الجهالة ونهاية الغفلة. وأدل الدلائل على بعدهم من معرفة شيء من قواعد الشرع. وقد جمعوا فيه جملاً من الأغاليط اللائقة بعقولهم السخيفة وأذهانهم البعيدة الفاسدة، فخالفوا قول الله عزّ وجلّ: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾** وخالفوا صريح هذه الأحاديث المتواترة والأحاديث الصريحة المشهورة في إعظام شهادة الزور، وخالفوا إجماع أهل الحل والعقد، وغير ذلك من الدلائل القطعيات في تحريم الكذب على آحاد الناس، فكيف بمن قوله شرع وكلامه وحي، وإذا نظر في قولهم وجد كذباً على الله تعالى. قال الله تعالى: **﴿وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى﴾** ومن أعجب الأشياء قولهم: هذا كذب له. وهذا جهل منهم بلسان العرب وخطاب الشرع، فإن كل ذلك عندهم كذب عليه.

وأما الحديث الذي تعلقوا به فأجاب العلماء عنه بأجوبة أحسنها وأخصرها أن قوله: **«ليضل الناس»** زيادة باطلة اتفق الحفاظ على إبطالها، وأنها لا تعرف صحيحة بحال.

الثاني: جواب أبي جعفر الطحاوي: أنها لو صحت لكانت للتأكيد، كقول الله تعالى: **﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس﴾**.

. . . .

الثالث: أن اللام في «**ليضل**» ليست لام التعليل، بل هي لام الصيرورة والعاقبة. معناه: أن عاقبة كذبه ومصيره إلى الإضلال به كقوله تعالى: ﴿**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً**﴾. ونظائره في القرآن وكلام العرب أكثر من أن يحصره. وعلى هذا، يكون معناه: فقد يصير أمر كذبه إضلالاً. وعلى الجملة، مذهبهم أرَكُّ[1] من أن يعتنى بإيراده، وأبعد من أن يهتم بإبعاده، وأفسد من أن يحتاج إلى إفساده، والله أعلم.

الرابعة: يحرم رواية الحديث الموضوع على من عرف كونه موضوعاً أو غلب على ظنه وضعه، فهو داخل في هذا الوعيد، مندرج في جملة الكاذبين على رسول الله ﷺ. ويدل عليه أيضاً الحديث السابق: «**من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين**».

ولهذا قال العلماء: ينبغي لمن أراد رواية حديث أو ذكره أن ينظر، فإن كان صحيحاً أو حسناً قال: قال رسول الله ﷺ كذا أو فعله أو نحو ذلك من صيغ الجزم، وإن كان ضعيفاً فلا يقل: قال أو فعل أو أمر أو نهى وشبه ذلك من صيغ الجزم، بل يقول: روي عنه كذا، أو جاء عنه كذا، أو يروى أو يذكر أو يحكى أو يقال أو بلغنا وما أشبهه، والله سبحانه أعلم.

قال العلماء: وينبغي لقارىء الحديث أن يعرف من النحو واللغة وأسماء الرجال ما يسلم به من قوله ما لم يقل، وإذا صح في الرواية ما يعلم أنه خطأ. فالصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف أنه يرويه على الصواب، ولا يغيره في الكتاب، لكن يكتب في الحاشية أنه وقع في الرواية كذا، وأن الصواب خلافه وهو كذا، ويقول عند الرواية: كذا وقع في هذا الحديث، أو في روايتنا، والصواب كذا. فهذا أجمع للمصلحة، فقد يعتقده خطأ ويكون له وجه يعرفه غيره، ولو فتح باب تغيير الكتاب لتجاسر عليه غير أهله.

قال العلماء: وينبغي للراوي وقارىء الحديث إذا اشتبه عليه لفظةُ فقرأه على الشك أن يقول عقيبه: أو كما قال، والله أعلم.

---

(١) أي أضعف.

٤٦ ـ باب ما جاء في القول على الله بلا علم

وقـول الله تـعـالـى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٣] [١].

قال أبو مُوسَى: مَنْ علَّمَهُ الله علماً فليعلمهُ النَّاسَ وإيَّاهُ أنْ يقولَ مَا لاَ عِلمَ لهُ

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٣٦٥):

ثم ذكر المحرمات، التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال: ﴿**قل إنما حرّم ربي الفواحش**﴾ أي: الذنوب الكبار، التي تستفحش وتستقبح، لشناعتها وقبحها، وذلك، كالزنا، واللواط، ونحوهما.

وقوله: ﴿**ما ظهر منها وما بطن**﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر، والعجب والرياء، والنفاق، ونحو ذلك. ﴿**والإثم والبغي بغير الحق**﴾ أي: الذنوب التي تؤثم، وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس، في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، فدخل في هذا، الذنوب المتعلقة بحق العباد.

﴿**وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً**﴾ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك، هو: أن يشرك مع الله في عبادته، أحد من الخلق. وربما دخل في هذا، الشرك الأصغر، كالرياء، والحلف بغير الله، ونحو ذلك.

﴿**وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه. فكل هذه قد حرّمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجرؤ على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

بِهِ فيكون من المتكلفين، ويمرقُ مِنَ الدين.

وفي الصحيح عن ابن عمرو رضي الله عنهُ مرفوعاً: **«إنَّ الله لاَ يقبضُ العلم انتزاعاً ينتزعهُ من قلوبِ الرجالِ. ولكنْ يقبضُ العلمَ بموتِ العلمَاء حتَّى إذا لمْ يبقَ عالمٌ اتخَذَ النَّاسُ رؤوساً جهَّالاً فسئلوا فأفْتَوا بِغَير عِلْم فضلوا وأضلُّوا»**(1) [١].

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١/ ٢٦٠):

قوله: **«لا يقبض العلم انتزاعاً»** أي محواً من الصدور، قوله: **«حتى إذا لم يبق عالم»** أي لم يبق الله عالماً.. وفي هذا الحديث الحث على حفظ العلم، والتحذير من ترئيس الجهلة، وفيه أن الفتوى هي الرياسة الحقيقية وذم من يقدم عليها بغير علم.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٣/ ١٦٤٢):

قوله: **«إن الله لا يقبض العلم»** المؤدى لمعرفة الله والإيمان به وعلم أحكامه، إذ العلم الحقيقي هو ذلك **«انتزاعاً»** مفعول مطلق قدم على فعله وهو يتنزعه أي محواً يمحوه، قيل: ولا يجوز تقديمه لأنه مؤكد ورتبته التأخير؛ لأنه كالتابع فيكون إما منصوباً بفعل يفسره ما بعده وإما مفعول لقوله لا يقبض **«من»** صدور **«العباد»** الذين هم العلماء؛ لأنه أكرم الأكرمين وهو وهبهم إياه فلا يسترجعه **«ولكن يقبض العلم»** وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التعظيم كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: الآية ٢] بعد قوله ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية ١] **«بقبض العلماء»** أي بموتهم فيقبض العلم بتضييع التعلم فلا يوجد فيمن بقى من يخلف من مضى وفي رواية للبخاري بدل هذا: **«لكن ينتزعه منهم بقبض العلماء بعلمهم»**، وتقديره ينتزعه بقبض العلماء مع علمهم ففيه نوع قلب، وفي رواية: **«لكن ذهابه قبض العلماء»** ومعانيها متقاربة قال ابن المنير: محو العلم من الصدور جائز في القدرة لكن الحديث دل على عدم وقوعه **«حتى»** ابتدائية دخلت على الجملة **«إذا لم يبق»** بضم أوله وكسر القاف **«عالماً»** وفي رواية: **«يبق عالم»** بفتح الياء والقاف وفي رواية: **«إذا لم يترك»** وعبر بإذا دون إن إيماء إلى أنه كائن لا محالة بالتدريج **«اتخذ»** أصله ايتخذ قلبت الهمزة تاء ثم أدغمت التاء في التاء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٠٠ و٧٣٠٧) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٧٣).

. . . .

«**الناس رؤساء**» روى بضم الهمزة والتنوين جمع رأس وروى بفتحها وهم آخره جمع رئيس، قال النووي كلاهما صحيح لكن الأول أشهر والمراد بالناس جميعهم، فلا يصح أن الناس اتخذوا رؤساء جهالاً إلا عند عدم العلم مطلقاً فسقط ما توهم من أن إذا شرطية ويلزم من انتفاء الشرط انتفاء المشروط ومن وجوده وجوده لكنه ليس كذلك؛ لجواز حصول الإيجاد مع وجود العالم وهذا حث على لزوم العلم «**جهالاً**» جهلاً بسيطاً أو مركباً «**فسئلوا**» بالبناء للمجهول وضميره يعود إلى رؤساء «**فأفتوا بغير علم**» في رواية: «**برأيهم**» أي استكباراً وأنفة عن أن يقولوا: لا نعلم «**فضلوا**» في أنفسهم «**وأضلوا**» من أفتوه وفي رواية: «**وضلوا عن سواء السبيل**».

وهذا تحذير من ترئيس الجهلة وأن الفتوى هي الرئاسة الحقيقية وذم من يقدم عليها بلا علم وأن قبض العلم موت حملته لا محوه منهم، ولا يلزمن من بقاء القرآن حينئذ بقاء العلم؛ لأنه مستنبط منه، ولا يلزم من المستنبط نفي المستنبط منه والعالم وإن كان قارئاً فهو أخص ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم، وفيه جواز خلو الزمان عن مجتهد وعليه الجمهور خلافاً لأكثر الحنابلة وترئيس أهل الجهل ويلزمه الحكم بالجهل وهذا كما قال الكرماني: نعم القضاة الجاهلين إذ الحكم بشيء يستلزم الفتوى به ثم إن ذا لا يعارضه خبر: «**لا تزال طائفة**» إلخ، محل ذا على أصل الدين وذاك على فروعه أو أنه لا يقبض العلم إلى زمن مبادىء الأشراط قبل استحكام نهايتها فإذا أزفت الآزفة وأفرط قرب قيام الساعة، وما أمر الله زال الكل فيحمل الخبر على زمنين مختلفين يزول التعارض من البين.

(**تتمة**) قال الراغب: لا شيء أوجب على السلطان من رعاية أحوال المتصدين للرياسة بالعلم فمن الإخلال بها ينتشر الشر ويكثر الأشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر وذلك أن السواس أربعة: الأنبياء وحكمهم على الخاصة ظاهرهم وباطنهم، والحكماء وحكمهم على بواطن الخاصة والوعاظ وحكمهم على بواطن العامة وصلاح العالم برعاية أمر هذه الساسات لتخدم العامة الخاصة وتسوس الخاصة العامة، وفساده في عكس ذلك، ولما ترشح قوم للزعامة في العلم بغير

. . . .

استحقاق أحدثوا بجهلهم بدعاً، استغنوا بها عامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة، فوجدوا من العامة مساعدة بمشاركتهم لهم وقرب جوهرهم منهم، وفتحوا بذلك طرقاً منسدة ورفعوا به ستوراً مسبلة، وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوها بالوقاحة وبما فيهم من الشره فبدعوا العلماء وجهلوهم اغتصاباً لسلطانهم ومنازعة لمكانهم، فأعزوا بهم أتباعهم حتى وطئوهم بأظلافهم وأخفافهم فتولد بذلك البوار والجور العام والعار.

٤٧ ـ باب ما جاء في شهادة الزور.

وقول الله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحجّ: الآية ٣٠] [١].

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً: «**إن الطير لتخفق بأجنحتها وترمي ما في خواصلها من هول يوم القيامة، وإن شاهد الزور لا تزول قدمه حتى يتبوأ مقعده من النار**»(١).

ولهما من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ: «**ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت(٢) [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٧٣٠):
﴿**واجتنبوا قول الزور**﴾ أي جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور.
[٢] تقدم شرحه في الباب رقم (١).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه رقم (٢٣٧٣) مختصراً والحاكم في المستدرك (٤/ ٩٨) بنحوه وهو حديث موضوع كما قال شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن ابن ماجه رقم (٥١٩) والضعيفة برقم (١٢٥٩).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٦٥٤) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٩١) رقم (٨٧).

٤٨ ـ باب ما جاء في اليمين الغموس

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: **«مَنْ حَلَفَ عَلَى مَال امرِىءٍ مسلم بغيرِ حقهِ لقِيَ الله وهوَ عليهِ غضبانُ»** ثُمَّ قرأَ علينا رسولُ الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧٧] (١).

ولمسلم عن أبي أمامةَ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: **«مَن اقتطعَ حقَّ امرىء مُسلم بغير حقٍّ لقيَ اَلله وهوَ عليهِ غضبانُ»** وفي روايةٍ: **«فقَدْ أوجب الله لهُ النَّار وحرمَ عليهِ الجنَّة»** فقال رجلٌ: وإنْ كانَ شيئاً يسيراً يا رسول الله قَالَ: **«وَإنْ كَانَ قضيباً من أراكٍ»**(٢) [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله ﷺ: **«من اقتطع حق امريء مسلم بيمينه..»** إلخ فيه لطيفة وهي أن قوله ﷺ **«حق امرىء»** يدخل فيه من حلف على غير مال، كجلد الميتة والسرجين وغير ذلك من النجاسات التي ينتفع بها، وكذا سائر الحقوق التي ليست بمال، كحد القذف ونصيب الزوجة في القسم وغير ذلك. وأما قوله ﷺ: **«فقد أوجب الله تعالى له النار وحرم عليه الجنة»** ففيه جوابان: أحدهما: أنه محمول على المستحل لذلك، إذا مات على ذلك فإنه يكفر ويخلد في النار، والثاني: معناه فقد استحق النار، ويجوز العفو عنه، وقد حرم عليه دخول الجنة أول وهلة مع الفائزين.

وأما تقييده ﷺ بالمسلم، فليس يدل على عدم تحريم حق الذمي بل معناه أن هذا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٣٥٦، ٢٣٥٧) ومسلم في كتاب الإيمان (١/ ١٢٢) رقم (١٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ١٢٢) برقم (١٣٧).

. . . .

الوعيد الشديد وهو أنه يلقى الله تعالى وهو عليه غضبان لمن اقتطع حق المسلم وأما الذمي فاقطاع حقه حرام لكن ليس يلزم أن تكون فيه هذه العقوبة العظيمة. ثم إن هذه العقوبة لمن اقتطع حق المسلم ومات قبل التوبة أما من تاب فندم على فعله ورد الحق إلى صاحبه وتحلل منه وعزم على أن لا يعود فقد سقط عنه الإثم والله أعلم.

٤٩ ـ باب ما جاء في قذف المحصنات

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآية [النُّور: الآية ٢٣] [١].

ولهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «اجتنبُوا السبعَ الموبقاتِ» قالوا: وَمَا هُنَّ يَا رسولَ الله؟ قالَ: «**الشركُ بالله، والسحرُ، وقتلُ النَّفسِ التي حَرَّمَ الله إلاَّ بالحَقِّ، وأكلُ الرِّبَا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والتولي يومَ الزحفِ، وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمِنَاتِ**»(١) [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٧٧٠):

ذكر سبحانه الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: **﴿إن الذين يرمون المحصنات﴾** أي: العفائف عن الفجور **﴿الغافلات﴾** اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن **﴿المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة﴾** واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير. وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين **﴿ولهم عذاب عظيم﴾** وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة نقمته.

[٢] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه على كتاب التوحيد (ص ٤٩٤ وما بعدها):

قوله: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**.

النبي ﷺ أنصح الخلق للخلق؛ فكل شيء يضر الناس في دينهم ودنياهم يحذرهم منه، ولهذا قال: **«اجتنبوا»**، وهي أبلغ من قوله: اتركوا؛ لأن الاجتناب معناه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٧٦٦ و٦٨٥٧) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٩٢) برقم (٨٩).

. . . .

أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البُعد عنها.

و«**اجتنبوا**»؛ أي: اتركوا، بل أشد من مجرد الترك؛ لأن الإنسان قد يترك الشيء وهو قريب منه، فإذا قيل: اجتنبه؛ يعني: اتركه مع البُعد.

وقوله: «**السبع الموبقات**». هذا لا يقتضي الحصر؛ فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبي ﷺ يحصر أحياناً بعض الأنواع والأجناس، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها.

ومن ذلك حديث: السبعة «**الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»(١)؛ فهناك غيرهم، ومثله:

«**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**»، ثم قال: «**المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»(٢)، وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حديث أبي هريرة في الباب على الحصر لكونه وقع بـ«أل» المعرفة؛ فإنه حصرها لأن هذه أعظم الكبائر.

قوله: «**قالوا: يا رسول الله! وما هن؟**».

كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم، والنبي ﷺ إذا ألقى إليهم الشيء مبهماً طلبوا تفسيره وتبيينه، فلما حذرهم النبي ﷺ من السبع الموبقات قالوا ذلك لأجل أن يجتنبوهن، فأخبرهم، وعلى هذه القاعدة [أن الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم]، لكن ما كانت الحكمة في إخفائه؛ فإن النبي ﷺ لا يخبرهم؛ كقوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة**» متفق عليه، ولم يَرد تبيينها عن النبي ﷺ في حديث صحيح.

وقد حاول بعض الناس أن يصحح حديث سرد الأسماء التسعة والتسعين،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجماعة والإمامة/ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة حديث رقم (٦٦٠)، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة/ باب فضل إخفاء الصدقة حديث رقم (٢٣٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان/ باب غلظ تحريم إسبال الإزار حديث رقم (٢٨٩).

. . . .

ولم يصب، بل نقل شيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفة في الحديث على أن عدها وسردها لا يصح عن النبي ﷺ[١]، وصدق رحمه الله بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حاول تصحيح هذا الحديث؛ قال: إن الثواب عظيم، «**مَن أحصاها دخل الجنة**»؛ فلا يمكن للصحابة أن يُفَوِّتوه، فلا يسألوا عن تعيينها فدل هذا على أنها قد عُيِّنت من قبل النبي ﷺ.

لكن يُجاب عن ذلك بأنه ليس بلازم، ولو عينها النبي ﷺ؛ لكانت هذه الأسماء التسع والتسعين معلومة للعالم أشد من علم الشمس، ولنقلت في «الصحيحين» وغيرهما؛ لأن هذا مما تدعو الحاجة إليه، وتلح بحفظه والعناية به؛ فكيف لا يأتي إلا عن طريق واهية وعلى صور مختلفة؟!

فالنبي ﷺ لم يبينها لحكمة بالغة، وهي أن يطلبها الناس ويتحروها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ حتى يعلم الحريص من غير الحريص.

كما ولم يبين النبي ﷺ ساعة الإجابة يوم الجمعة، والعلماء اختلفوا في حديث أبي موسى الذي في مسلم؛ حيث قال فيه: «**إنها ما بين أن يخرج الإمام إلى أن تقضي الصلاة**»[٢]؛ فإن بعضهم صححه وبعضهم ضعفه، لكن هو عندي صحيح؛ لأن علة التضعيف فيه واهية، والحال تؤيد صحته؛ لأن الناس مجتمعون أكبر اجتماع في البلد على صلاة مفروضة؛ فيكون هذا الوقت في هذه الحال حرياً بإجابة الدعاء، وكذلك ليلة القدر لم يبينها النبي ﷺ مع أنها من أهم ما يكون.

وقوله: «**الموبقات**»؛ أي: المهلكات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: الآية ٥٢] أي: مكان هلاك.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوي» (٦/ ٣٨٢): «تعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة/باب في الساعة التي في يوم الجمعة حديث رقم (١٩٧٢).

. . . .

قوله: **«قالوا: يا رسول الله وما هن؟»**. سألوا عن تبيينها، وبه تتبين الفائدة من الإجمال، وهي أن يتطلع المُخاطَب لبيان هذا المجمل؛ لأنه إذا جاء مبيناً من أول وهلة؛ لم يكن له التلقي والقبول كما إذا أجمل ثم بُين.

قوله: **«وما هن»**. «ما»: اسم استفهام مبتدأ، و«هن»: خبر المبتدأ.

وقيل: بالعكس، «ما»: خبر مقدم وجوباً؛ لأن الاستفهام له الصدارة، و«هن»: مبتدأ مؤخر.

لأن «هن» ضمير معرفة، و«ما» نكرة، والقاعدة المتبعة أنه يُخْبَر بالنكرة عن المعرفة ولا عكس.

قوله: قال: **«الشرك بالله»**. قدمه لأنه أعظم الموبقات؛ فإن أعظم الذنوب أن تجعل لله نداً وهو خلقك.

والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته.

فمن اعتقد أن مع الله خالقاً أو معيناً؛ فهو مشرك، أو أن أحداً سوى الله يستحق أن يُعبد؛ فهو مشرك وإن لم يعبده، فإن عبده؛ فهو أعظم، أو أن لله مثيلاً في أسمائه؛ فهو مشرك، أو أن الله استوى على العرش كاستواء الملك على عرش مملكته؛ فهو مشرك، أو أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى؛ فهو مشرك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: الآية ٧٢].

وبين ﷺ أن الشرك أعظم ما يكون من الجناية والجُرْم بقوله حين سُئل: أي الذنب أعظم: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الديات/ باب قوله تعالى: **﴿ومن يقتل مؤمناً..﴾** حديث رقم (٦٤٦٨) وفي غير موضع، ومسلم في كتاب الإيمان/ باب كون الشرك أقبح الذنوب حديث رقم (٢٥٣).

. . . .

فالذي خلقك وأوجدك وأمدك ورزقك كيف تجعل له نداً؟ فلو أن أحداً من الناس أحسن إليك بما دون ذلك، فجعلت له نظيراً؛ لكان هذا الأمر بالنسبة إليه كفراً وجحوداً.

قوله: **«والسحر»**؛ أي: من الموبقات، وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير.

لأنه إن كان بواسطة الشياطين؛ فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم؛ فهو داخل في الشرك بالله.

وإن كان دون ذلك؛ فهو أيضاً جرم عظيم؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم؛ فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، ويُقلقُه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمي؛ فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله ـ عز وجل ـ.

قوله: **«وقتل النفس»**؛ القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس: البدن الذي فيه الروح، والمراد بالنفس هنا: نفس الآدمي وليس نفس البعير والحمار وما أشبهها.

وقوله: **«التي حرم الله»**. مفعول «حرّم» محذوف تقديره: حرم قتلها؛ فالعائد على الموصول محذوف.

وقوله: **«إلا بالحق»**؛ أي: بالعدل؛ لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام؛ فالمراد به العدل، وإذا ذكر بإزاء الأخبار؛ فالمراد به الصدق، والعدل: هو ما أمر الله به ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: الآية ٩٠].

والنفس المحرمة أربعة أنفس، هي: نفس المؤمن، والذمي، والمُعاهَد، والمُستأمن؛ بكسر الميم: طالب الأمان.

فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة ـ الذمي، والمعاهد، والمستأمن ـ: أن الذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة؛ أي: عهد على أن يقيم في بلادنا معصوماً مع بذل الجزية.

. . . .

وأما المعاهد؛ فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه.

وأما المستأمن؛ فهو الذي ليس بيننا وبينه ذمة ولا عهد، لكننا أمنّاه في وقت محدد؛ كرجل حربي دخل إلينا بأمان للتجارة ونحوها، أو ليَفهَم الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: الآية ٦] وهناك فرق آخر، وهو أن العهد يجوز من جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هو المشهور من المذهب، والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار.

فهذه الأنفس الأربع قتلها حرام، لكنها ليست على حد سواء في التحريم؛ فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى؟

أشك في ذلك؛ لأن المستأمن من له عهد خاص، بخلاف المعَاهَدين؛ فالمعاهَدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم؛ فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأياً كان؛ فالحديث عام، وكل منهم معصوم الدم والمال.

وقوله: **«إلا بالحق»**؛ أي: مما يوجب القتل، مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

قوله: **«وأكل الربا»**. الربا في اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: الآية ٥] ؛ يعني: زادت.

وفي الشرع: تفاضل في عقد بين أشياء يجب فيها التساوي، ونَسَأ في عقد بين أشياء يجب فيها التقابض.

والربا: ربا فضل؛ أي: زيادة، وربا نسيئة؛ أي: تأخير، وهو يجري في ستة أموال بيّنها الرسول ﷺ في قوله: **«الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح»**[1]؛ فهذه هي الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إن بعت منها جنساً بمثله جرى فيه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساقاة/ باب الصرف حديث رقم (٤٠٣٧ ـ ٤٠٣٩).

. . . .

ربا الفضل وربا النسيئة، فلو زدت واحداً على آخر؛ فهو ربا فضل، أو سويته لكن أخّرت القبض؛ فهو ربا نسيئة، وربما يجتمع النوعان كما لو بعت ذهباً بذهب متفاضلاً والقبض متأخر؛ فقد اجتمع في هذا العقد ربا الفضل وربا النسيئة، وعلى هذا، فإذا بعت جنساً بجنسه؛ فلا بد من أمرين: التساوي، والتقابض في مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة؛ أي: اتفق المقصود في العوضَين؛ فإنه يجري ربا النسيئة دون ربا الفضل؛ فذهب بفضة متفاضلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساوياً مع التأخير ربا لتأخر القبض.

قال ﷺ: **«فإذا اختلفت هذه الأصناف؛ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»**[1].

وقولنا: اتفقا في الغرض والمقصود احترازاً مما إذا اختلف الغرض منها.

فالذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت.

وعلى هذا يجوز بيع صاع من البر بدينار من الذهب مع التفرق وعدم التساوي لاختلاف القصد؛ لأن هذا يقصد به النقد والثَّمَنيَّة، وهذا يقصد به القوت.

فإن قيل: الحديث يدل على أنه لا يصح إلا بالقبض؛ فما هو الجواب؟

نقول: حقيقة إن هذا مقتضى الحديث أنك إذا بعت ذهباً ببر وجب التقابض؛ لقوله ﷺ: **«فإذا اختلفت هذه الأصناف؛ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»**.

والجواب عن هذا أن نقول: قد دلت السنة من وجه آخر على أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمناً، قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يُسلفون في الثمار السنة والسنتين، فقال: **«من أسلف في شيء؛ فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم»**[2].

وعلى هذا؛ فحديث: **«فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»** لا عموم لمفهومه؛ فلا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساقاة/ باب الصرف حديث رقم (٤٠٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب السلم/باب السلم في وزن معلوم حديث رقم (٢٢٣٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة/ باب السلم حديث رقم (٤٠٩٤).

. . . .

يشترط القبض في كل صورة من صور المخالفة، وإنما يشترط القبض فيما إذا اتفقا في الغرض؛ كذهب بفضة، أو بر بشعير، وأما ذهب أو فضة بشعير ونحوه؛ فلا يشترط القبض.

واختلف العلماء فيما عدا هذه الأصناف الستة؛ فالظاهرية قالوا: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة؛ لأنهم لا يرون القياس، فيقتصر على ما جاء به النص، فيجوز عندهم مبادلة أرز بذرة متفاضلاً مع تأخر القبض؛ لأنهما لا يدخلان في المنصوص عليه.

وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة؛ فإنهم عَدّوا الحكم إلى غيرها؛ إلا أن بعضاً منهم لم يُعَدّ الحكم إلى غيرها، وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيل رحمه الله؛ فإنه قال: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة، لا لأنه لا قياس، ولكن لأن العلماء اختلفوا واضطربوا في العلة التي من أجلها كان الربا، فلما اضطربوا في العلة ألغينا جميع هذه العلل، وأبقينا النص على ما هو عليه من الحصر في المنصوص عليه.

والصحيح أن الربا يجري في غير الأصناف الستة، وأن العلة هي الكيل والادخار مع الطعم، وهو أن يكون قوتاً مدخراً، وهذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة: العلة هي الجنس والثَّمَنِيَّة، فقولنا: «الجنس» لأجل أن يشمل الحلي إذا بيع بعضه ببعض، فيجري فيه الربا، مع أنه ليس بثمن، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة؛ فإنها بمنزلة الذهب والفضة، أو يقال: العلة الثمنية فقط والحلي خارج عن الثمنية خروجاً طارئاً؛ لأن التحلي طارىء، والأصل في الذهب والفضة الثمنية؛ لأنهما ثمن الأشياء.

وأما الملح؛ فقال شيخ الإسلام: إنه يصلح به القوت؛ أي: فهو تابع له؛ فالعلة ليس أنه قوت، لكنه من ضرورياته، ولهذا لو طحنت برّاً ولم يكن فيه ملح؛ لم يبقَ إلا أياماً فيفسد، فإذا كان فيه الملح منعه من الفساد؛ فيقول: لما كان يصلح به القوت جعل له حكمه.

وقوله: **«وأكل الربا»**. ذكر النبي ﷺ الأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال

. . . .

أهل العلم، ولهذا قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ [النِّساء: الآية ١٦١] ، ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل؛ فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: «**وأكل مال اليتيم**». اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكراً أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه؛ فليس يتيماً لا شرعاً ولا لغةً.

لأن اليتيم مأخوذ من اليُتْم، وهو الانفراد؛ أي: انفرد عن الكاسب له، لأن أباه هو الذي يكسب له.

وخص اليتيم؛ لأنه لا أحد يدافع عنه؛ ولأنه أولى أن يُرحم، ولهذا جعل الله له حقّاً في الفيء، وإذا كان أحق أن يُرحم؛ فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله؟!

ويُقال في أكل مال اليتيم ما قيل في أكل الربا؛ فليس خاصاً بالأكل، بل حتى لو استعمله في السكن أو الفرش أو الكتب أو غيرها؛ فهو داخل في ذلك.

وأكل مال غير اليتيم ليس من الكبائر؛ لأن اليتيم له شأن خاص، ولهذا توعد الله مَن يأكل أموال اليتامى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النِّساء: الآية ١٠] .

قوله: «**والتولي يوم الزحف**». التولي: بمعنى الإدبار والإعراض، ويوم الزحف؛ أي: يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار، وسُمي يوم الزحف؛ لأن الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلى بعض، كالذي يمشي زحفاً كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشي رويداً رويداً.

والتولي يوم الزحف من كبائر الذنوب؛ لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل الله، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء الله، وهذا يؤدي إلى هزيمة المسلمين.

لكن هذا الحديث خصصته الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا

. . . .

﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ١٦] .

فالله سبحانه استثنى حالتين:

الأولى: أن يكون متحرفاً لقتال؛ أي متهيئاً له، كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيىء الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته؛ فهذا لا يُعد متولياً، إنما يُعد متهيئاً.

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها؛ فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه، بشرط ألا يكون على الجيش ضرر، فإن كان على الجيش ضرر وذهبت طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش وتكسره أمام العدو؛ فإنه لا يجوز؛ لأن الضرر هنا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق؛ فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله، وفي هذا إذلال لدين الله، إلا إذا كان الكفار أكثر من مثلي المسلمين، فيجوز الفرار حينئذ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] ، أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها، كالطائرات إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين؛ فلا يجوز لهم أن يبقوا؛ لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم.

وفي هاتين الآيتين تخصيص السنة بالكتاب، وهو قليل، ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التي بين النبي ﷺ والمشركين في الحديبية أن من جاء من المشركين مسلماً يرد إليهم[1]، وهذا الشرط عام يشمل الذكر والأنثى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ﴾ [المُمتحنة: الآية ١٠] .

قوله: «**وقذف المحصنات**». القَذْف: بمعنى الرمي، والمراد به هنا الرمي بالزنا،

(١) انظر صحيح البخاري كتاب المغازي/ باب غزوة الحديبية.

. . . .

والمحصنات هنا الحرائر، وهو الصحيح، وقيل: العفيفات عن الزنا.

والغافلات: وهن: العفيفات عن الزنا البعيدات عنه، اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر.

والمؤمنات احترازاً من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها؛ فإن ذلك من الموبقات، ومع ذلك يُقام عليه الحد ـ ثمانون جلدة ـ، ولا تُقبل شهادته ويكون فاسقاً؛ فجعل الله عليه ثلاثة أمور، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: الآية ٤]، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ [النور: الآية ٥].

وهذا الاستثناء لا يشمل أول الجُمَل بالاتفاق، ويشمل آخر الجُمَل بالاتفاق، واختلف العلماء في الجملة الثانية، وهي قوله: ﴿**ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً**﴾؛ فقيل: إنه يعود إليها، وقيل: لا يعود.

وبناءً على ذلك إذا تاب القاذف: هل تقبل شهادته أم لا؟

الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم:

فمنهم مَن قال: لا تُقبل شهادته أبداً ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله أبّد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ [النور: الآية ٤]، وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لا يرتفع عنهم مطلقاً.

وقال آخرون: بل تقبل؛ لأن مبنى قبول الشهادة وردها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة؛ زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يُقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين؛ فليفعل.

وإلا؛ فالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة، وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟

الجواب: الذي عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة، وإنما

. . . .

خصّ بذلك المرأة؛ لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر؛ إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقذف المرأة أشد؛ لأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها، فيلحق بهن القذف ضرراً أكثر؛ فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلبي لا مفهوم له؛ لأنه لبيان الواقع.

٥٠ ـ باب ما جاء في ذي الوجهين

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤].

وقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: الآية ١٤٣] [١].

ولهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**تجدون شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**»(١) [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٣٢):

هذا من قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين، أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم ـ أي كبرائهم ورؤسائهم بالشر ـ قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن مستهزئون بالمؤمنين بإظهارنا لهم، أنا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

[٢] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

المراد: من يأتي كل طائفة ويظهر أنه منهم ومخالف للآخرين مبغض فإن أتى كل طائفة بالإسلام ونحوه فمحمود.

وقال الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٠/ ٥٨٢):

قال القرطبي: إنما كان ذو الوجهين شر الناس لأن حاله حال المنافق إذ هو متملق بالباطل وبالكذب، مدخل للفساد بين الناس.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٣٤٩٤ و٦٠٥٨ و٧١٧٩) ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١١) برقم (٢٥٢٦).

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «**من كان ذا لسانين جعل الله له يوم القيامة لسانين من نار**»(1) [1].

وقال النووي: هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها وصنيعه نفاق ومحض كذب وخداع وتحيل على الاطلاع على أسرار الطائفتين، وهي مداهنة محرمة. قال: فأما من يقصد بذلك الإصلاح بين الطائفتين فهو محمود. وقال غيره: الفرق بينهما أن المذموم من يزين لكل طائفة عملها ويقبحه عند الأخرى ويذم كل طائفة عند الأخرى، والمحمود أن يأتي لكل طائفة بكلام فيه صلاح الأخرى ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى، وينقل إليه ما أمكنه من الجميل ويستر القبيح.

[1] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١١/ ٥٩٨٢):

قوله ﷺ: «**من كان له وجهان في الدنيا**» يعني من كان مع كل واحد من عدوين كأنه صديقه ويعده أنه ناصر له ويذم ذا عند ذا أو ذا عند ذا يأتي قوماً بوجه وقوماً بوجه على وجه الإفساد «**كان له يوم القيامة لسانان من نار**» كما كان في الدنيا له لسان عند كل طائفة.

قال الغزالي: اتفقوا على أن ملاقاة الإثنين بوجهين نفاق، وللنفاق علامات هذه منها، نعم إن جامل كل واحد منهما وكان صادقاً لم يكن ذا لسانين، فإن نقل كلام كل منهما للآخر فهو نمام دون لسان وذلك شر من النميمة، وقيل لابن عمر: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره، قال: كنا نعده نفاقاً على عهد المصطفى ﷺ. فهذا نفاق إذا كان غنيًا عن الدخول على الأمير والثناء عليه فلو استغنى عن الدخول فدخل فخاف إن لم يثن عليه فهو نفاق لأنه المحوج نفسه إليه، فإن استغنى عن الدخول لو قنع بقليل و ترك المال والجاه فدخل لضرورتهما فهو منافق، وهذا معنى خبر حب المال والجاه ينبت النفاق في القلب، لأنه يحوج إلى رعايتهم ومداهنتهم، أما أن ابتلي به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور، فإن اتقاء الشر جائز.

---

(1) أخرجه البزار في مسنده (٢/ ٤٢٨) رقم (٢٠٢٥ كشف) وأبو داود في سننه (٤/ ٤٨٧٣) والبخاري في الأدب المفرد رقم (١٣١٠) بنحوه وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢/ ٥٨٤) برقم (٨٩٢).

٥١ ـ باب ما جاء في النميمة

وقول الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القَلَم: الآية ١١] [١].

عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً: **«لا يدخل الجنة نمام»**[(١)] [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١٢/ ١٨٣):

قوله: ﴿**همار**﴾ يعني: مغتاب للناس يأكل لحومهم ﴿**مشاء بنميم**﴾ يقول: مشاء بحديث الناس بعضهم في بعض ينقل حديث بعضهم إلى بعض.

[٢] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (١٠/ ٥٨٠ فتح):

قال الغزالي ما ملخصه: ينبغي لمن حملت إليه نميمة أن لا يصدق من نم له ولا يظن بمن نم عنه ما نقل عنه ولا يبحث عن تحقيق ما ذكر له وأن ينهاه ويقبح له فعله وأن يبغضه وإن لم ينزجر وأن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فينم هو على النمام فيصير نماماً، قال النووي: وهذا كله إذا لم يكن في النقل مصلحة شرعية وإلا فهي مستحبة أو واجبة، كمن اطلع من شخص أنه يريد أن يؤذي شخصاً ظلماً فحذره منه، وكذا من أخر الإمام أو من له ولاية بسيرة نائبه مثلاً فلا منع من ذلك، وقال الغزالي ما ملخصه: النميمة في الأصل نقل القول إلى المقول فيه ولا اختصاص لما بذلك بل ضابطها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو غيرهما، وسواء كان المنقول قولا أم فعلاً وسواء كان غيباً أم لا؟ حتى لو رأى شخصاً يخفي ماله فأفشى كان نميمة واختلف في الغيبة والنميمة هل هما متغايرتان أو متجدتان؟ والراجح التغاير وأن بينهما عموماً وخصوصاً وجيهاً وذلك لأن النميمة نقل حال الشخص لغيره

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٠٥٦) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ١٠١) رقم (١٠٥).

ولهما في حديث القبرين: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير بل إنه كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**»(١) الحديث [١].

ولمسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «**ألا هل أنبئكم ما العضة؟**

على جهة الافساد بغير رضاه سواء كان بعلمه أم بغير علمه والغيبة ذكره في غيبته بما لا يرضيه، فامتازت النميمة بقصد الإفساد ولا يشترط ذلك في الغيبة، وامتازت الغيبة بكونها غيبة المقول فيه، واشتركتا فيما عدا ذلك، ومن العلماء من يشترط في الغيبة أن يكون المقول فيه غائباً والله أعلم.

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح:

قوله «**لا يستتر**» ولمسلم «**يستنزه**» أي أنه لا يجعل بينه وبين قوله سترة يعني لا يتحفظ منه.. قوله: «**يمشي بالنميمة**» قال ابن دقيق العيد: هي نقل كلام الناس والمراد منه هنا ما كان يقصد الإصرار فأما ما اقتضى فعل مصلحة أو ترك مفسدة فهو مطلوب انتهى.

وقال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

وأما قوله «**وما يعذبان في كبير**» فقد جاء في رواية البخاري «**وما يعذبان في كبير وإنه لكبير..**» الحديث... وقد ذكر العلماء فيه تأويلين أحدهما أنه ليس بكبير في زعمهما والثاني أنه ليس بكبير تركه عليهما وحكى القاضي عياض رحمه الله تعالى تأويلاً ثالثاً: أي ليس بأكبر الكبائر قلت: فعلى هذا يكون المراد بهذا الزجر والتحذير لغيرهما أي لا يتوهم أحد أن التعذيب لا يكون إلا من أكبر الكبائر الموبقات فإنه يكون في غيرها والله أعلم. وسبب كونهما كبيرين أن عدم التنزه من البول يلزم منه بطلان الصلاة فتركه كبيرة بلا شك والمسيء بالنميمة والسعي بالفساد من أقبح القبائح لا سيما مع قوله ﷺ: «**كان يمشي**» بلفظ كان التي للحالة المستمرة غالباً والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢١٦، ٢١٨، ١٣٧٨، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥) ومسلم في صحيحه (١/ ٢٤٠) رقم (٢٩٢).

هي النميمة، القالة بين الناس»[1] [١].

---

[١] قال الإمام القرطبي رحمه الله في المفهم (٦/ ٥٩٠):

قوله ﷺ: **«ألا أنبئكم ما العَضْهُ؟»**... وهو مصدر عضهه يعضهه عضهاً: إذا رماه بكذب وبهتان، وقد رواه أكثر الشيوخ ما العِضه وهي أصوب لأن العضة اسم، والنميمة: اسم، فصح تفسير الاسم بالاسم، والعضه مصدره، ولا يحسن تفسير المصدر بالاسم... وقد فسر النبي ﷺ العضة بالنميمة لأن النميمة لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١٢) برقم (٢٦٠٦).

٥٢ ـ باب ما جاء في البهتان

وقـولِ الله تـعـالـى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٥٨] [١].

عن ابن عُمرَ مرفوعاً: «**مَنْ قالَ في مؤمنٍ ما ليسَ فيهِ أسكنهُ الله ردغةَ الخَبَالِ حَتَّى يخرُجَ ممَّا قَالَ**» رواه أبو داود بسند صحيح[(١)] [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (١٠/ ٣٣١):

﴿**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات**﴾ أي والذين يقفون المؤمنين والمؤمنات ويعيبونهم طلباً لشينهم ﴿**بغير ما اكتسبوا**﴾ يقول: ما عملوا ﴿**فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً**﴾ يقول: فقد احتملوا زوراً وكذباً وفرية شنيعة، وبهتان أفحش الكذب ﴿**وإثماً مبيناً**﴾ يقول: وإنما يبين لسامعه أنه إثم وزور.

[٢] قال العظيم آبادي رحمه الله في عون المعبود (١٠/ ٦):

«**من قال في مؤمن ما ليس فيه**» أي من المساوىء «**أسكنه الله ردغة الخبال**» قال في النهاية: بفتح الراء وسكون الدال المهملة وفتحها هي طين ووحل كثير، وجاء تفسيرها في الحديث أنها عصارة أهل النار. «**حتى يخرج مما قال**» قال القاضي: وخروجه مما قال أن يتوب عنه ويستحل من المقول فيه. وقال الأشرف: ويجوز أن يكون المعنى: أسكنه الله ردغة الخبال ما لم يخرج من إثم ما قال، فإذا خرج من إثمه

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم (٣٥٩٧) وابن ماجه في سننه رقم (٣٧٧) وأحمد في المسند (٢/ ٧٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (٤٣٨).

ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهُ مرفوعاً: «**أتدرونَ مَا الغيبةُ؟**» قالوا الله ورسولُهُ أَعْلَمُ، قال: «**ذِكْرُكَ أَخاكَ بما يكرهُ**» قيلَ: أَفَرَأَيْتَ إنْ كَانَ في أخِي مَا أَقُولُ، قَال: «**إنْ كانَ فيهِ مَا تَقولُ فَقد اغتبتهُ، وإنْ لَمْ يَكن فيهِ مَا تَقولُ فقدْ بَهَتَّهُ**»(1) [1].

أي إذا استوفى عقوبة إثمه لم يسكنه الله ردغة الخبال، بل ينجيه الله تعالى منه ويتركه.

[1] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله ﷺ: «**الغيبة ذكرك أخاك بما يكره**». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول: قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فقد بهته**» يقال: بهته بفتح الهاء مخففة، قلت: فيه البهتان وهو الباطل. والغيبة ذكر الإنسان في غيبته بما يكره. وأصل البهت أن يقال له: الباطل في وجهه، وهما حرامان لكن تباح الغيبة لغرض شرعي، وذلك لستة أسباب:

أحدها: التظلم. فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان، والقاضي، وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول ظلمني فلان، أو فعل بي كذا.

الثاني: الاستغاثة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته، فلان يعمل كذا، فازجره عنه، ونحو ذلك.

الثالث: الإستفتاء بأن يقول للمفتي: ظلمني فلان، أو أبي، أو أخي، أو زوجي بكذا فهل له ذلك، وما طريقي في الخلاص منه، ودفع ظلمه عني، ونحو ذلك. فهذا جائز للحاجة والأجود أن يقول في رجل أو زوج أو والد وولد: كان من أمره كذا. ومع ذلك فالتعيين جائز لحديث هند، وقولها: إن أبا سفيان رجل شحيح.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر، وذلك من وجوه منها جرح المجروحين من الرواة، والشهود، والمصنفين. وذلك جائز بالإجماع بل واجب صوناً للشريعة، ومنها الإخبار بعيبه عند المشاورة في مواصلته، ومنها إذا رأيت من يشتري شيئاً معيباً، أو

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠١) برقم (٢٥٨٩).

. . . .

عبداً سارقاً، أو زانياً، أو شارباً، أو نحو ذلك. تذكرة للمشتري إذا لم يعلمه نصيحة لا بقصد الإيذاء والإفساد.

ومنها إذا رأيت متفقهاً يتردد إلى فاسق، أو مبتدع يأخذ عنه علماً، وخفت عليه ضرره، فعليك نصيحته ببيان حاله قاصداً النصيحة.

ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها لعدم أهليته، أو لفسقه، فيذكره لمن له عليه ولاية ليستدل به على حاله، فلا يغتر به ويلزم الإستقامة.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه، أو بدعته كالخمر ومصادرة الناس، وجباية المكوس، وتولي الأمور الباطلة. فيجوز ذكره بما يجاهر به، ولا يجوز بغيره إلا بسبب آخر.

السادس: التعريف فإذا كان معروفاً بلقب كالأعمش، والأعرج، والأزرق، والقصير، والأعمى، والأقطع، ونحوها جاز تعريفه به، ويحرم ذكره به نقصاً ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى. والله أعلم.

٥٣ ـ باب ما جاء في اللعن

عن أبي الدرداء رضي الله تعالَى عنهُ مرفوعاً: «**إنَّ العبدَ إذَا لَعَن شيئاً صَعِدت اللعنةُ إلى السماء فتغلقُ أبوابُ السماء دونَها. ثُمَّ تهبطُ إلى الأرض فتغلقُ أبوابُهَا دونَها ثم تأخذُ يميناً وشمالاً فإذا لم تجِدْ مساغاً رجعتْ إلى الذي لُعِنَ. فإن كان أهلاً وإلاَّ رجعتْ إلى قائلها**» رواه أبو داود بسند جيد(١) [١].

وله شاهد عند أحمدَ بسندٍ حَسنٍ من حديثِ ابنِ مسعودٍ(٢).

---

[١] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٤/ ١٨٢٧):

«**إن العبد إذا لعن شيئاً**» آدمياً أو غيره بأن دعى عليه بالطرد والبعد عن رحمة الله تعالى «**صعدت**» بفتح فكسر «**اللعنة إلى السماء**» لتدخلها «**فتغلق أبواب السماء دونها**» لأنها لا تفتح إلا لعمل صالح ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠] «**ثم تهبط**» أي: تنزل «**إلى الأرض**» لتصل إلى سجين «**فتغلق أبوابها دونها**» أي تمنع من النزول «**ثم تأخذ يميناً وشمالاً**» أي: تتحير فلا تدرى أين تذهب «**فإذا لم تجد مساغاً**» أي: مسلكاً وسبيلاً تنتهى إليه لمحل تستقر فيه «**رجعت إلى الذي لعن**» بالبناء للمفعول بضبط المصنف «**فإن كان لذلك**» أي اللعنة «**أهلا**» رجعت إليه فصار مطروداً مبعوداً فإن لم يكن أهلاً لها «**رجعت**» بإذن ربها «**إلى قائلها**» لأن اللعن طرد عن رحمة الله فمن طرد ما هو أهل لرحمته عن رحمته فهو بالطرد والإبعاد عنها أحق وأجدر؛ ومحصول الحديث التحذير من لعن من لا يستوجب اللعنة والوعيد عليه بأن يرجع اللعن إليه ﴿إِنَّ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٩٠٥) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤٠٩٩) والصحيحة برقم (١٢٦٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٠٨) وانظر الصحيحة برقم (١٢٦٩).

وأخرجهُ أبو داودَ وغيرهُ من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ، رواتُه ثقاتٌ لكن أُعِلَ بالإِرْسَالِ(١).

ولمسلم عن أبي برزة رضي الله عنه مرفوعاً: أن امرأة لعنت ناقة لها، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تصحبنا ناقة عليها لعنة»**(٢) [١].

وله عن عمران نحوه(٣).

﴿فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣].

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

إنما قال هذا زجراً لها ولغيرها، وكان قد سبق نهيها ونهي غيرها عن اللعين، فعوقبت بإرسال الناقة. والمراد النهي عن مصاحبته لتلك الناقة في الطريق، وأما بيعها وذبحها وركوبها في غير مصاحبته ﷺ وغير ذلك من التصرفات التي كانت جائزة قبل هذا فهي باقية على الجواز لأن الشرع إنما ورد بالنهي عن المصاحب، فبقي الباقي كما كان.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٩٠٨) والترمذي في سننه برقم (٢٠٦١) والطبراني في معجمه (١٢/ ١٦٠) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود برقم (٤١٠٢) وانظر الصحيحة برقم (٥٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠٥) برقم (٢٥٩٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠٤) برقم (٢٥٩٥).

٥٤ ـ باب ما جاء في إفشاء السر

عن أبي سعيد مرفوعاً: «**إن من أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها**» وفي رواية: «**إن من أعظم الأمانة**» رواه مسلم(١) [١].

---

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (٤/ ٢١٣٢):

قوله ﷺ: «**إن من أعظم الأمانة**» أي من أعظم خيانة الأمانة «**عند الله تعالى يوم القيامة**» يوم ظهور الجزاء «**الرجل**» خبر إن، وفيه تقدير مضاف أي خيانة الرجل كما تقرر «**يفضي إلى امرأته**» أي يصل إليها استمتاعاً فهو كناية عن الجماع «**وتفضي إليه**» أي تستمتع به، وأصله من الفضاء. قال الراغب: الفضاء المكان الواسع، ومنه أفضى بيده، وأفضى إلى امرأته، قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: الآية ٢١] «**ثم ينشر سرها**» أي يتكلم بما جرى بينه وبينها قولاً، وفعلاً، وهذا وعيد شديد كما قال النووي في حرمة إفشاء هذا السر إذا لم يترتب عليه فائدة، وإلا كأن تدعي عجزه عن الجماع، أو إعراضه عنها، ونحو ذلك فلا يحرم بل لا يكره ذكره، واعلم أن كراهة إفشاء السر شامل لحليلته لأخرى، فإن قلت: هذا يناقضه ما علمه أنس بتوقيف أن المصطفى ﷺ أتى أزواجه بغسل واحد ولا طريق لعلمه إلا إخبار المصطفى ﷺ كما قاله الإمام البيهقي، قلت: لعل النهي عن إفشاء السر من قبيل الغيبة، أو إن كان مفصلاً أو بحضور الناس. أما ما ليس من قبيل الغيبة وهو إجمالي لمن لا يحتشمه كخادمه فليس منهياً، أو يقال: إنما قصد بإعلام أنس بيان الجواز.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٦٠) برقم (١٤٣٧).

وعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «**إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة**» حسنه الترمذي[1] [٢].

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله في شرحه لرياض الصالحين (٧/ ٤٢):

فهنا «**إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه**» يعني بذلك الزوجة «**فيصبح ينشر سرّها**» أو هي أيضاً تصبح تنشر سره، فيقول فعلت في امرأتي البارحة كذا وفعلت كذا، والعياذ بالله، فالغائب كأنه يشاهد. كأنه بينهما في الفراش، والعياذ بالله، يخبره بالشيء السر الذي لا تحب الزوجة أن يطلع عليه أحد.

أو الزوجة كذلك تخبر النساء بأن زوجها يفعل بها كذا وكذا، وكل هذا حرام ولا يحل، وهو من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة.

فالواجب أن الأمور السرية في البيوت وفي الفرش وفي غيرها تحفظ وألا يطلع عليها أحد أبداً. فإن من حَفَظَ سر أخيه حفظ الله سرّه فالجزاء من جنس العمل.

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (١٠/ ٣٢٢٥):

قال الخطابي: يعني إذا حدث أحد عندك حديثاً ثم غاب صار حديثه أمانة عندك ولا يجوز إضاعتها.

أقول: الظاهر أن «**التفت**» هنا عبارة عن التفات خاطره إلى ما تكلم فالتفت يميناً وشمالاً احتياطاً.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٢/ ٦٣٨):

«**إذا حدث الرجل**» أي الإنسان فذكر الرجل غالباً «**الحديث**» وفي رواية: «**أخا له بحديث**»، وفي أخرى: «**إذا حدث رجل رجلاً بحديث**» «**ثم التفت**» أي غاب عن المجلس أو التفت يميناً وشمالاً، فظهر من حاله بالقرائن أن قصده أن لا يطلع على حديثه غير الذي حدثه به «**فهي**» أي الكلمة التي حدثه بها «**أمانة**» عند المحدث أودعه إياها، فإن حدث بها غيره، فقد خالف أمر الله حيث أدّى الأمانة إلى غير أهلها، فيكون من الظالمين فيجب عليه كتمها، إذ التفاته بمنزلة استكتامه بالنطق، قالوا: وهذا من

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٨٦٨) والترمذي في سننه برقم (١٩٥٩) وأحمد في المسند (٣/ ٣٨٠) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (١٠٩٠).

ولأحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: **«من سمع من رجل حديثاً لا يحب أن يذكر عنه فهو أمانة وإن لم يستكتمه»**[1].

جوامع الكلم لما في هذا اللفظ الوجيز من الحمل على آداب العشرة، وحسن الصحبة، وكتم السر، وحفظ الود، والتحذير من النميمة بين الإخوان المؤدية للشنآن ما لا يخفى، قال في الإحياء: وإفشاء السر خيانة، وهو حرام إذا كان فيه إضرار، وقال الماوردي: إظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهار سر نفسه؛ لأنه يبوء بإحدى وصمتين: الخيانة إن كان مؤتمناً، والنميمة إن كان مستخبراً، فأما الضرر فيما استويا فيه، أو تفاضلاً فكلاهما مذموم، وهو فيهما ملوم، وقال الراغب: السر ضربان أحدهما ما يلقى الإنسان من حديث يستكتم، وذلك إما لفظاً كقولك لغيرك: اكتم ما أقول لك، وإما حالاً، وهو أن يتحرى القائل حال انفراده فيما يورده، أو خفض صوته، أو يخفيه عن مجالسه، وهو المراد في هذا الحديث.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٤٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٧): في إسناد أحمد. وأحد إسنادي الطبراني عبيد الله بن الوليد الصافي وهو متروك.

٥٥ ـ باب ما جاء في لعن المسلم

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه مرفوعاً: «**لعن المؤمن كقتله**» أخرجاه(١) [١].

وللبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنهم ضربوا رجلاً قد شرب الخمر فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، قال النبي ﷺ: «**لا تقولوا هذا، ولا تعينوا عليه الشيطان**»(٢) [٢].

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (١٠/ ٥٧٢ فتح):

قوله «**لعن المسلم كقتله**» أي لأنه إذا لعنه فكأنه دعا عليه بالهلاك.

[٢] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٢/ ٧٩):

قوله: «**لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان**» وفي الرواية الأخرى: «**لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم**» ووجه عونهم الشيطان بذلك أن الشيطان يريد بتزيينه له المعصية أن يحصل له الخزي فإذا دعوا عليه بالخزي فكأنهم قد حصلوا مقصود الشيطان.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٠٤٧، ٦٦٥٢) ومسلم في صحيحه (١/ ١٠٤) برقم (١٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٧٧٧، ٦٧٨١).

٥٦ ـ باب ذكر تأكده في الأموات

عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: **«لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»** رواه البخاري[1] [١].

---

[١] قال الإمام ابن حجر رحمه الله في الفتح (٣/ ٣٣١):

قال ابن بطال: سب الأموات يجري مجرى الغيبة، فإن كان أغلب أحوال المرء الخير ـ وقد تكون منه الفلتة ـ فالاغتياب له ممنوع، وإن كان فاسقاً معلناً فلا غيبة له، فكذلك الميت. ويحتمل أن يكون النهي على عمومه فيما بعد الدفن، والمباح ذكر الرجل بما فيه قبل الدفن ليتعظ بذلك فساق الأحياء، فإذا صار إلى قبره أمسك عنه لافضائه إلى ما قدم.

قوله **«أفضوا»**: أي وصلوا إلى ما عملوا من خير أو شر، واستدل على منع سب الأموات مطلقاً، وقد تقدم أن عمومه مخصوص، وأصح ما قيل في ذلك أن أموات الكفار و الفساق يجوز ذكر مساويهم للتحذير منهم والتنفير عنهم، وقد أجمع العلماء على جواز جرح المجروحين من الرواة أحياء وأمواتاً.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٢/ ٦٤١١):

«لا تسبوا الأموات» أي المسلمين كما دل عليه بلام العهد فالكفار سبهم قربة، **«فإنهم قد أفضوا»** بفتح الهمزة والضاد: وصلوا **«إلى ما قدموا»** عملوا من خير وشر والله هو المجازي إن شاء عفا وإن شاء عذب فلا فائدة في سبهم، فيحرم كما قال النووي سب الأموات بغير حق ومصلحة شرعية كسب أهل البدع والفسقة وللتحذير من الاقتداء بهم، وكجرح الرواة لا يتناه أحكام الشرع على بيان حالاتهم، وقد أجمعوا على جواز جرح المجروح من الرواة حيّاً وميتاً.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣٩٣ و٦٥١٦).

٥٧ ـ باب ذكر قول
يا عدو الله أو يا فاسق أو يا كافر ونحوه

عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: **«لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك»** رواه البخاري[(١)] [١].

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (١٠/ ٥٧١ فتح):

وهذا يقتضي أن من قال لآخر أنت فاسق، أو قال له أنت كافر، فإن كان ليس كما قال، كان هو المستحق للوصف المذكور، وإنه إذا كان كما قال لم يرجع عليه شيء، لكونه صَدق فيما قال، لكن لا يلزم كونه لا يصير بذلك فاسقاً ولا كافراً أن يكون آثماً في صورة قوله له أنت فاسق بل في هذه الصورة تفصيل. إن قصد نصحه أو نصح غيره ببيان حاله جاز، وأن قصد تعييره شهرته بذلك ومحض أذاه لم يجز، لأنه مأمور بالستر عليه وتعليمه وعظته بالحسنى، فمهما أمكنه ذلك بالرفق لا يجوز له أن يفعله بالعنف، لأنه قد يكون سبباً لاغرائه وإصراره على ذلك الفعل، كما في طبع كثير من الناس من الأنفة، لا سيما إن كان الآمر دون المأمور في المنزلة.

وقال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

اختلف في تأويل هذا الرجوع.. وأرجح من الجميع أن من قال ذلك لمن عُرف منه الإسلام ولم يقم له شبهة في زعمه إنه كافر فإنه يكفر بذلك، فمعنى الحديث فقد رجع عليه تكفيره فالراجح التكفير لا الكفر فكأنه كفر نفسه لكونه كفر من هو مثله،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٠٤٥).

وعن سمرة رضي الله عنه مرفوعاً: **«لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار»** صححه الترمذي(1) [١].

ولهما عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: **«من دعا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه»**(2) [٢].

ومن لا يكفره إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام، ويؤيده أن بعض طرقه وجب الكفر على أحدهما.

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٢/ ٦٤٦١):

«لا تلاعنوا بلعنة الله» فإن اللعنة الإبعاد من الرحمة والمؤمنون رحماء بينهم **«ولا بغضبه»** أي لا يدعو بعضكم بعضاً بغضب الله كأن يقال عليه غضب الله **«ولا بالنار»** أي لا يقول أحدكم اللهم اجعله من أهل النار ولا أحرقه بنار جهنم.

[٢] تقدم شرحه قبل قليل، ومعنى **«حار عليه»** أي رجعت عليه.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٩٠٦) والترمذي في سننه رقم (١٩٧٦) وأحمد في المسند (٥/ ١٥) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٠٤٥) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٧٩ ـ ٨٠) برقم (١١٢).

٥٨ ـ باب ما جاء في لعن الرجل والديه

عن ابن عمرو رضي الله عنه مرفوعاً: «**من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**»، قيل يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**» أخرجاه(١) [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله في شرحه لرياض الصالحين (٥/ ٢٤٢):

حديث ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**» يعني سبهما ولعنهما كما جاء ذلك في رواية أخرى: «**لعن الله من لعن والديه**» قالوا: يا رسول الله، كيف يشتم الرجل والديه؟ لأن هذا أمر مستغرب، وأمر بعيد.

قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**».

وذلك تحذير من أن يكون الإنسان سبباً في شتم والديه بأن يأتي إلى شخص فيشتم والدي الشخص، فيقابله الشخص الآخر بالمثل ويشتم والديه، ولا يعني ذلك أنه يجوز للثاني أن يشتم والدي الرجل؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولكنه في العادة والطبيعة أن الإنسان يجازي غيره بمثل ما فعل به، فإذا سبه سبه.

وذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٨] لذلك لما كان سبباً في سب والديه كان عليه إثم ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٩٧٣) ومسلم في صحيحه (١/ ٩٢) برقم (٩٠).

٥٩ ـ باب النهي عن دعوى الجاهلية

ولما قال المهاجري: يا للمهاجرين! وقال الأنصاري: يا للأنصار! قال رسول الله ﷺ: «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم**» وغضب لذلك غضباً شديداً.(١) [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

وأما تسميته ﷺ ذلك دعوة الجاهلية، فهو كراهة منه لذلك، فإنه مما كانت عليه الجاهلية من التعاضد بالقبائل في أمور الدنيا ومتعلقاتها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل، فجاء الإسلام بإبطال ذلك وفصل القضايا بالأحكام الشرعية. فإذا اعتدى إنسان على آخر حكم القاضي بينهما وألزمه مقتضى عدواته. كما تقرر من قواعد الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٠٥) ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٥٤).

٦٠ ـ باب النهي عن الشفاعة في الحدود

وقـول الله تـعـالـى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النّور: الآية ٢] [١].

ولهما في حديث المخزومية: «**أتشفع في حد من حدود الله؟**»(١) [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٩/ ٢٥٦):

﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ يقول تعالى ذكره: لا تأخذكم بالزاني والزانية أيها المؤمنون رأفة وهي رقة الرحمة في دين الله، يعني في طاعة الله فيما أمركم به من إقامة الحد عليهما، على ما ألزمكم به.

[٢] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٢/ ١١٢):

قوله: «**أتشفع في حد من حدود الله**» بهمزة الاستفهام الإنكاري لأنه كان سبق له منع الشفاعة في الحد قبل ذلك.. وفي هذا الحديث من الفوائد منع الشفاعة في الحدود وقد تقدمت في الترجمة الدلالة على تقييد المنع بما إذا انتهى ذلك إلى أولي الأمر، واختلف العلماء في ذلك فقال أبو عمر بن عبد البر: لا أعلم خلافاً أن الشفاعة في ذوي الذنوب حسنة جميلة ما لم تبلغ السلطان، وأن على السلطان أن يقيمها إذا بلغته. وذكر الخطابي وغيره عن مالك أنه فرق بين من عرف بأذى الناس ومن لم يعرف، فقال: لا يشفع للأول مطلقاً سواء بلغ الإمام أم لا، وأما من لم يعرف بذلك فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٧٥ و٦٧٨٨) ومسلم في صحيحه كتاب الحدود (٣/ ١٣١٥) برقم (١٦٨٨).

وفي الموطأ عن الزبير رضي الله عنه: **«إذَا بَلَغَتْ الحُدودُ السلطَانَ فَلَعَنَ الله الشَافع والمشَفَّعَ»**(١).

وعن ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ مَرْفوعاً: **«مَنْ حالتْ شَفاعَتُهُ دونَ حَدٍّ مِنْ حُدودِ الله فَقَد ضَادَّ الله في أَمْرِهِ»**(٢) [١].

وقال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

وقد أجمع العلماء على تحريم الشفاعة في الحد بعد بلوغه إلى الإمام لهذه الأحاديث، وعلى أنه يحرم التشفيع فيه. فأما قبل بلوغه إلى الإمام، فقد أجاز الشفاعة فيه أكثر العلماء، إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب شر وأذى للناس، فإن كان لم يشفع فيه. وأما المعاصي التي لا حد فيها وواجبها التعزير، فتجوز الشفاعة والتشفيع فيها سواء بلغت الإمام أم لا، لأنها أهون. ثم الشفاعة فيها مستحبة إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب أذى ونحوه.

[١] انظر شرح الحديث الآتي.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الحدود برقم (٢٩) وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ٨٧): منقطع مع وقفه.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٥٩٧) وأحمد في المسند (٢/ ٧٠) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (٤٣٨).

٦١ - باب من أعان على خصومة في الباطل

وقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: الآية ٢] [١].

وقوله: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: الآية ٨٥] [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢٦٤):

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله، وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع، لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المؤمنين، بكل قول يبعث عليها، وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿ولا تعاونوا على الإثم﴾ وهو التجري على المعاصي، التي يأثم صاحبها، ويجرح. **﴿والعدوان﴾** هو: التعدي على الخلق، في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم. فكل معصية وظلم، يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من عصاه، وتجرأ على محارمه. فاحذروا المحارم، لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢٢٣):

المراد بالشفاعة هنا: المعاونة على أمر من الأمور فمن شفع غيره، وقام معه على

عَنِ ابن عُمَرَ - رضي الله عنهما - مَرفوعاً: **«مَنْ حالتْ شفاعتهُ دُونَ حَدٍّ من حدودِ الله فقدْ ضَاد في أمرِهِ، ومنْ خَاصمَ في بَاطلٍ وَهوَ يَعلمُ أنَّهُ بَاطِلٌ، لَمْ يَزلْ في سخَطِ الله حَتَّى يَنزعَ عنهُ، وَمَنْ قَالَ في مُؤمِنٍ مَا لَيسَ فيهِ حُبسَ في ردغهِ الخَبالِ، حَتَّى يخرُجَ ممَّا قَالَ»** وفي رواية: **«وَمَنْ أَعَانَ عَلى خُصومَةٍ بِظلمٍ، فقدْ بَاء بغضبٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ»** رواهُ أَبو دَاودَ بسنَدٍ صحيح[1] [٢].

أمر من أمور الخير - ومن الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم. . كان له نصيب من شفاعته بحسب سعيه وعمله، ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل أو المباشر شيء.

ومن عاون غيره على أمر من الشر، كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان وقرر ذلك بقوله: **﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾** أي: شاهداً حفيظاً، حسيباً على هذه الأعمال فيجازي كلاً ما يستحقه.

[٢] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (٨/ ٢٥٣٧):

قوله: **«من حالت شفاعته دون حد»** أي قدامه فيحجز عن الحد بعد وجوبه عليه بأن بلغ الإمام، وإنما قال: **«فقد ضاد الله»** لأن حدود الله حماه ومن استباح حمى الله وتعدى طوره، ونازع الله تعالى فيما حماه فقد ضاد الله. قوله: **«ردغة الخبال»** جاء تفسيرها في الحديث أنها عصارة أهل النار، والردغة - بسكون الدال وفتحها - طين ووحل كثير، ويجمع على ردغ ورداغ. والخبال في الأصل الفساد، ويكون في الأفعال والأبدان والعقول. قال القاضي ناصر الدين: وخروجه مما قال أن يتوب عنه ويستحل من المقول فيه، قال الأشرف: ويجوز أن يكون المعنى أسكنه الله ردغة الخبال ما لم يخرج من إثم ما قال، فإذا خرج من إثمه أي إذا استوفى عقوبة إثمه لم يسكنه الله ردغة الخبال، بل ينجيه الله تعالى منه ويتركه. أقول: **«حتى»** على ما ذهب إليه القاضي غاية فعل المغتاب، فيكون في الدنيا فيجب التأويل في قوله: **«أسكنه الله ردغة الخبال»** بسخط الله تعالى وغضبه الذي هو سبب في إسكانه ردغة لخبال، يؤيده القرينة السابقة

---

(١) انظر تخريج الحديث السابق.

. . . .

واللاحقة، لأن النزع في القرينة الأولى مفسر بترك الخصومة الباطلة، وعلى هذا في الثالثة، والحيلولة بالشفاعة أعظمها لأنها مضادة الله تعالى ولم يذكر فيه النزع. ثم الاغتياب لوضع المسبب موضع السبب تصويراً لتهجن أمر المغتاب، وكأنه فيها الآن، والله أعلم.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١١/ ٥٦٧٢):

«من أعان في خصومة بظلم لم يزل في سخط الله» أي غضبه الشديد **«حتى ينزع»** أي يقلع عما هو عليه من الإعانة وهذا وعيد شديد يفيد أن ذا كبيرة ولذلك عده الذهبي من الكبائر.

٦٢ ـ باب من شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت**» رواه مسلم(١) [١].

---

[١] تقدم شرحه في الباب رقم (١٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٦٠١٨) بنحوه ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/٦٨) رقم (٤٧).

٦٣ ـ باب ما يحذر من الكلام في الفتن

عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: **«ستكون فتنة تستنظف العرب قتلاها في النار، اللسان فيها أشد من وقع السيف»** رواه أبو داود[١].

وله عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: **«ستكون فتنة صماء، بكماء، عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف»**[٢].

ولابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: **«إياكم والفتن فإن اللسان فيها كوقع السيف»**[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٢٦٥) وابن ماجه في سننه برقم (٣٩٦٧) والترمذي في سننه برقم (٢١٧٨) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود رقم (٩١٨) وضعيف سنن ابن ماجه رقم (٨٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٩٦٨) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود برقم (٩١٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٣٩٦٨) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن ابن ماجه برقم (٨٦٠) والضعيفة برقم (٢٤٧٩).

٦٤ ـ باب قول هلك الناس

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**إذا قال الرجل هلك الناس، فهو أهلكهم**» رواه مسلم(١) [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

روي: «**أهلكهم**» على وجهين مشهورين رفع الكاف وفتحها والرفع أشهر.. ومعناها أشدهم هلاكاً.. واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سر الله في خلقه. قالوا: فأما من قال ذلك تحزناً لما يرى في نفسه، وفي الناس من النقص من أمر الدين فلا بأس عليه، كما قال: لا أعرف من أمة النبي ﷺ إلا أنهم يصلون جميعاً، هكذا فسره الإمام مالك، وتابعه الناس عليه، وقال الخطابي: معناه: لا يزال الرجل يعيب الناس، ويذكر مساويهم، ويقول: فسد الناس وهلكوا، ونحو ذلك. فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم. أي: أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم، في عيبهم، والوقيعة فيهم. وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أنه خير منهم. والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٤/ ٢٠٢٤) برقم (٢٦٢٣).

٦٥ ـ باب الفخر

وقولِ الله تعالى: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ الآية [الأعراف: الآية ١٢].

عن عياضِ بن حِمَار ـ رضي الله عنه مرفُوعاً: **«إنَّ الله تعالى أَوحَى إليَّ أَنْ تَواضَعُوا حَتَّى لاَ يفخَرَ أَحَدٌ عَلى أَحَد، وَلاَ يبغي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»** رواه مسلم(١) [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٦/٢١٦):

التواضع: ضد التعالي وهو أن لا يرتفع الإنسان ولا يترفع على غيره، بعلم ولا نسب ولا مال ولا جاه ولا إمارة ولا وزارة ولا غير ذلك، بل الواجب على المرء أن يخفض جناحه للمؤمنين، أن يتواضع لهم كما كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة عند الله، رسول الله ﷺ يتواضع للمؤمنين، حتى إن الصبية لتمسك بيده لتأخذه إلى أي مكان تريد فيقضي حاجتها عليه الصلاة والسلام.

وقول رسول الله ﷺ: **«إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا»** يعني أن يتواضع كل واحد للآخر ولا يترفع عليه، بل يجعله مثله أو يكرمه أكثر، وكان من عادة السلف رحمهم الله، أن الإنسان منهم يجعل من هو أصغر منه مثل ابنه، ومن هو أكبر مثل أبيه، ومن هو مثله مثل أخيه، فينظر إلى من هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال، وإلى من هو دونه نظرة إشفاق ورحمة، وإلى من هو مثله نظرة مساواة، فلا يبغي أحد على أحد وهذا من الأمور التي يجب على الإنسان أن يتصف بها، أي بالتواضع لله عز وجل ولإخوانه من المسلمين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفة الجنة (٤/٢١٩٨) برقم (٢٨٦٥).

وله عن أبي مَالكٍ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«أَربعٌ في أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّة لاَ يَترُكَوهُنَّ الفَخْرُ بالأَحْسَابِ، والطعنُ في الأنْسَاب، والإِستسقَاءُ بالنجُومِ، والنياحَةُ عَلى الميتِ»**(1) [١].

وأما الكافر فقد أمر الله تعالى بمجاهدته والغلظة عليه وإغاظته وإهانته بقدر المستطاع، لكن من كان له عهد وذمة فإنه يجب على المسلمين أن يفوا له بعهده وذمته، وألا يخفروا ذمته، وألا يؤذوه ما دام له عهد.

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لكتاب التوحيد (ص ٦٠٠ وما بعدها):

قوله في حديث أبي مالك: **«أربع في أمتي»**. الفائدة من قوله: **«أربع»** ليس الحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها في المعنى، وإنما يقول النبي ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد؛ لأنه يقرب الفهم، ويثبت الحفظ.

قوله: **«من أمر الجاهلية»**. أمر هنا بمعنى شأن؛ أي: من شأن الجاهلية وهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر؛ لأن واحد الأوامر طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وقوله: **«من أمر الجاهلية»**. إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال؛ فعلُك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب؛ إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية؛ فالغرض من الإضافة هنا أمران:

١ ـ التنفير.

٢ ـ بيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان؛ إذ ليست أهلاً بأن يراعيها الإنسان أو يعتني بها؛ فالذي يعتني بها جاهل.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل البعثة؛ لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يُسمَّون بالأميين، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ نسبةً إلى الأم، كأن أمه ولدته الآن.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنائز (٢/ ٦٤٤) رقم (٩٣٤).

. . . .

لكن لما بُعث فيهم هذا النبي الكريم؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٤]؛ فهذه منة عظيمة أن بعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمور السامية:

١ ـ يتلو عليهم آيات الله.

٢ ـ ويزكيهم؛ فيطهر أخلاقهم وعبادتهم وينميها.

٣ ـ ويعلمهم الكتاب.

٤ ـ والحكمة.

هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بواحدة منها لوزنتها عند مَن يعرف قدرها، ثم بَيّن الحال من قبل فقال: **﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾** و**﴿إن﴾** هذه ليست نافية، بل مُوكِّدة؛ فهي مخففة من الثقيلة، يعني: وإنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

إذن المراد بالجاهلية ما قبل البعثة؛ لأن الناس كانوا فيها على جهل عظيم.

فجهلهم شامل للجهل في حقوق الله وحقوق عباده، فمن جهلهم أنهم ينصبون النُّصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحدهم ابنته لكي لا يُعيّر بها، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر.

قوله: **«لا يتركونهن»**. المراد: لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثاني عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام في قبيلة، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعاً، إنما الأمة كمجموع لا بد أن يوجد فيها شيء من ذلك؛ لأن هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ، والمراد بهذا الخبر التنفير؛ لأنه ﷺ قد يُخبر بأشياء تقع وليس غرضه أن يُؤخذ بها؛ كما قال ﷺ: **«لتركبن سنن مَن كان قبلكم اليهود والنصارى»**[1]؛ أي: فاحذروا، وأخبر ﷺ: **«أن الظعينة تخرج من صنعاء إلى**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/٢١٨)، والترمذي في سننه: كتاب الفتن باب ما جاء =

. . . .

حضرموت **لا تخشى إلا الله»**[1]؛ أي: بلا محرم، وهذا خبر عن أمر واقع وليس إقراراً له شرعاً.

قوله: **«أمتي»**. أي: أمة الإجابة.

قوله: **«الفخر بالأحساب»** الفخر: التعالي والتعاظم، والباء للسببية؛ أي: يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه.

والحَسَبُ: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأن يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة، فيفتخر بذلك، وهذا من أمر الجاهلية؛ لأن الفخر في الحقيقة يكون بتقوى الله الذي يمنع الإنسان من التعالي والتعاظم، والمتقي حقيقة هو الذي كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد تواضعاً للحق وللخلق.

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية؛ فلا يجوز لنا أن نفعله، ولهذا قال تعالى لنساء نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣]، واعلم أن كل ما يُنسب إلى الجاهلية؛ فهو مذموم ومنهي عنه.

قوله: **«الطعن في الأنساب»**. الطعن: العيب؛ لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون في الجسد، ولهذا سُمِّي العيب طعناً.

والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن في نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مُقَطِّعَة البظور ـ وهي شيء في فرج المرأة يقطع عند ختان النساء ـ.

قوله: **«والاستسقاء بالنجوم»**. أي: نسبة المطر إلى النجوم، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله ـ عز وجل ـ، أما إن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحاب أو دعاها

= «لتركبن سنن...»، حديث رقم (٢٢٨٥)، وابن حبان في صحيحه (١٨٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٢٩٠)، والبيهقي في سننه (١٠٨/١)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي برقم (١٧٧١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب/ باب علامات النبوة، حديث رقم (٣٥٩٥).

. . . .

من دون الله لتنزل المطر؛ فهذا شرك أكبر مُخرج من الملة.

قوله: **«والنياحة على الميت»**. هذا هو الرابع، والنياحة: هي رفع الصوت بالبكاء على الميت قصداً، وينبغي أن يُضاف إليه على سبيل النَّوح؛ كنوح الحمام.

والنَّدبُ: تعداد محاسن الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية، ولا بد أن تكون في هذه الأمة، وإنما كانت من أمر الجاهلية:

إما من الجهل الذي هو ضد العلم.

أو من الجهالة التي هي السَّفَه، وهي ضد الحكمة.

وإنما كانت كذلك لأمور، هي:

١ ـ أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزناً وعذاباً.

٢ ـ أنها تسخط من قضاء الله وقدره واعتراض عليه.

٣ ـ أنها تُهيِّج أحزان غيره.

وقد ذُكر عن ابن عقيل رحمه الله ـ وهو من علمائنا الحنابلة ـ أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخه رجل وقال: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾ [يوسف: الآية ٧٨]؛ فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهييج الأحزان.

٤ ـ أنه مع هذه المفاسد لا يَرُدُّ القضاء، ولا يرفع ما نزل.

والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب وقوعها من النساء، ولهذا قال: **«النائحة إذا لم تتب قبل موتها»**؛ أي: إن تابت قبل الموت؛ تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لا تمحوه؛ لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تُمحى بالحسنات؛ فلا يمحوها إلا التوبة.

قوله: **«تقام يوم القيامة»**. أي: تقام من قبرها.

قوله: **«وعليها سربال من قطران»**. السربال: الثوب السابغ كالدرع، والقطران

وقالَ: «**النَّائِحةُ إذَا لَمْ تَتُبْ قَبلَ موتَها تُقَامُ يومَ القيَامةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِن قَطرانٍ ودرعٌ مِن جَرَبٍ**»(١).

وروى الترمذيُّ وَحَسَّنَهُ: «**ولَيَنْتهِيَنَّ أَقوامٌ يَفتخرونَ بآبائِهِمُ الذينَ مَاتُوا، إنَّما هُمْ فحم جَهَنمَ أو ليكونُنَّ أَهونَ عَلى اللَّهِ مِنَ الجعلانِ، إنَّ الله أذهَبَ عنكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيةِ وفَخرها بالآباءِ إنَّمَا هُو مُؤمِنٌ تَقي، أَوْ فَاجِر شَقِيٌّ، النَّاسُ مِنْ آدمَ، وآدمُ خُلِقَ مِنْ تُراب**»(٢) عبِّيَّةَ بتشدِيدِ البَاء وَكَسرهَا الفَخْرُ والكِبرُ [١].

معروف، ويسمى «الزفت»، وقيل: إنه النحاس المذاب.

قوله: «**ودرع من جرب**». الجرب: مرض معروف يكون في الجلد، يؤرق الإنسان، وربما يقتل الحيوان، والمعنى: إن كل جلدها يكون جرباً بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء؛ لأن الجرب أي شيء يمسه يتأثر به؛ فكيف ومعه قطران؟!

والحكمة أنها لما لم تُغَطِّ المصيبة بالصبر غُطِّيَت بهذا الغطاء سربال من قطران ودرع من جرب؛ فكانت العقوبة من جنس العمل.

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (ص ٣١٤٧ وما بعدها):

قوله: «**إنما هم فحم**» حصر آباءهم على كونهم فحماً من جهنم لا يتعدون ذلك إلى فضيلة يفتخر بها. قوله: «**أو ليكونن**» قال القاضي ناصر الدين: «أو» ههنا للتخيير والتسوية. والمعنى أن الأمرين سواء في أن يكون حال آبائهم الذين يفتخرون بهم، وأنت مخير في توصيفهم بأيهما شئت.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنائز/باب التشديد في النياحة (٢/ ٦٤٤) حديث رقم (٩٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣٩٥٥) وأبو داود في سننه (٤/ ٣٣١) وأحمد في المسند (٢/ ٣٦١) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (٣١٠٠) والمشكاة برقم (٤٨٩٩).

. . . .

أقول: الظاهر أنه عطف على قوله: «**لينتهين**» والضمير فيه ضمير القوم لا الآباء؛ لأن اللام في المعطوف والمعطوف عليه لام الابتداء على نحو قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: الآية ٨٨]، كأنه ﷺ حلف على أن أحد الأمرين كائن لا محالة.

فإن قلت: هب أنه ﷺ عرف أنه تعالى يعذبهم بسبب المفاخرة بآبائهم فأقسم عليهم، فبم عرف انتهاءهم عنها قلت: لما نظمها بأوفى الحكم الذي هو الحلف، آل كلامه إلى قولك: «ليكونن أحد الأمرين» يعني إن كان الانتهاء لم تكن المذلة، وإن لم تكن كانت. كذا حقق صاحب الكشاف في النمل: قيل: أحد الأمرين لا بد منه، إما الانتهاء عما هم فيه، أو إنزال الصغار والهوان من الله تعالى عليهم. و«الجُعَل» حيوان معروف كالخنفساء والدهدهة الدحرجة يقال: دهدهت الحجر ودهديته.

قوله: «**عبية الجاهلية**» قال التوربشتي: أي نخوتها يقال: رجل فيه عبية بضم العين وكسرها، أي كبر وتجبر. والمحفوظ عن أهل الحديث بتشديد الباء. وذكر أبو عبيد الهروي: هو من العبء بمعنى الحمل الثقيل. ثم قال: وقال الأزهري: بل هو مأخوذ من العبء وهو الضوء والنور والضياء. يقال: هذا عبأ الشمس، وأصله عبوء الشمس، وعلى هذا فالتشديد فيه كما في الذرية من الذرء بالهمز. والجوهري أدخله في باب المضاعف.

قوله: «**إنما هو مؤمن تقي**» في هذا الضمير وجوه: أحدها: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، فقوله: «**الناس كلهم بنو آدم**» مقدم ملحوظه؛ لأنه مجمل وذاك تفصيله على نحو قوله:

الناس من جهة التمثال أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم في أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

ووحّد الضمير نظراً إلى الجنس ملحوظه على تأويل الإنسان.

وثانيها: أنه ضمير مبهم يفسره الخبر. كذا قرر صاحب الكشاف في قوله تعالى:

. . . .

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: الآية ٢٤] . وقولهم: هي العرب تقول: ما شاءت.

وثالثها: أن يكون بمعنى اسم الإشارة، ملحوظة إلى المذكور السابق منطوقاً ومفهوماً.

وبيانه أن قوله ﷺ: «**أقوام**» من باب سوق المعلوم مساق غيره. وهم قوم مخصوصون نكرهم وجعلهم غائبين، ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب في قوله: «**قد أذهب عنكم**» وهذا يشعر بغضب شديد وسخط متتابع، كأن أناساً من المسلمين تفاخروا بأسلافهم الذين ماتوا على الكفر كالعباس بن مرداس وأضرابه، حتى قال قائلهم:

فما كان حصن ولا حابس   يفوقان مرداس في مجمع

فوبخهم وزجرهم وسفه رأيهم. المعنى لينته من شرفه الله وخلع عليه حلل الإسلام، ورفعه من حضيض الكفر إلى يفاع الإيمان عن هذه الشنعاء وإلا فيحطه من تلك المنزلة، ويرده إلى أسفل سافلين الكفر والذل، فإن تشبيههم بأخس الحيوانات في أخس أحواله يدل عليه. فالمعنى ما ذلك العزيز الكريم عند الله إلا رجل تقي، وما ذلك الذليل الدنيء عنده إلا فاجر شقي.

ثم رجع رسول الله ﷺ من ذلك العنف إلى اللطف ومن التوبيخ إلى إسماع الحق قائلاً: «**الناس كلهم بنو آدم**» كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣] إلى قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣] وفي ذكر التراب إشارة إلى نقصانهم وأنهم فيه سواء طف الصاع بالصاع.

٦٦ ـ باب الطعن في الأنساب

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر، الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت**»(١) [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لكتاب التوحيد (ص ٦٩٣ وما بعدها):

قوله في حديث أبي هريرة: «**اثنتان**». مبتدى، وسَوَّغ الابتداء به التقسيم، أو أنه مفيد للخصوص.

قوله: «**بهم كفر**»: الباء يحتمل أن تكون بمعنى «من»؛ أي: هما منهم كفر، ويحتمل أن تكون بمعنى «في»؛ أي: هما فيهم كفر.

قوله: «**كفر**». أي: هاتان الخصلتان كفر ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافراً، كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان؛ كالحياء، والشجاعة، والكرم؛ أن يكون مؤمناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بخلاف قول رسول الله ﷺ: «**بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة**»(١) فإنه هنا أتى بأل الدالة على الحقيقة؛ فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة، بخلاف مجيء «كفر» نكرة؛ فلا يدل على الخروج عن الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٨٢) برقم (٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان/ باب ما جاء في ترك الصلاة، حديث رقم (٢٤٣).

. . . .

قوله: «**الطعن في النسب**». أي: العيب فيه أو نفيه؛ فهذا عمل من أعمال الكفر.

قوله: «**النياحة على الميت**». أي: أن يبكي الإنسان على الميت بكاء على صفة نَوح الحمام؛ لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر، فهو مناف للصبر الواجب، وهذه الجملة هي الشاهد للباب. والناس حال المصيبة على مراتب أربع:

الأولى: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على قدر الله عليه، وقد يؤدي إلى الكفر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ﴾ [الحج: الآية ١١]، وقد يكون باللسان؛ كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح؛ كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك.

الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصبْرُ مثلُ اسمه مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لَكن عَواقبُهُ أحلَى منَ العَسَلِ

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله ويتصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره وإن كان قد يحزن من المصيبة؛ لأنه رجل يسبح في القضاء والقدر، أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل أو جبل، إن أُصيب بنعمة أو أُصيب بضدها؛ فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميت؛ بل لتمام رضاه بربه ـ سبحانه وتعالى ـ يتقلب في تصرفات الرب ـ عز وجل ـ ولكنها عنده سواء؛ إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة، وذلك يكون في عباد الله الشاكرين حين يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن

. . . .

هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته شكر الله على ذلك، قال النبي ﷺ: **«ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شيء إلا كفّر له بها، حتى الشوكة يُشاكها»**[1].

كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٦٤١) كتاب المرضى، ومسلم في صحيحه برقم (٥٧٣) كتاب البر والصلة.

٦٧ ـ باب من ادعى نسباً ليس له

ولهما عن سعد مرفوعاً: **«من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام»**[(١)].

ولهما عن أبي هريرة مرفوعاً: **«لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر»**[(٢)] [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله ﷺ: **«لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفر»** ومن الرواية الأخرى: **«من ادعى أباً في الإسلام غير أبيه فعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام»**.

قوله ﷺ فيمن أدعى لغير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه إلا كفر فقيل فيه تأويلان أحدها أنه في حق المستحل والثاني أنه كفر النعمه والإحسان وحق الله تعالى وحق أبيه وليس المراد الكفر الذي يخرجه من ملة الإسلام ومعنى ادعى لغير أبيه أي انتسب إليه واتخذه أباً، وقوله ﷺ: **«وهو يعلم»** تقييد لا بد منه فإن الإثم إنما يكون في حق العالم بالشيء وقوله ﷺ: **«فالجنة عليه حرام»** ففيه التأويلان اللذان قدمناهما من نظائره أحدهما أنه محمول على من فعله مستحلاً له والثاني أن جزاءه أنها محرمة عليه أولاً عند دخول الفائزين وأهل السلامة ثم أنه قد يجازي فيُمنعها عند دخولهم ثم يدخلها بعد ذلك وقد لا يجازى بل يعفو الله سبحانه وتعالى عنه، ومعنى حرام ممنوعة. ويقال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٧٦٦) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٨٠) برقم (٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٧٦٨) ومسلم في صحيحه (١/ ٨٠) رقم (٦٢).

ولهما عَنْ عليٍّ رضي الله عنه مرفوعاً: «**مَن ادعى إلى غير أبيهِ، أو انتمَى إلى غَيْرِ مَواليهِ فَعلَيْهِ لَعنةُ الله والملائكَةِ والنَّاسِ أَجْمعينَ، لاَ يَقبلُ الله مِنْهُ يومَ القيامةِ صرفاً وَلاَ عدلاً**»(1) [1].

رغب عن أبيه أي ترك الانتساب إليه وجحده، يقال: رغبت عن الشيء تركته وكرهته ورغبت فيه اخترته وطلبته.

وقال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (١١/ ٥٦١٤):

«**من ادعى**» أي انتسب «**إلى غير أبيه وهو**» أي والحال أنه «**يعلم**» أنه غير أبيه وليس المراد بالعلم هنا حكم الذهن ولا الصفة التي توجب تمييز لا يحتمل النقيض لعدم تصورها هنا إلا بطريق الكشف بل الظن الغالب «**فالجنة عليه حرام**» أي ممنوعة قبل العقوبة إن شاء عاقبه أو مع السابقين الأولين أو إن استحل لأن تحريم الحلال الذي لم تتطرقه تأويلات المجتهدين كفر وهو سيستلزم تحريم الجنة أو حرم عليه جنة معينة كجنة عدن والفردوس أو ورد على التغليظ والتخويف أو أن هذا جزاؤه وقد يعفى عنه، أو كان ذلك شرع من مضى أن أهل الكبائر يكفرون بها أو غير ذلك.

[1] قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم:

قال القاضي: واستدلوا بهذا على أن ذلك من الكبائر لأن اللعنة لا تكون إلا في كبيرة ومعناه أن الله تعالى لعنه وكذا تلعنه الملائكة والناس أجمعون وهذا مبالغة في إبعاده عن رحمة الله تعالى فإن اللعن في اللغة هو الطرد والإبعاد قالوا والمراد باللعن هنا: العذاب الذي يستحقه على ذنبه الطرد عن الجنة أول الأمر وليست هي كلعنة الكفار الذين يبعدون من رحمة الله تعالى كل الإبعاد والله أعلم.

قوله: «**لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**» قال القاضي: قال المازري: اختلفوا في تفسيرهما فقيل الصرف الفريضة، والعدل: النافلة، وقال الأصمعي: الصرف: التوبة، والعدل: الفدية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٨٧٠) ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٩٤) برقم (١٣٧٠).

. . . .

وقوله ﷺ: «**ومن ادعى إلى غير أبيه**. . .» هذا صريح من غلط تحريم انتماء الإنسان إلى غير أبيه أو انتماء العتق إلى ولاء غير مواليه لما فيه من كفر النعمة وتضييع حقوق الإرث والولاء والعدل وغير ذلك مع ما فيه من قطيعة الرحم والعقوق.

٦٨ ـ باب من تبرأ من نسبه

عن عمرو بنِ شعيبِ عن أبيه عنْ جده مرفوعاً: «كَفَرَ مَن تبرأ مِن نسبِه وإنْ دَقَّ، أو ادَّعى نسباً لاَ يعرفُ»[(١)] [١].

وللطبراني معناه منْ حديثِ أبي بَكرِ الصديق ـ رضي الله عنه[(٢)].

ولأبي داود وابنِ حبان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «أَيمَا امرأَةٍ أدخلَتْ عَلَى قومٍ مَن ليسَ مِنهمْ فَليستْ مِن الله في شيءٍ، ولَن يُدْخلَهَا جَنتهُ، وأيما والدٍ جَحَدَ ولدهُ، وهوَ ينظرُ إليهِ احتجبَ الله عنهُ يَومَ القيامةِ، وفضحَهُ عَلى رؤوسِ الخلائقِ من الأولينَ والآخرين»[(٣)].

---

[١] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٩/ ٤٤٤٥):

«كفر بالله تبرؤ» أي ذو تبرىء «من نسب وإن دق» ليس المراد بالكفر حقيقته التي يخلد صاحبها في النار، ومناسبته إطلاق الكفر هنا أنه كذب على الله كأنه يقول: خلقني الله من ماء فلان، ولم يخلقني الله من ماء فلان، والواقع خلافه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢١٥) والطبراني في معجمه الصغير (٢/ ١٠٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، (انظر مجمع البحرين (١/ ١٤٩) رقم (١٣٢) والبزار في مسنده (١/ ٧٠) رقم (١٠٤ كشف) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح الجامع برقم (٤٤٨٥).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه رقم (٢٢٦٣) والنسائي في سننه (١٤٨١) وابن ماجه في سننه رقم (٢٧٤٣) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود رقم (٤٩٧) وضعيف سنن النسائي رقم (٢٢٩).

٦٩ ـ باب من ادعى ما ليس له. ومن إذا خاصم فجر

فيهِ حديثُ ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ[(١)] وَروي عن ابن مسعودٍ وعمرَ ـ رضي الله عنهما ـ: «مَنْ قَالَ أَنَا مؤمنٌ فهوَ كافرٌ ومَنْ قَالَ هُوَ في الجنةِ فهوَ في النَّارِ، ومَن قالَ هُوَ عالمٌ فهوَ جاهلٌ».

ولهما عنْ أَبي ذَرٍّ مرفوعاً: **«ليسَ مِنَ رَجلٍ ادَّعى إلى غَيْرِ أَبيهِ وَهوَ يعلمهُ إلا كَفَر، ومَنَ ادعَى مَا ليسَ لهُ فليسَ منَّا وليتبوَّأْ مقعدهُ مِنَ النَّار، ومَنْ رَمَى مُسلماً بالكفرِ أو قالَ يَا عدوَّ الله وليسَ كذلكَ إلاَّ حَارَ عليهِ»**[(٢)] [١].

---

[١] تقدم شرحه في الباب رقم (٥٧ و٦٧).

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٠/ ٥٢٢٣):

«ليس من رجل ادّعى» أي انتسب **«لغير أبيه»** واتخذه أباً **«وهو»** أي والحال أنه **«يعلمه»** غير أبيه **«إلا كفر»** زاد في رواية للبخاري **«بالله»** أي استحل ولا يحسن حمله على كفر النعمة لأن رواية **«بالله»** تأباه، أو خرج مخرج الزجر والتنفير، وقيد بالعلم لأن الإثم إنما هو على العالم بالشيء المعتمد له فلا بد منه في الاثبات والنفي **«ومن ادعى ما ليس له فليس منّا»** أي ليس على هدينا وجميل طريقنا **«وليتبوأ مقعده من النار»** أي فليتخذ منزلاً من النار دعاء أو خبر بمعنى الأمر معناه هذا جزاؤه إن جوزى وقد يعفى عنه وقد يتوب فيسقط عنه **«ومن دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه»** أي رجع ذلك القول على القائل.

---

(١) يشير إلى حديث **«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً..»** الحديث رواه البخاري في صحيحه، وقد تقدم شرحه في الباب رقم (٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٥٠٨) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٧٩) برقم (١١٢).

٧٠ ـ باب الدعوى في العلم افتخاراً

عن عمر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**يظهرُ الإسلامُ حتَّى تختلفَ التجارُ في البحرِ، وحتَّى تخوضَ الخيلُ في سبيلِ الله. ثمَّ يظهرُ أقوامٌ يقرؤُونَ القرآن، يقولونَ من أَقرأُ مِنَّا؟ مَن أعلمُ منَّا؟ من أفقهُ مِنَّا؟ ثمَّ قَالَ: هَلْ في أُولئكَ مِن خير؟**» قالوا الله ورَسوله أَعلَمُ قالَ: «**أُولئِكَ مِنكُمْ مِن هَذهِ الأُمَّةِ، وأُولئك هُمْ وقودُ النَّار**». رواه البزَّار بسندٍ لا بأس بِهِ[١].

وللطبراني مَعناهُ عن ابن عباسٍ[٢]. قالَ المنذري إسنادهُ حسن.

---

[١] في الحديث الحذر من الافتخار والتعالم، والاعجاب بالنفس وما نالت من كمال، فإن العجب كالرياء محبط للعمل، وصاحبه ممقوت مبغوض، وطريقه إلى الكمال مسدود.

فاحذر يا عبد الله من ذلك الداء الخطير الذي استولى على كثير من الناس في هذا الزمن! فإلى الله المشتكى.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١/ ٦٨) رقم (١٧٣) والطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (١/ ٢٧٩) رقم (٣٣١) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب الترهيب (رقم ١٣١).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه (١٢/ ٢٥٠) والبزار في مسنده (١/ ٩٩) رقم (١٧٣ كشف) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب رقم (١٣٢).

٧١ ـ باب ذكر جحود النعمة

في الصحيح عن ابن عباس مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: «**دخلت النار فرأيت أكثر أهلها النساء، يكفرن**»، قيل يكفرن بالله؟ قال: «**لا، يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً، قالت: ما رأيت خيراً قط**»(١) [١].

عن أبي هريرة مرفوعاً: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**» صححه الترمذي،

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١/ ١١٣):

قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرحه: مراد المصنف أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيماناً كذلك المعاصي تسمى كفراً، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة. قال: وخص كفران العشير من بين أنواع الذنوب لدقيقة بديعة وهي قوله ﷺ: «**لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» فقرن حق الزوج على الزوجة بحق الله فإذا كفرت المرأة حق زوجها. وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية. كان ذلك دليلاً على تهاونها بحق الله، فلذلك يطلق عليها الكفر، لكنه كفر لا يخرج عن الملة... والعشير الزوج، قيل له عشير بمعنى معاشر مثل أكيل بمعنى مؤكل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢٩ و٧٤٨ و١٥٢ و٣٢٠٢ و٥١٩٧) ومسلم في صحيحه كتاب الكسوف (٢/ ٦٢٦) برقم (٩٠٧).

وقال: حسن غريب(١) [١].

وعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «**من أعطى عطاء فليجز به إن وَجَد، ومن لم يجد فليثن به، فإن الثناء شكر، فإن أثنى فقد شكره، ومن كتمه فقد**

---

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (ص ٦٠٥٦):

«**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**» قال ابن العربي: روي برفع الجلالة والناس ومعناه: من لا يشكره الناس لا يشكره الله وبنصبهما أي من لا يشكر الناس بالثناء بما أولوه لا يشكر الله فإنه أمر بذلك عبيده أو من لا يشكر الناس كمن لا يشكر الله، ومن شكرهم كمن شكره، وبرفع الناس ونصب الجلالة وبرفع الجلالة ونصب الناس ومعناه: لا يكون من الله شاكراً إلا من كان شاكراً للناس، وشكر الله ثناؤه على المحسن وإجراؤه النعم عليه بغير زوال.

قال ابن عطاء الله: إن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله تعالى واحد، فالشريعة تقتضي أنه لا بد من شكر خليقته، والناس من ذلك على أقسام: غافل منهمك في غفلته قويت دائرة حسه، وانطمست حفرة قدسه فنظر الإحسان من المخلوقين، ولم يشهده من رب العالمين، إما اعتقاداً فشركه جلي وإما استناداً فشركه خفي، وصاحب حقيقة غائب عن الخلق بشهود الملك الحق، وفنى عن الأسباب بشهود مسببها فهذا عبد مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها، سالك للطريقة قد استوى على مداها غير أنه غريق الأنوار، مطموس الآثار، قد غلب سكره على صحوه، وجمعه على فرقه، وفناؤه على بقائه، و غيبه على حضوره، وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً أو غاب فازداد حضوراً، فلا جمعه يحجبه عن فرقة، ولا فرقة يحجب عن جمعه، ولا فناؤه يصرفه عن بقائه، ولا بقاؤه يصده عن فنائه، يعطي كل ذي قسط قسطه ويوفي كل ذي حق حقه، فالأكمل البقاء المقتضي لإثبات الآثار وقد قال الله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: الآية ١٤] وهو المشار إليه في هذا الخبر وما ضاهاه من الأخبار.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٨١١) والترمذي في سننه برقم (١٩٥٤) وأحمد في المسند (٢/٢٥٨، ٢٩٥، ٣٠٣، ٣٨٨، ٤٦١، ٤٩٢). وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤٠٢٦).

كفره»[1] [١].

---

[١] قال الإمام الطيبي في شرحه على المشكاة (ص ٢٢٣٠):
قوله: **«فوجد»** أي من أعطى شيئاً فليكن عارفاً حقه فإن وجد مالاً فليجز به، ومن لم يجد فليشكر، ولا يجوز له كتمان نعمته، ومن كفر فكتم نعمته، وقوله: **«ومن تحلى بما لم يعط»**: قال ابن الأثير: الحلي اسم لكل ما يتزين به، قال أبو عبيدة: هو المرائي يلبس ثياب الزهاد ويرى أنه زاهد. وقال غيره: هو أن يلبس قميصاً يصل بكميه كمين آخرين، يرى أنه لابس قميصين فكأنه يسخر من نفسه، ومعناه أنه بمنزلة الكاذب القائل ما لم يكن. وقيل: إنما شبه بالثوبين لأن المتحلي كذب كذبين، فوصف نفسه بصفة ليست فيه، ووصف غيره بأنه خصه بصلة فجمع بهذا القول بين كذبين. . .
أقول: إنما إتبع الجازي والمثني المحتلي، لأنهما أطهرا حق ما وجب عليهما، لئلا يكفرا المنعم. وهذا إنما يظهر ما يلبس به الناس ويتلبس عليهم ليجز فيهم، وإليه أشار أبو عبيدة بقوله: هو المرائي يلبس ثياب الزهاد ويرى أنه زاهد.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٠٣٤) وأبو داود في سننه (٤٨١٣) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة رقم (٦١٧).

٧٢ ـ باب ما جاء في لمز أهل طاعة الله والاستهزاء بضعفهم

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحمل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن هذا، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: الآية ٧٩] [(١)] [١].

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٨/ ٤٢٢):

قوله: «كنا نتحامل» أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة وفي رواية بلفظ: «نحامل» أي نؤاجر أنفسنا من الحمل، قوله: «فنزلت الذين يلمزون المطوعين».. وأصله المتطوعين فأدغمت التاء في الطاء وهم الذين يغزون بغير استعانة برزق من سلطان أي غيره.

وقال رحمه الله: في الفتح (٣/ ٣٦٢):

قوله: «**يلمزون**» أي يعيبون... وفي الحديث الحث على الصدقة بما قل وما جل وأن لا يحتقر ما يتصدق به، وأن اليسير من الصدقة يستر المتصدق من النار.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٤١٥ و٤٦٦٨) ومسلم في صحيحه برقم (١٠١٨).

٧٣ ـ باب الاستهزاء

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطفّفين: الآية ٢٩] [١].

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٠] [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٢٧٧):

لما ذكر تعالى جزاء المجرمين، وجزاء المحسنين، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزئون بهم، ويضحكون منهم فيتغامزون بهم، عند مرورهم عليهم، احتقاراً لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا يخطر الخوف على بالهم.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٧٦٣):

.. ثم ذكر (سبحانه) الحال التي أوصلت (هؤلاء الكفار) إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: **﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾** فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه، ما يدل على خضوعهم، وخشوعهم، وإنكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم. فهؤلاء سادات الناس وفضلائهم **﴿فاتخذتموهم﴾** أيها الكفرة والأنذال ناقصو العقول والإحلام **﴿سخرياً﴾** يهزأون بهم، وتحتقروهم حتى اشتغلتم بذكر السفه **﴿حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾** وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحُجرات: الآية ١١] [١].

عن الحسن قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ المستهزئينَ بالنَّاسِ.. يفتحُ لأحدِهِمْ في الآخرَةِ بَابٌ مِنَ الجنَّةِ فَيقالُ لهُ: هَلُمَّ هَلُمَّ! فيجيءُ بكَربِهِ وغمهِ فإذا جاءَه أُغلقَ دونُه، ثمَّ يفتحُ لهُ بابٌ آخرُ، فيقالُ لهُ: هَلُمَّ هَلُمَّ، فيجيء بكربِهِ وغمهِ فإذا جاءَهُ أُغلقَ دونهُ، فمَا يزَالُ كذلكَ حتَّى إنَّ أحدهُمْ ليفتحُ لهُ البابُ مِنْ أبوابِ الجنَّةِ فيقالُ لهُ: هَلُمَّ فَمَا يأتيهِ مِنَ اليأسِ**» أخرجهُ البيهقي[1].

الاستهزاء. فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجرأة جرأة؟

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١١١٥):

وهذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، أن ﴿**لا يسخر قوم من قوم**﴾ بكل كلام، وقول، وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام، لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه.

وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، وهو الغالب والواقع فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلىء من مساوىء الأخلاق، مُتَحَلٍّ بكل خلق ذميم، مُتخلٍّ عن كل خلق خلق كريم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**بحسب امرىء من الشر، أن يحقر أخاه المسلم**».

ثم قال: ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم**﴾، أي: لا يعب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهيٌّ عنه حرام، متوعد عليه بالنار، كما قال تعالى: ﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾ الآية.

وسمى الأخ المسلم نفساً لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣١٠) برقم (٦٧٥٧) وهو حديث مرسل.

ولابنِ أبي حاتِم وغيره عن ابنِ عمرو مرفوعاً: «**مَن مَاتَ هَمَّازاً لمازاً مُلَقِّباً للنَّاسِ كَانَ علامتُهُ أَنْ يَسمهُ الله علَى الخرطوم مِنْ كِلاَ الشدقينِ**»[1].

﴿**ولا تنابزوا بالألقاب**﴾، أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب يكره أن يقال فيه، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا.

﴿**بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان**﴾، أي: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما يقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب.

﴿**ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾، وهذا هو الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله، والاستغفار، والمدح مقابلة على ذمه.

﴿**ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثَمَّ غيرهما.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/٣٠٧) برقم (٦٧٤٤) بنحوه.

٧٤ ـ باب ترويع المسلم

عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى قالَ: حَدثنا أَصحابُ رسولِ الله ﷺ أَنَّهُمْ كَانوا يسيرونَ مَع النَّبي ﷺ فنامَ رجلٌ مِنهمْ فقامَ بعضهمْ إلى حَبلٍ معهُ فأَخَذَهُ ففزعَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنَّهُ لاَ يَحلُّ لمسلمٍ أَنْ يروعَ أَخَاهُ**» رواهُ أبو داود(١) [١].

---

[١] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٢/ ٦٥١٩):

«**لا يحل لمسلم أن يروع**» بالتشديد أي يفزع «**مسلماً**» وإن كان هازلاً كإشارته بسيف إلى حديدة أو أفعى أو أخذ متاعه فيفزع لفقده، لما فيه من إدخال الأذى والضرر عليه، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٥٠٠٤) وأحمد في المسند (٥/ ٣٦٢) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤١٨٤).

٧٥ ـ باب المتشبع بما لم يعط

ولَهما عن أَسماءَ أَنَّ امرأَةً قالتْ: يَا رسولَ الله إنَّ لي ضرةً فهَلْ عَليَّ جناحٌ إن تشبعتُ مِن زوجي بمَا لم يعطني فقال: **«المتشبعُ بِمَا لَم يعطَ كَلابِس ثوبيَ زُورٍ»**(١) .[١]

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قال العلماء: معناه المتكثر بما ليس عنده بأن يظهر أن عنده ما ليس عنده يتكثر بذلك عند الناس ويتزين بالباطل فهو مذموم، كما يذم من لبس ثوبي زور، قال أبو عبيد وآخرون: هو الذي يلبس ثياب أهل الزهد والعبادة والورع، ومقصوده أن يظهر للناس أنه متصف بتلك الصفة ويظهر من التخشع والزهد أكثر مما في قلبه فهذه ثياب زور ورياء، وقيل: هو كمن لبس ثوبين لغيره وأوهم أنهما له. وحكى الخطابي قولاً آخر: أن المراد هنا بالثوب الحالة والمذهب، والعرب تكني بالثوب عن حال لابسه، ومعناه: أنه كالكاذب القائل ما لم يكن.. والله أعلم.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٢/ ٦١٠١):

«المتشبع بما لم يعط».. أصل المتشبع الذي يظهر أنه شبعان وليس بشبعان، ومعناه هنا كما قاله النووي وغيره أنه يظهر أنه حصل له فضيلة وليست بحاصلة، **«كلابس ثوبي زور»** أي ذي زور وهو من يزور على الناس فيلبس لباس ذوي التقشف ويتزيي بزي أهل الزهد و الصلاح والعلم وليس هو بتلك الصفة وإضافة الثوبين إلى الزور لأنهما لبسا لأجله وثنى باعتبار الرداء والإزار يعني أن المتحلي بما ليس له كمن لبس ثوبين من الزور فارتدى بأحدهما وتأزر بالآخر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٢١٩) ومسلم في صحيحه كتاب اللباس (٣/ ١٦٨١) برقم (٢١٣٠).

٧٦ ـ باب التحدث بالمعصية

ولَهمَا عن أبِي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**كُلُّ أُمَّتي مُعافَى إلاَّ المجَاهرينَ، وَأَنَّ مِنَ المجاهرةِ أَنْ يعملَ الرَّجُلُ عَمَلاً بالليلِ، ثُمَّ يصبحُ وقدْ سترَهُ الله، فيقولُ يَا فُلانُ عَملتُ البارحَةَ كَذا وكَذا وقدْ بَات يسترهُ ربُّهُ، وأصبحَ يكشفُ سِتْرَ الله عليهِ**»(١) [١].

---

[١] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٩/ ٤٤٥٤):

«**كل أمتي معافى**» بفتح الفاء مقصوراً اسم مفعول من عافاه الله إذ أعطاه أو بمعنى عفا الله عنه، «**إلا المجاهرين**» أي لكن المجاهرين بالمعاصي كشفوا ستر الله عنهم لا يعافون، وروي المجاهرون بالرفع ووجهه بأن معافى في معنى النفي فيكون استثناء من كلام غلو موجب والتقدير لا ذنب لهم إلا المجاهرون.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٠٦٩) ومسلم في صحيحه كتاب الزهد (٤/ ٢٢٩١) برقم (٢٩٩٠).

٧٧ ـ باب ما جاء في الشتم بالزنا

عَنْ أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**مَنْ قَذَفَ مَملوكَهُ بالزِّنَا يُقامُ عليهِ الحدُّ يومَ القيامَةِ إلاَّ أَنْ يَكونَ كَمَا قَالَ**»(١) [١].

---

[١] قال المناوي رحمه الله (١١/ ٥٩٤٩ فيض القدير):

«**من قذف مملوكه**» أي رماه بالزنا «**وهو**» أي والحال أنه أي: المملوك «**بريء مما قال**» سيده فيه لم يجد لقذفه في حكم الدنيا، لأن شرط حد القذف الإحصان والقن غير محصن وعليه يستوي مملوكه ومملوك غيره لكنه يعزر لمملوك غيره و«**جلد**» السيد «**يوم القيامة**» أي ضرب يوم الجزاء الأكبر «**حدّاً**» لانقطاع الرق بزوال ملك السيد المجازي وانفراد البارىء تعالى بالملك الحقيقي، وحصول التكافىء ولا تفاضل يومئذ إلا بالتقوى «**إلا أن يكون**» المملوك «**كما قال**» من كونه زانيا فلا يحد في الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٨٥٨) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٣/ ١٢٨٢) برقم (١٦٦٠).

٧٨ ـ باب النهي عن تسمية الفاسق سيداً

عن بريدة مرفوعاً قَالَ: قَال رسولُ الله ﷺ: **«لاَ تَقُولُوا للمُنَافِقِ سَيدٌ فإنَّهُ إن يَكُ سيداً فَقدْ أسخطتُمْ ربَّكمْ»**. رواه أبو داود بسند صحيح[(١)] [١].

---

[١] قال الإمام الطيبي في شرحه لمشكاة المصابيح (١٠/ ٣٠٩٥):

قوله: **«إن يك سيداً»** أي إن يك سيداً لكم، فيجب عليكم طاعته، فإذا أطعتموه فقد أسخطتم ربكم، أو لا تقولوا للمنافق سيداً، فإنكم إن قلتم ذلك فقد أسخطتم ربكم، فوضع الكون موضع القول تحقيقاً له، وفيه أن قول الناس لغير الله «مولانا» كالحكماء والأطباء داخل في هذا النهي والوعيد بل هو أشد لورود قوله تعالى «مولانا» في التنزيل دون السيد.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٩٧٧) وأحمد في المسند (٥/ ٢٤٦) والبخاري في الأدب المفرد برقم (٧٦١) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤١٦٣) والصحيحة برقم (٣٧٠).

٧٩ ـ باب النهي عن الحلف بالأمانة

عن بريدةَ رضي الله عنهُ مرفوعاً: «مَنْ حَلَفَ بالأَمانَةِ فَلَيسَ مِنَّا» رواه أبو داودَ بسند صحيح(١) [١].

---

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (١١/ ٥٧٧٩):

قوله ﷺ: «**من حلف بالأمانة**» أي الفرائض كصلاة وصوم وحج «**فليس منا**» أي ليس من جلة المتقين معدوداً ولا من جملة أكابر المسلمين محسوباً وليس من ذوي أسوتنا فإنه من ديدن أهل الكتاب ولأنه سبحانه أمر بالحلف بأسمائه وصفاته، والأمانة أمر من أموره، فالحلف بها يوهم التسوية بينها وبين الأسماء والصفات فنهوا عنه كما نهوا عن الحلف بالآباء، قال الطيبي: ولعله أراد الوعيد عليه لكونه حلفاً بغير الله وصفاته ولا تتعلق به الكفارة وفاقاً وقال الشافعية: من قال: عليّ أمانة الله لأفعلن كذا وأراد اليمين كان يميناً وإلا فلا.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٢٥٣) وأحمد في المسند (٥/ ٣٥٢) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (٩٤).

٨٠ ـ باب النهي عن الحلف بملة غير الإسلام

عن أبي زَيدٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«مَنْ حَلفَ بملَّةٍ غيرِ الإِسلام كَاذباً متعمداً فهو كَمَا قَال»** أخرجاه[1] [١].

وَعَنْ بُريدةَ ـ رضي الله عنه ـ قَال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«مَنْ حَلَفَ فَقَالَ أنَا بريءٌ مِنَ الإِسلام، فَإنْ كَانَ كاذِباً فَهوَ كَمَا قَالَ، وإنْ كَانَ صادقاً فلنْ يَرجعَ إلى الإِسلام سَالِماً»** رواهُ أبو داود[2] [٢].

---

[١] قال الإمام ابن حجر رحمه الله في الفتح (١١/ ٦٥٩):

الملة بكسر الميم وتشديد اللام: الدين والشريعة وهي نكرة في سياق الشرط فتعم جميع الملل من أهل الكتاب كاليهودية والنصرانية من لحق بهم من المجوسية والصابئة وأهل الأوثان والدهرية والمعطلة وعبدة الشياطين والملائكة وغيرهم.

قوله **«فهو كما قال»** قال ابن دقيق العيد: ولا يكفر في صورة الماضي إلا إن قصد التعظيم... ويحتمل أن يكون المراد بهذا الكلام التهديد والمبالغة في الوعيد لا الحكم وكأنه قال فهو مستحق مثل عذاب من اعتقد ما قال، ونظيره **«من ترك الصلاة فقد كفر»** أي استوجب عقوبة من كفر، وقال ابن المنذر: قوله **«فهو كما قال»** ليس على إطلاقه في نسبته إلى الكفر بل المراد أنه كاذب ككذب المعظم لتلك الجهة.

[٢] قال العظيم آبادي رحمه الله في عون المعبود (٩/ ٤٦):

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣٦٣ و٦٠٤٧ و٦١٠٥ و٦٦٥٢) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ١٠٤) برقم (١١٠).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٢٥٨) والنسائي في سننه برقم (٣٧٨١) وابن ماجه في سننه برقم (٢٠٩٨) وأحمد في المسند (٥/ ٣٥٥، ٣٥٦) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الإرواء برقم (٢٥٧٦).

. . . .

قوله: «**إني بريء من الإسلام**» أي لو فعلت كذا أو لم أفعله «**فإن كان كاذباً**» أي في حلفه «**فهو كما قال**» فيه مبالغة تهديد وزجر مع التشديد عن ذلك القول.

قال الخطابي: فيه دليل على أن من حلف بالبراءة من الإسلام فإنه يأثم ولا تلزمه الكفارة، وذلك لأنه جعل عقوبتها في دينه ولم يجعل في ماله شيئاً، وقد ذكرنا اختلاف أهل العلم في الباب الأول. انتهى.

«**وإن كان صادقاً**» أي في حلفه يعني مثلاً حلف إن فعلت كذا فأنا بريء من الإسلام فلم يفعل فبر في يمينه سالماً لأن فيه نوع استخفاف بالإسلام فيكون بنفس هذا الحلف آثماً.

٨١ ـ باب ما جاء في الغيبة

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحُجرات: الآية ١٢] الآية [١].

عَنْ أبي بَكرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ في خُطبتهِ يَوْمَ النَّحْر: **«أيُّ شَهر هَذا؟»** فسكتْنا حتَّى ظننَّا أنَّهُ سيسميهِ بغيْر اسمِهِ. فقال: **«أَلَيْسَ ذا الحجةِ؟»** قُلنا: بَلى. قَال: **«فأيُّ بَلدٍ هذا؟»** فَسكتْنا حَتَّى ظننَّا أنَّهُ سَيسمِّيهِ بغيْرِ اسمِهِ فقالَ: **«أليسَ بَلَدَ الله الحَرَامَ؟»** قُلنا: بَلَى. قَالَ: **«فأيُّ يَوْم هَذَا؟»** فسكتنَنا حَتَّى ظننا أنَّهُ سَيسَمِّيهِ بغير اسمهِ. فقالَ: **«أَليسَ يَومَ النَّحْر؟»** قلنا: بَلى قَال: **«فَإنَّ دماءَكُمْ وأموالكُمْ وأعراضكُمْ عَليكُمْ حَرامٌ كَحُرمة يَومِكُمْ هَذَا في شهركُمْ هَذا في بَلَدِكُمْ هَذَا، وَستلقونَ رَبَّكُمْ فَيسألكُمْ عَن أعمالكُمْ، ألاَ فلا ترجعوا بعدي كُفَّاراً يضربُ**

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١١١٦):

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ: **«ذكرك أخاك بما يكره»** ولو كان فيه.

ثم ذكر مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال: **﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾**، شبه أكل لحمه ميتاً، المكروه للنفوس غاية الكراهة، باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، خصوصاً إذا كان ميتاً، فاقد الروح، فكذلك، فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه حيّاً.

﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾، والتواب: الذي يأذن بتوبة عبده، فيوفقه لها، ثم يتوب عليه، بقبول توبته، رحيم بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة، وفي هٰذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأنها من الكبائر، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

بعضكُم رقابَ بعضٍ، ألا فليبلغ الشاهدُ منكُمْ الغائِبَ، فلعلَّ بعض مَن يبلغُهُ أن يكونَ أوعَى له مِن بعض من سمعهُ». ثُمَّ قَالَ: **«ألاَ هل بلَّغتُ؟»** قلنَا: نَعَمْ قَال: **«اللَّهُمَّ اشهدْ»** قالهَا ثلاثاً. أخرجاه(1) [1].

---

[2] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (4/ 633) وما بعدها:

ثم سألهم النبي عليه الصلاة والسلام: أي شهر هذا؟ وأي بلد هذا؟ وأي يوم هذا؟ سألهم عن ذلك من أجل استحضار هممهم، وانتباههم لأن الأمر أمر عظيم، فسألهم: **«أي شهر هذا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، لأنهم استبعدوا أن يسأل النبي ﷺ عن الشهر وهو معروف أنه ذي الحجة، ولكن من أدبهم رضي الله عنهم أنهم لم يقولوا هذا شهر ذي الحجة، لأن الأمر معلوم، بل من أدبهم أنهم قالوا: الله ورسوله أعلم.

ثم سكت لأجل أن الإنسان إذا تكلم ثم سكت انتبه الناس: ما الذي أسكته؟ وهذه طريقة متبعة في الإلقاء، أن الإنسان إذا رأى من الناس الذين حوله عدم إنصات يسكت حتى ينتبهوا، لأن الكلام إذا كان مسترسلاً فقد يحصل للسامع غفلة، لكن إذا توقف فإنهم سينتبهون لماذا وقف؟

وسكت النبي عليه الصلاة والسلام، يقول أبو بكر حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، ثم قال: **«أليس ذا الحجة؟»** قالوا بلى، ثم قال عليه الصلاة والسلام: **«أي بلد هذا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، هم يعلمون أنه مكة لكن لأدبهم واحترامهم لرسول الله ﷺ، لم يقولوا هذا شيء معلوم يا رسول الله، كيف تسأل عنه؟ بل قالوا: الله ورسوله أعلم. ثم سكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: **«أليس البلدة؟»** والبلدة اسم من أسماء مكة. ثم قال: **«أي يوم هذا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، مثل ما قالوا في الأول، قال: **«أليس يوم النحر؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، وهم يعلمون أن مكة حرام، وأن شهر ذي الحجة حرام، وأن يوم النحر حرام يعني كلها حرم محترمة.

فقال عليه الصلاة والسلام: **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (3/ 573) حديث رقم (1739) ومسلم في صحيحه (3/ 1305) حديث رقم (1679).

. . . .

كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا» فأكد عليه الصلاة والسلام تحريم هذه الثلاثة: الدماء والأموال والأعراض، فكلها محرمة.

والدماء تشمل النفوس وما دونها، والأموال تشمل القليل والكثير، والأعراض تشمل الزنا واللواط والقذف، وربما تشمل الغيبة والسب والشتم. فهذه الأشياء الثلاثة حرام على المسلم أن ينتهكها من أخيه المسلم.

فلا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاثة: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة[1].

الأموال أيضاً حرام، فلا يحل مال أمرىء مسلم إلا بطيب نفس منه، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: الآية ٢٩].

والأعراض أيضاً محترمة، لا يحل للمسلم أن يغتاب أخاه، أو أن يقذفه، بل إن القاذف إذا قذف شخصاً عفيفاً بعيداً عن التهمة، وقال: يا زاني، أو أنت زاني، أو أنت لوطي، أو ما أشبه ذلك، فإما أن يأتي بأربعة شهداء يشهدون على الزنا صريحاً، وإلا فإن هذا القاذف يعاقب بثلاث عقوبات.

العقوبة الأولى: أن يجلد ثمانين جلدة، **والعقوبة الثانية**: ألا تقبل له شهادة أبداً كلما شهد عند القاضي ترد شهادته، سواء شهد بالأموال، أو شهد بالدماء، أو شهد برؤية الهلال، أو شهد بأي شيء آخر يرفض القاضي شهادته ويردها، **العقوبة الثالثة**: الفسق، أن يكون فاسقاً بعد أن كان عدلاً، فلا يزوج ابنته ولا أخته ولا يتقدم إماماً في المسلمين عند كثير من العلماء، ولا يولى أي ولاية لأنه صار فاسقاً، هذه عقوبة من يرمي شخصاً بالزنا أو باللواط.

إلا أن يأتي بأربعة شهداء، قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور: الآية ١٣] حتى لو فرض أن هذا

(١) كما جاء ذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٦٨٧٨) كتاب الديات، ومسلم في صحيحه رقم (١٦٧٦) كتاب القسامة.

. . . .

الرجل من أصدق الناس ولم يأت بالأربعة شهداء، فإنه يجلد ثمانين جلدة.

ولهذا شهد أربعة من الرجال، على رجل بأنه زنى عند عمر بن الخطاب، فجاء بهم عمر فسألهم، قال للأول تشهد أنه زنى؟ قال: نعم، قال: تشهد أنك رأيت ذكره في فرجها غائباً كما يغيب المرود في المكحلة؟ قال: نعم، فجاء بالثاني، قال نعم، فجاء بالثالث: قال نعم، فجاء بالرافع فتوقف، قال أنا لا أشهد بالزنا، لكني رأيت أمراً منكراً، قال: رأيت رجلاً على امرأة يتحرك كتحرك المجامع لكن لا أشهد فجلد الثلاثة الأولين على ثمانين جلدة، لأنه تبين أنهم كذبة وأطلق الرابع.

فالأعراض من أشد الأشياء حرمة، ولهذا كما سمعتم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً﴾ [النُّور: الآية ٤] هذه هي العقوبة الأولى ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ﴾ وهذه هي الثانية ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النُّور: الآية ٤] وهذه هي الثالثة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ [النُّور: الآية ٥] يعني لا يكونون فساقاً، لكن بشرط التوبة والإصلاح، ما يكفي أن يقول أنا تائب حتى ننظر هل الرجل أصلح أم لم يصلح؟.

إذن جدير بمن كانت هذه حاله أن يؤكده النبي ﷺ في هذه الخطبة العظيمة، في مشهد الصحابة، في يوم النحر في منى، يقول عليه الصلاة والسلام: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**».

ثم قال: «**ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» لأن المسلمين لو صاروا يضرب بعضهم رقاب بعض صاروا كفاراً، لأنه لا يستحل دم المسلم إلا الكافر، فالمسلم لا يمكن أن يشهر السلاح على أخيه، لكن لا أحد يشهر السلاح على المسلم إلا الكافر، ولهذا وصف النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين إذا اقتتلوا بأنهم كفار فقال: «**ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض**».

وهذه المسألة بحسب النصوص فيها تفصيل؛ إن قاتل المسلم مستحلاً لقتله بغير إذن شرعي فهو كافر كفراً مخرجاً عن الملة، وإن قاتله بتأويل، أو لقصد رئاسة، أو لقصد سلطان فهذا لا يكفر كفر ردة، ولكنه كفر دون كفر، ودليل ذلك قوله تعالى:

. . . .

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ [الحجرات: الآيتان ٩ ـ ١٠] وهذا هو الجمع بين هذه الآية وبين الحديث، فيقال إن تقاتل المسلمون مستحلاً كل واحد دم أخيه فهو كافر كفراً مخرجاً عن الملة، وإن كان لرئاسة أو عصبية أو حمية أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يكفر كفر رده، بل يكون كفره كفراً دون كدر، وعليه أن يتوب ويستغفر.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟**» يسأل الصحابة رضي الله عنهم. قالوا نعم، أي بلغت، فتأمل كيف يقرر النبي عليه الصلاة والسلام أنه بلغ في المواطن العظيمة الكثيرة الجمع، في عرفة خطبهم عليه الصلاة والسلام، قال: «**ألا هل بلغت؟**» قالوا نعم، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس، يقول: اللهم أشهد عليهم أنني بلغتهم، وكذلك أشهد ربه على أنه بلغ أمته وأقروا بذلك في يوم النحر.

ونحن نشهد ونشهد الله وملائكته ومن سمعنا من خلقه أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، وأنه بلغ الأمانة وأدى الرسالة ونصح الأمة، فما ترك خيراً إلا ودل أمته عليه، ولا شرّاً إلا وحذرهم منه، وأنه ترك أمته على المحجة البيضاء، وأنه ما بقي شيء من أمور الدين أو الدنيا تحتاجه الأمة إلا بينه عليه الصلاة والسلام، ولكن الخطأ ممن يبلغه الخبر، فهو الذي قد يكون قاصراً في فهمه، وقد يكون له نية سيئة فيحرم الصواب، وقد يكون هناك أسباب أخرى، وإلا فالرسول عليه الصلاة والسلام بلغ بلاغاً تاماً كاملاً.

والصحابة رضي الله عنهم بلغوا جميع ما سمعوه منه عليه الصلاة والسلام ما كتموا من سنته شيئاً، وبلغوا ما جاء به من الوحي، ولم يكتموا منه شيئاً، فجاءت الشريعة ولله الحمد كاملة من كل وجه، بلغها النبي ﷺ عن ربه ثم بلغها الصحابة رضي الله عنهم ربهم، ثم التابعون عمن قبلهم وهكذا إلى يومنا هذا ولله الحمد.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن يبلغ الشاهد الغائب، يعني يبلغ من شهده وسمع

. . . .

خطبته أن يبلغ باقي الأمة، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه ربما يكون مبلغ أوعى للحديث من سامع، وهذه الوصية من الرسول عليه الصلاة والسلام، وصية لمن حضر في ذلك اليوم، ووصية لمن سمع حديثه إلى يوم القيامة، فعلينا إذا سمعنا حديثاً عن الرسول عليه الصلاة والسلام أن نبلغه إلى الأمة.

ونحن محملون بأن نبلغ ومنهيون بأن نكون كاليهود؛ الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، وقد وصفهم الله بأبشع وصف، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجُمُعَة: الآية ٥] فالحمار إذا حمل أسفاراً ـ يعني كتباً ـ فإنه لا ينتفع منها، إذا كان الحمار يحمل أسفاراً لا ينتفع منها، فالذي يحمل القرآن أو السنة ولا ينتفع منها كمثل الحمار يحمل أسفاراً. نسأل الله أن يرزقني وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

ويستفاد من هذا الحديث تحذير النبي عليه الصلاة والسلام أمته من قتال بعضهم بعضاً، ولكن مع الأسف أنه وقع بينهم السيف، وصارت الفتن منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى يومنا هذا، وما زالت الفتن قائمة بين الناس، لكن أحياناً تشتعل اشتعالاً واسعاً، وأحياناً تكون في مناطق معينة.

ولكن الواجب على المسلم أن يتقي دم أخيه ما استطاع، نعم إذا بلي الإنسان بنفسه وصيل عليه يريد الصائل نفسه أو ماله أو حرمته، فله أن يدافع عن نفسه، ولكن بالأسهل فالأسهل، فإن لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتله، فإن قتله فالصائل في النار، وإن قُتل الدافع فهو شهيد، كما جاء ذلك عن النبي ﷺ.

وفي هذا الحديث تحذير من أعراض المسلمين، وأنه لا يجوز للمسلم أن ينتهك عرض أخيه، لا صادقاً ولا كاذباً، لأنه إن كان صادقاً فقد اغتابه وإن كان كاذباً فقد بهته، وأنت إذا رأيت من أخيك شيئاً تنتقده فيه في عباداته أو في أخلاقه أو في معاملاته، فعليك بنصيحته، فهذه من واجبه عليك، وتنصحه فيما بينك وبينه مشافهة أو مكاتبة، وبهذا تبرىء ذمتك.

لكن هنا شيء لا بد منه؛ وهو أنك إذا أردت أن تناصحه بالمكاتبة فلا بد أن تذكر

ولهما عن ابن عَمرو ـ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: **«المُسلِمُ مَنْ سَلِمَ المسلمُونَ مِنْ لسانِه ويَدِهِ، والمهاجرُ مَنْ هَجَرَ نَهَى الله عنه»**(١) [١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: **«مَنْ أَكَلَ لحمَ أخيهِ في الدنيا قُرب إليه يَومَ القيامة، فيقالُ له كُلهُ ميتاً كَما أكلتهُ حيّاً فيأْكُلُه فيكلح ويصيح»** رواه أبو

اسمك، ولا تخاف ولا تكن جباناً، أذكر وقل من فلان إلى أخيه فلان بن فلان. . . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد. . . فأنا انتقد عليك كذا وكذا وكذا، من أجل أنه إذا عرف اسمك دعاك أو أتى إليك وناقشك في الأمر.

أما أن تكون جباناً، ترمي من وراء جدار، فهذا لا يليق بالمسلم، وليس هذا بنصح، لأنك ستبقى حاملاً عليه في قلبك فيما تراه أنه أخطأ فيه، وهو سيبقى ويستمر على ما هو فيه، لأن الذي كتب له بالنصيحة ليس أمامه حتى يشرح له وجهة نظره، ويستفسر منه عن وجهة نظره هو الآخر، فيبقى الشر على ما هو عليه، والخطأ على ما هو عليه.

لكن إذا كتب اسمه كان مشكوراً على هذا، وكان بإمكان المكتوب إليه المنصوح أن يخاطبه، وأن يبين له ما عنده، حتى يقتنع أحد الرجلين بما عند الآخر.

[١] تقدم شرحه في الباب رقم (١٤).

قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٢/ ٦١٢٣ و٦١٢٤):

«المسلم» الكامل في الإسلام، قال ابن الكمال: ولا يلزم منه أن من اتصف بما يأتي فقط يكون كاملاً لأن المراد بذلك مع رعاية بقية الأركان «من» أي إنسان أتى أركان الدين و**«سلم المسلمون»** وغيرهم من أهل الذمة فالتقييد غالباً كالتعبير بجمع المذكر **«من لسانه ويده»** خصا بالذكر لأن الأذى بهما أغلب وقدم اللسان لأكثرية الأذى به، ولكونه المعبر عما في الضمير وعبر به دون القول ليشمل من أخرج لسانه استهزاء وباليد دون بقية الجوارح ليدخل اليد المعنوية كالاستيلاء على حق الغير ظلماً، وأما إقامة الحد والتعزير فبالنظر إلى المقصود الشرعي إصلاح ولو مآلاً لا أبداً وفيه من أنواع

---

(١) تقدم تخريجه في الباب رقم (١٤).

يعلى بسند حسن[1].

ولابن حبانَ وصححهُ عنهُ في قصة ماعزٍ أنَّ رجلاً قالَ لآخرَ: انظرْ إلى هذا الرَّجُلِ الذي سَتَر الله عليهِ فَلَمْ يَدعْ نفسهُ حتَّى رُجم رَجْمَ الكلب، فقالَ لهما النبي ﷺ: **«كُلاَ مِنْ جيفَةِ هَذا الحِمارِ الميِّتِ كَمَا أَكَلْتُمَا عِرضَ هَذا الرَّجُلِ، فَإنَّ ما نلْتُمَا أشَدُّ مِنْ أَكْلِ هذه الجِيفَةِ»**[2].

ولهمَا عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ بقبْريْنِ فَقَالَ: **«إنَّهما ليعذبانِ ومَا يُعذبانِ في كَبيرٍ بَلى أنَّهُ كبيرٌ أَمَّا أحدهُمَا فكانَ لا يستبرىءُ مِن البولِ وأمَّا الآخرُ فكانَ يَمشي بالنَّمِيمَةِ»**[3] [١].

أخرَجَ البخاريُّ في الأدب المفرَدِ نحوهُ من حَديثِ جَابِر. وفيهِ **«أمَّا أحدهُمَا فكَانَ يَغْتَابُ النَّاسَ»**[4] [٢].

البديع جناس الاشتقاق.

[١] تقدم شرحه في الباب رقم (٥١) وانظر شرح الحديث القادم إن شاء الله.

[٢] قال الجيلاني رحمه الله في فضل الله الصمد (٢/ ١٩٩ وما بعدها):

قوله **«في كبير»** أي ليس بشاق عليهما تركه والاجتناب عنه، أي كان هيّناً الابتعاد عنه.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (٨/ ٢١٠) برقم (٤٩٦١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٢): رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، ومن لم أعرفه.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٤٦) برقم (٤٤٠٠) والبخاري في الأدب المفرد برقم (٧٣٧) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في تخريجه للأدب المفرد وفي الضعيفة برقم (٦٣١٨).

(٣) تقدم تخريجه في الباب رقم (٥١).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٧٣٥) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في تخريجه للأدب المفرد.

ولأحْمَدَ بسنَدٍ صحيح معناهُ. من حديث أبي بكرة ولأبي داود الطيالسي عَن ابْنِ عَبَّاسٍ مثلهُ بسندٍ جيد[1].

قوله «**بلى**» في أدب الصحيح في حديث ابن عباس «**وإنه لكبير**» وسبب كونهما كبيرين أن عدم التنزه من البول يلزم منه بطلان الصلاة فتركه كبيرة، ولفظ كان يغتاب الناس يدل على اعتباره للنميمة فهو من أقبح القبائح.

قوله: «**لا يتأذى**» أي لا يحس بالأذى ولا يدركه فيبعد عنه، وفي غير هذا الحديث يستتر، ويستنزه، يتنزه، يستبرىء. قال النووي: كلها صحيحة، ومعناها لا ينجيه ويتحرز منه.

قوله: «**البول**» وسياق الحديث يدل على أن للبول بالنسبة إلى عذاب القبر خصوصية يشير إلى ما صححه ابن خزيمة من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**أكثر عذاب القبر من البول**» وكذا في حديث أبي بكرة عند أحمد وابن ماجه وفي حديث أنس عن الطبراني «**أما أحدهما فيعذب في البول**» والمراد بتخصيص هذين الأمرين بالذكر تعظيم أمرهما، لا نفي الحكم عما عداهما، فعلى هذا لا يلزم من ذكرهما حصر عذاب القبر فيهما، لكن الظاهر من الاقتصار على ذكرهما أنهما أشد من غيرهما.

وقد جعل بعضهم مناسبة للجمع بين هاتين الخصلتين وهي أن البرزخ مقدمة الآخرة، وأول ما يقضي فيه يوم القيامة من حقوق الله الصلاة، ومن حقوق العباد الدماء، ومفتاح الصلاة التطهر من الحدث و الخبث، ومن مبادىء سفك الدماء الغيبة والسعي بين الناس بالنميمة بنشر الفتن، فالأولى أن يسأل عنهما في أول موقف للبرزخ، ويمكن أن يقاس عليهما ما كان في مثابتهما كسوء الأخلاق وإساءة الأدب يعذب بها في القبر، والمعاصي يعذب بها في النار. قال الشاه ولي الله عليه رحمة الله: إن مخالطة النجاسة والعمل الذي يؤدي إلى فساد ذات البين يوجب عذاب القبر (حجة الله البالغة).

قوله: «**فدعا بجريدة**» هو الغصن الذي جردت عنه أوراقه. وفي الدر المختار: إن إنبات الشجرة مستحبة، أما إلقاء الرياحين على القبور فلغو وعبث، صرح به البدر

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٢٥) والطيالسي في مسنده برقم (٢٦٤٦).

وللترمذي وصححهُ عَنْ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالتْ للنبي ﷺ: حَسبُكَ مِنْ صفية كَذَا وكَذا ـ قالَ بعضُ الرُّواةُ تَعني أَنَّهَا قصيرةٌ. قالَ: **«لقَد قُلتِ كلمةً لَو مُزِجتْ بماء البحر لمزجتهُ»** ـ قالتْ: وحكَيْتُ لهُ إنساناً فقالَ: **«ما أُحبُّ أن تَحكي لي إنساناً وأنَّ لي كَذَا وكَذا»**(١) رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح. [١].

العيني، قال النووي والخطابي: لا أصل له، وأجازه في الفتاوي الهندية تمسكاً بحديث الباب، والتمسك ضعيف، ولما كانت الملائكة تتأذى من النجاسات بطبعهم وأول ما يكون العبد في أيدي الملائكة في القبر فيقع منهم التعذيب بهذا في أول وهلة، والبول نجاسة حسّاً، والنميمة والغيبة معنى لأنه لحم ميت.

قوله: **«سيهون من عذابهما»** وليس في الجريد معنى يخصه، ولا في الرطب معنى ليس في اليابس، إنما هي مدة عينها ﷺ، وهو خاص ببركة يده الكريمة ومن ثم استنكر الخطابي وضع الناس الجريدة ونحوها على القبر عملاً بهذا الحديث وكذلك الطرطوشي في سراج الملوك قائلين بأن ذلك خاص بالنبي ﷺ لبركة يده المقدسة وبعلمه بما في القبور.

[١] قال الإمام الطيبي في شرحه لمشكاة المصابيح (١٠/ ٣١٢٨):

قال القاضي ناصر الدين: المزج الخلط والتغيير بضم غيره إليه والمعنى أن هذه الغيبة لو كانت مما يمزج بالبحر، لغيرته من حال مع كثرته وغزارته، فكيف بأعمال نزر(٢) خلطت بها؟

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٨٧٥) والترمذي في سننه برقم (٢٥٠٢ و٢٥٠٣) وأحمد في المسند (٦/ ١٨٩) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤٠٨٠).

(٢) أي قليلة.

٨٢ ـ باب ما جاء في إضلال الأعمى عن الطريق

عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ «**لَعَنَ من أضلَّ الأعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ**»(١).

ولأبي داود عن معاذٍ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**مَنْ حَمَى مؤمِناً مِنْ منافقٍ آذاهُ بَعثَ الله لهُ يَومَ القِيامَةِ مَلكاً يَحمي لَحْمَهُ مِنْ نَارِ جهنَّمَ، ومَنْ رَمَى مُسلماً بشيءٍ، يُريدُ شينَهُ حبسهُ الله على جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يخرجَ ممَّا قَالَ**»(٢).

---

[١] قال العظيم آبادي رحمه الله في عون المعبود (١٣/ ١٠٦):

«**من حمى**» من الحماية أي حرس وحفظ «**مؤمناً**» أي عرضه «**من منافق**» أي مغتاب وإنما سمي منافقاً لأنه لا يظهر عيب أخيه عنده ليتدارك بل يظهر عنده خلاف ذلك، أو لأنه يظهر النصيحة ويبطن الفضيحة «**يحمي لحمه**» اي لحم حامي المؤمن «**ومن رمى مسلماً**» أي قذفه «**بشيء**» أي من العيوب «**يريد شينه**» أي عيبه «**به**» أي بذلك الشيء، والجملة حال من الضمير للاحتراز عمن يريد به زجره أو احتراس غيره عنه ونحو ذلك من المجوزات الشرعية «**حبسه الله**» أي وقفه «**حتى يخرج مما قال**» أي من عهدته والمعنى حتى ينقى من ذنبه ذلك بإرضاء خصمه أو بشفاعة أو بتعذيبه بقدر ذنبه.

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٨/ ٢٣١) وله شاهد من حديث ابن عباس عند أحمد في المسند (١/ ٢١٧، ٣٠٩، ٣١٧) وابن حبان في صحيحه برقم (٤٤١٧) والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٦) وأبو يعلى في مسنده برقم (٢٥٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٨٨٣) وأحمد في المسند (٣/ ٤٤١) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤٠٨٦) والمشكاة برقم (٤٩٨٦/ التحقيق الثاني).

٨٣ ـ باب تشييع الفاحشة في المؤمنين

وقولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: الآية ١٩] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٧٦٩):

﴿**إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة**﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة ﴿**في الذين آمنوا لهم عذاب أليم**﴾ أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره، ونقله؟!! وسواء كانت الفاحشة، صادرة، أو غير صادرة.

وكل هذا، من رحمة الله لعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له، ما يكره لنفسه. ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ فلذلك علمكم، وبيَّن لكم ما تجهلونه.

٨٤ ـ باب الرشوة

وقولِ الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٤١] [١].

عن ابنِ عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لَعَنَ الله الراشي والمرتشي**» صححه الترمذي(١).

ولأحمد عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «**لَعَنَ رسول الله ﷺ الرَّاشِي والمرتشي والرَّائِشَ**» يَعني الَّذي يَمشي بينهما(٢) [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٤٤):

... ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿**ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً**﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها ﴿**وإياي**﴾ أي: لا غيري ﴿**فاتقون**﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

[٢] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٠/٤٩٨٩):

«**لعن الله الراشي والمرتشي**» أي المعطي والآخذ «**والرائش**» وهو السفير «**الذي يمشي**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٥٨٠) والترمذي في سننه برقم (١٣٣٧) وابن ماجه في سننه برقم (٢٣١٣) وأحمد في المسند (٢/١٦٤، ١٩٠، ١٩٤، ٢١٢) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٣٠٥٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (٢٧٩٢) والحاكم في المستدرك (٤/١٠٣) والطبراني في معجمه (١/٨٨) وانظر المشكاة برقم (٣٧٥٣).

. . . .

بينهما» يستزيد هذا ويستنقص هذا، لأن الرشوة على تبديل أحكام الله إنما هي خصلة نشأت من اليهود المستحقين للعنة، فإذا سرت الخصلتان إلى أهل الإسلام استحقوا من اللعن ما استحقه اليهود.

٨٥ ـ باب هدايا الأمراء غلول

عن أبي حُميد قالَ: استعملَ رسولُ الله ﷺ رَجلاً علَى الصدقةِ، فلمَّا قَدِمَ، قَالَ: هذا لكُمْ وهذا أُهديَ إليَّ، فقالَ النبيُّ ﷺ: **«مَا بَالُ الرجلِ نستعملُهُ عَلى العِمَالَةِ ممَّا ولأنَّا الله فيقولُ: هذا لكُمْ وهَذا أهدي إليَّ! فهلاً جلسَ في بَيْتِ أبيهِ أو بيتِ أمهِ فينظر هل يُهدى إليهِ شيءٌ أم لا؟ والَّذي نفسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ لا يَأْخُذ أحدٌ منكم شيئاً بغير حقِّهِ، إلاَّ لقِيَ الله وهو يحملُه يومَ القيامةِ، إنْ كَانَ بعيراً لهُ رغاءُ، وإن كَانَ بقرةً لهَا خُوارٌ، أو شَاةٌ تيعرُ ـ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيهِ حتَّى رأَينَا عُفرةَ إبطيهِ ثمَّ قَال: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغت»** قالَها ثَلاثاً[(١)] [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

وفي هذا الحديث بيان أن هدايا العمال حرام وغلول، لأنه خان في ولايته وأمانته، ولهذا ذكر في الحديث في عقوبته وحمله ما أهدي إليه يوم القيامة، كما ذكر مثله في الغال. وقد بين ﷺ في نفس الحديث السبب في تحريم الهدية عليه، وأنها بسبب الولاية بخلاف الهدية لغير العامل، فإنها مستحبة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢٥٩٧ و٦٦٣٦ و٦٩٧٩ و٧١٧٤ و٧١٩٧) ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٤٦٣) برقم (١٨٣٢).

٨٦ ـ باب الهدية على الشفاعة

عن أبي أمامةَ رضي الله عنه مَرفُوعاً: «**مَنْ شَفَعَ لأخيه شَفاعةً فأَهْدى لهُ هديةً عليهَا فقبلهَا فَقَدْ أتَى بَاباً مِنْ أبوابِ الرِّبَا**» رواه أبو داود[(1)] [١].

ورواهُ إبراهيمُ الحربيُّ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قالَ: السُّحتُ أنْ يطلبَ الرَّجُلُ الحاجةَ فتقضى لهُ فيهدى إليهِ فيقبلها.

ولهُ عن مسروقٍ عنهُ: من رَدَّ عَنْ مسلم مظلَمَةً فأَعطاهُ عليهَا قليلاً أو كثيراً فَهُوَ سُحتٌ، قُلنَا يَا أبا عبدِ الرَّحمٰن مَا كُنَّا نَرَى السّحْتَ إلاَّ الرشوةَ في الحُكْم قالَ: ذَلكَ كُفرٌ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٤].

---

[١] قال العظيم آبادي رحمه الله في عون المعبود (٩/ ٢٢٨):

«**فأهدى**» أي أخوه والمراد من الأخوة أخوة الإسلام «**له**» أي لمن شفع «**عليها**» أي على الشفاعة «**فقبلها**» أي الهدية «**فقد أتى باباً عظيماً...**» إلخ، قال في فتح الودود: وذلك لأن الشفاعة الحسنة مندوب إليها، وقد تكون واجبة، فأخذ الهدية عليها يضيع أجرها كما أن الربا يضيع الحلال والله أعلم. انتهى.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٥٤١) وأحمد في المسند (٥/ ٢٦١) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٣٠٢٥).

٨٧ ـ باب الغلول

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ﴾ الآية [آل عِمرَان: الآية ١٦١] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٧٤):

الغلول هو: الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كل ما يتولاه الإنسان، وهو محرم إجماعاً، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغلول ـ كما علمت ـ من أعظم الذنوب وشر العيوب.

وقد صان الله تعالى أنبياءه، عن كل ما يدنسهم، ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً، وأطهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكمته **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**.

فبمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم، من كل أمر يقدح فيهم. ولا يحتاج إلى دليل، على فساد ما قيل فيهم، من أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم، تستلزم دفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة، يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: **﴿وما كان لنبي أن يغل﴾**، أي: يمتنع ذلك، ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.

ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال: **﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾**، أي: يأت به حامله على ظهره، حيواناً كان، أو متاعاً، أو غير ذلك، يعذب به يوم القيامة.

﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾، الغال وغيره، كل يوفى أجره ووزره، على مقدار كسبه. **﴿وهم لا يظلمون﴾**، أي: لا يزاد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم.

عنْ أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قالَ: لم فتحَ الله خيبرَ انطلقْنَا إلى الوادي ومَعَ رسولِ الله ﷺ عبدٌ لهُ يُقالُ لهُ مدعمٌ، فلمَّا نزلنَا الوادي رُمِيَ بسهم فمَاتَ فقلنَا: هَنيئاً لَهُ بالشهادَةِ يَا رسولَ الله: فقال: **«كلاَّ والذي نفسي بيدِهِ إنَّ الشَّمْلَةَ التي أخَذَهَا يَومَ خيبرَ لتلتهبُ عليهِ نَاراً، أخَذَهَا مِنَ المغانِمِ لَمْ تُصبهَا المقاسِمُ»** فَفَزِعَ النَّاس، فجَاءَ رَجُلٌ بشراكٍ أو شراكين، فقالَ: يَا رسولَ الله أصبتُ يومَ خيبر فقال: **«شراكٌ أو شراكان مِنْ نَار»** أخرجاه[1] [١].

وتأمل حسن الاحتراز في هذه الآية الكريمة، لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان اقتصاره على الغال، يوهم ـ بالمفهوم ـ أن غيره من أنواع العاملين، قد لا يوفون ـ أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

الشرك بكسر الشين المعجمة وهو السير المعروف الذي يكون في النعل على ظهر القدم. قال القاضي عياض رحمه الله: قوله ﷺ: **«إن الشملة لتلتهب عليه ناراً»** وقوله ﷺ: **«شراك أو شراكان من نار»** تنبيه على المعاقبة عليهما وقد تكون المعاقبة بهما أنفسهما فيعذب بهما وهما من نار، وقد يكون ذلك على أنهما سبب لعذاب النار، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٢٣٤ و٦٧٠٧) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ١٠٨) رقم (١١٥).

٨٨ ـ باب طاعة الأمراء

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ الآية [النّساء: الآية ٥٩] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره (ص ٢١٤):

. . . ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة على الناس، من الأمراء، والحكام، والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس، أمر دينهم ودنياهم، إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله، ورغبة فيما عنده. ولكن بشرط، أن لا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك، فلا طاعة لمخلوق، في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل، عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول. فإن الرسول، لا يأمر إلا بطاعة الله، ومَنْ يطعه، فقد أطاع الله. وأما أولوا الأمر، فشرط الأمر بطاعتهم، أن لا يكون معصية.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه؛ من أُصول الدين وفروعه، إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله وسُنّة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى، يقاس عليه ما أشبهه. لأن كتاب الله وسُنّة رسوله، عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلاّ بهما، فالرد إليهما، شرط في الإيمان، فلهذا قال: ﴿**إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾. فدل ذلك على أن مَنْ لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها.

﴿**ذلك**﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿**خير وأحسن تأويلا**﴾ فإن حكم الله

. . . .

ورسوله، أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس، في أمر دينهم، ودنياهم، وعاقبتهم.

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ٣٧٦ وما بعدها):

قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب وجوب طاعة ولاة الأمور في غير معصية وتحريم طاعتهم في معصية الله. واستدل لذلك بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾**.

ولاة الأمور، ذكر أهل العلم أنهم قسمان: العلماء والأمراء.

أما العلماء فهم ولاة أمور المسلمين في بيان الشرع، وتعليم الشرع، وهداية الخلق إلى الحق، فهم ولاة أمور في هذا الجانب، وأما الأمراء فهم ولاة الأمور في ضبط الأمن وحماية الشريعة وإلزام الناس بها، فصار لهؤلاء وجهة ولهؤلاء وجهة.

والأصل: العلماء؛ لأن العلماء هم الذين يبينون الشرع ويقولون للأمراء هذا شرع الله فاعملوا به، ويلزم الأمراء بذلك، لكن الأمراء لا طريق لهم إلى علم الشرع إلا عن طريق العلماء، وهم إذا علموا الشرع نفذوه على الخلق.

والعلماء يؤثرون على من في قلبه إيمان ودين، لأن الذي في قلبه إيمان ودين ينصاع للعلماء ويأخذ بتوجيهاتهم وأمرهم.

والأمراء ينصاع لهم من خاف من سطوتهم وكان عنده ضعف إيمان، فيخاف من الأمير أكثر مما يخاف من العالم، وبعضهم يخاف أكثر مما يخاف من الله والعياذ بالله.

فلذلك كان لا بد للأمة الإسلامية من علماء وأمراء، وكان واجباً على الأمة الإسلامية أن يطيعوا العلماء وأن يطيعوا الأمراء، ولكن طاعة هؤلاء وهؤلاء تابعة لطاعة الله لقوله تعالى: **﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾** ولم يقل أطيعوا أولي الأمر منكم، لأن طاعة ولاة الأمر تابعة لا مستقلة، أما طاعة الله ورسوله فهي مستقلة، ولهذا أعاد فيها الفعل فقال: أطيعوا وأطيعوا، أما طاعة ولاة الأمور فهي تابعة ليست مستقلة.

. . . .

وعلى هذا فإذا أمر ولاة الأمور بمعصية الله فإنه لا سمع لهم ولا طاعة، لأن ولاة الأمور فوقهم ولي الأمر الأعلى جل وعلا وهو الله، فإذا أمروا بمخالفته فلا سمع لهم ولا طاعة.

أما الأحاديث الذي ذكرها المؤلف رحمه الله؛ فمنها حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وفيما كره، ما لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**» متفق عليه.

قوله: «**على المرء**»: هذه كلمة تدل على الوجوب، وأنه يجب على المرء المسلم بمقتضى إسلامه أن يسمع ويطيع لولاة الأمور فيما أحب وفيما كره، حتى لو أمر بشيء يكرهه فإنه يجب عليه أن يقوم به ولو كان يرى خلافه، ولو كان يكره أن ينفذه. فالواجب عليه أن ينفذ، إلا إذا أمر بمعصية الله، فإذا أمر بمعصية الله فطاعة الله تعالى فوق كل طاعة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي هذا دليل على بطلان مسلك من يقول: لا نطيع ولاة الأمور إلا فيما أمرنا الله به، يعني إذا أمرونا أن نصلي صلينا، إذا أمرونا أن نزكي زكينا. أما إذا أمرونا بأمر ليس فيه أمر شرعي فإنه لا يجب علينا طاعتهم، لأننا لو وجبت علينا طاعتهم لكانوا مشرعين، فإن هذه نظرة باطلة مخالفة للقرآن والسنة، لأننا لو قلنا: إننا لا نطيعهم إلا فيما أمرنا الله به لم يكن بينهم وبين غيرهم فرق، كل إنسان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر فإنه يطاع.

ثم نقول: بل نحن قد أمرنا بطاعتهم فيما لم يأمرنا الله عز وجل؛ إذا لم يكن ذلك منهياً عنه أو محرماً، فإننا نطيعهم حتى في التنظيم إذا نظموا شيئاً من الأعمال، يجب علينا أن نطيعهم؛ وذلك أن بطاعتهم يكون امتثال أمر الله عز وجل، وامتثال أمر رسول الله ﷺ، وحفظ الأمن، والبعد عن التمرد على ولاة الأمور، وعن التفرق، فإذا قلنا لا نطيعهم إلا في شيء أمرنا به، فهذا معناه أنه لا طاعة لهم.

هناك بعض الأنظمة: مثلاً تنظم الحكومة أنظمة لا تخالف فيها الشرع، لكن لم يأت به الشرع بعينه، فيأتي بعض الناس ويقول: لا نطيع في هذا، فيقال: بل يجب

. . . .

عليك أن تطيع، فإن عصيت فإنك آثم مستحق لعقوبة الله، ومستحق لعقوبة ولاة الأمور.

وعلى ولاة الأمور أن يُعَزِّروا مثل هؤلاء الذين يعصون أوامرهم التي يلزمهم أن يقوموا بها، لأنهم إذا عصوا أوامر ولاة الأمور ـ وقد أمر الله بطاعتهم فيها ـ فهذا معصية لله. وكل إنسان يعصي الله فإنه مستحق للتعزير، يعني: التأديب بما يراه ولي الأمر.

من ذلك مثلاً: أنظمة المرور؛ فأنظمة المرور مما نظمه ولي الأمر، وليس فيها معصية، فإذا خالفها الإنسان فهو عاصٍ وآثم، مثلاً السير على اليسار، والسير على اليمين، والسير في الاتجاه الفلاني، وفي السير يجب أن يقف إذا كانت الإشارة حمراء وما أشبه ذلك، كل هذا يجب أن ينفذ وجوباً، فمثلاً إذا كانت الإشارة حمراء وجب عليك الوقوف. لا تقل: ما أمرنا الله لذلك، وولاة الأمور نظموا لك هذا التنظيم وقالوا التزم به، فإذا تجاوزت فإنك عاص آثم، لأنك قلت لربك لا سمع و لا طاعة والعياذ بالله.

فإن الله يقول: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾** كذلك أيضاً في التقاطع، معروف أن الذي في الخط العام هو الذي له الحق أن يتجاوز، إذا كنت أنت في خط فرعي ووجدت إنساناً مقبلاً من الخط العام فلا تتجاوز لأن النظام يقتضي منع ذلك.

وهكذا أيضاً الأنظمة في الإمارة، والأنظمة في القضاء، وكل الأنظمة التي لا تخالف الشرع، فإنه يجب علينا أن نطيع ولاة الأمور فيها، وإلا أصبحت المسألة فوضى، وكل إنسان له رأي، وكل إنسان يحكم بما يريد، وأصبح ولاة الأمور لا قيمة لهم، بل هم أمراء بلا أمر، وقضاة بلا قضاء.

فالواجب على الإنسان أن يمتثل لأمر ولاة الأمور إلا فيما كان فيه معصية الله. فلو قالوا لنا مثلاً: لا تخرجوا إلى المساجد لتصلوا الجمعة، لا تصلوا الجمعة والجماعة، قلنا لهم: لا سمع ولا طاعة، ولو قالوا: اظلموا الناس في شيء، قلنا: لا سمع ولا طاعة. كل شيء أمر به أو نهى عنه الله فإنه لا سمع ولا طاعة لهم في ضده أبداً.

. . . .

كذلك لو قالوا مثلاً: احلقوا اللحى ـ مثل بعض الدول يأمرون رعاياهم بحلق اللحى ولا سيما جنودهم الذين عندهم ـ لو قالوا: احلقوا اللحى قلنا: لا سمع لكم ولا طاعة. وهم آثمون في قولهم لجنودهم: احلقوا اللحى، وهم بذلك آثمون مضادون لله ورسوله، منابذون لله ورسوله.

كذلك لو قالوا مثلاً: أنزلوا ثيابكم إلى أسفل من الكعبين، فإننا نقول: لا، لا سمع ولا طاعة، لأن هذا مما حرمه الله وتوعد عليه، فإذا أمرتمونا بمعصية فإننا لا نسمع لكم ولا نطيع؛ لأن لنا ولكم ربّاً حكمه فوق حكمنا وحكمكم.

فإذاً أوامر ولاة الأمور تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يأمروا بما أمر الله به، فهنا تجب طاعتهم لوجهين.

الوجه الأول: أنه مما أمر الله به.

والوجه الثاني: مما أمروا به، كغيرهم من الناس؛ إذا أمرك شخص بالمعروف وهو واجب، فالواجب عليك أن تقوم به.

الثاني: أن يأمروا بمعصية الله، فهنا لا سمع لهم ولا طاعة مهما كان، وأنت إذا نالك عذاب منهم بسبب هذا فسيُعاقبون عليه هم يوم القيامة.

أولاً: لحق الله، لأن أمرهم بمعصية الله منابذة لله عز وجل.

ثانياً: لحقك أنت، لأنهم اعتدوا عليك، وأنت وهم كلكم عبيد الله، ولا يحل لكم أن تعصوا الله.

الثالث: إذا أمروا بشيء ليس فيه أمر ولا نهي، فيجب عليك أن تطيعهم وجوباً، فإن لم تفعل فأنت آثم، ولهم الحق أن يعزروك وأن يؤدبوك بما يرون من تعزير وتأديب، لأنك خالفت أمر الله في طاعتهم، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وما كره، ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»**.

ثم أشد من ذلك من لا يعتقد للإمام بيعة؛ من يقول: أنا ما بايعت الإمام، ولا له بيعة عليّ، لأن مضمون هذا الكلام أنه لا سمع له ولا طاعة ولا ولاية، وهذا أيضاً من

. . . .

الأمر المنكر العظيم؛ فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن من مات من غير بيعة وليس له إمام فإنه يموت ميتة جاهلية، يعني ليست ميتة إسلامية، بل ميتة أهل الجهل والعياذ بالله، وسيجد جزاءه عند الله عز وجل.

فالواجب أن يعتقد الإنسان أنه له إماماً، وأن له أميراً يدين له بالطاعة في غير معصية الله، فإذا قال مثلاً: أنا لن أبايع، قلنا البيعة لا تكون في رعاع الناس وعوام الناس، إنما تكون لأهل الحل والعقد.

ولهذا نقول هل بايع كل الناس أبا بكر وعمر وعثمان وعلي؟ هل بايعهم حتى الأطفال والعجوز والمرأة في خدرها؟ أبداً ما بايعوهم. ولم يأت أهل مكة يبايعون أبا بكر، ولا أهل الطائف ولا غيرهم، إنما بايعه أهل الحل والعقد، فإذا تمت البيعة من أهل الحل والعقد صار المُبَايع إماماً، وصار ولي أمر تجب طاعته في غير معصية الله، فلو مات إنسان وهو يعتقد أنه ليس له ولي أمر، وأنه ليست له بيعة، فإنه يموت ميتة جاهلية. نسأل الله العافية.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»**[1] اسمعوا وأطيعوا: يعني الزموا السمع والطاعة لولاة الأمور، حتى لو استعمل عليكم عبد حبشي.

والنبي ﷺ هنا يخاطب العرب يقول: ولو استعمل عليكم عبد حبشي غير عربي؛ عبد أصلاً وفرعاً وخلقة، كأن رأسه زبيبة، لأن شعر الحبشة غير شعر العرب؛ فالحبشة يكون في رؤوسهم حلق كأنها الزبيب، وهذا من باب المبالغة في كون هذا العامل عبداً حبشياً أصلاً وفرعاً، وهذا يشمل قوله: **«وإن استُعمل»** فيشمل الأمير الذي هو أمير السلطان، وكذلك السلطان.

فلو فُرض أن السلطان غلب الناس واستولى وسيطر وليس من العرب، بل كان عبداً حبشيّاً فعلينا أن نسمع ونطيع، لأن العلة واحدة وهي أنه إن لم نسمع ونطع حصلت الفوضى، وزال النظام، وزال الأمن، وحل الخوف. فالمهم أن علينا أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا إلا إذا أمروا بمعصية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٧١٤٢) كتاب الأحكام.

. . . .

وكذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك**»[1] السمع والطاعة لولاة الأمور في المنشط والمكره؛ في المنشط: يعني الأمر الذي إذا أمروك به نشطت عليه لأنه يوافق هواك، وفي المكره: في الأمر الذي إذا أمروك به لم تكن نشيطاً فيه لأنك تكرهه، اسمع في هذا وهذا، وفي العسر واليسر، حتى إن كنت غنياً فأمروك فاسمع ولا تستكبر لأنك غني، وإذا كنت فقيراً فاسمع ولا تقل لا أسمع وهم أغنياء وأنا فقير.

اسمع وأطع في أي حال من الأحوال، حتى في الأثرة؛ يعني إذا استأثر ولاة الأمور على الناس، فعليهم أيضاً السمع والطاعة في غير معصية الله عز وجل.

فلو أن ولاة الأمور سكنوا القصور الفخمة، وركبوا السيارات المريحة، ولبسوا أحسن الثياب، وتزوجوا وصار عندهم الإماء، وتنعموا في الدنيا أكبر تنعم، والناس سواهم في بؤس وشقاء وجوع، فعليهم السمع والطاعة، لأننا لنا شيء والولاة لهم شيء آخر.

فنحن علينا السمع والطاعة، وعلى الولاة النصح لنا، وأن يسيروا بنا على هدي رسول الله ﷺ، لكن لا نقول إذا استأثروا علينا وكانت لهم القصور الفخمة والسيارات المريحة والثياب الجميلة وما أشبه ذلك، لا نقول: والله ما يمكن أن نسمع وهم في قصورهم وسياراتهم ونحن في بؤس وحاجة، والواحد منا لا يجد السكن وما أشبه ذلك. هذا حرام علينا، يجب أن نسمع ونطيع حتى في حال الأثرة.

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام للأنصار رضي الله عنهم: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[2] يقول للأنصار ذلك منذ ألف وأربعمائة سنة، من ذاك الوقت والولاة يستأثرون على الرعية، ومع هذا يقول: «**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**»، فليس استئثار ولاة الأمور بما يستأثرون به مانعاً من السمع

(١) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (١٨٣٦) كتاب الإمارة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٤٣٣٠) كتاب المغازي. ومسلم في صحيحه رقم (٢٠٦١) كتاب الزكاة.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: الآية ١٦] [١].

عَن معاذِ بن جبلٍ رضي الله عنه مرفوعاً: **«الغَزوُ غزوانِ فأَمَّا مَن ابتغى بهِ وجهَ الله وَأَطاعَ الإمام وأنفقَ الكريمةَ، ويَاسَرَ الشَّرِيكَ، واجتَنَبَ الفَسَادَ فَإِنَّ نومَهُ ونبهَته أجرٌ كُلُّهُ. وأَمَّا مَنْ غَزَا فَخراً وريَاءً وسمعةً وعصى الإمام وأفسدَ في الأرض فإنَّهُ لَن يرجعَ بالكَفَافِ»** رواه أبو داود والنسائي[1] [٢].

والطاعة لهم، الواجب السمع والطاعة في كل ما أمروا به ما لم يأمروا بمعصية، نسأل الله أن يصلحنا جميعاً رعية ورعاة وأن يهبنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

* * *

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٢٠٨):

يأمر تعالى بتقواه التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض الأمور، وعجز عن بعضها، فإنه يأتي بما قدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: **«إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**. ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع ما لا يدخل تحت الحصر.

[٢] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (٨/ ٢٦٥٦):

قال القاضي ناصر الدين: الغزو غزوان: غزو على ما ينبغي وغزو على ما لا ينبغي، فاقتصر الكلام واستغنى بذكر الغزاة وعد أصنافها وشرح حالهم وبيان أحكامهم عن ذكر القسمين، وشرح كل واحد منها مفصلات قوله: **«وأطاع الإمام»** أي من غزوه فأتى به على نحو ما أمره **«وأنفق الكريمة»** أي المختارة من ماله، وقيل: نفسه و**«ياسر الشريك»** أي ساهل الرفيق واستعمل اليسر معه نفعاً بالمعونة وكفاية للمؤنة **«واجتنب الفساد»** أي لم يتجاوز المشروع في القتل والنهب والتخريب **«فإن نومه ونبهته»** أي يقظته **«أجر كله»** أي ذو أجر وثواب.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٢٥١٥) والنسائي في سننه برقم (٣١٨٨) والإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٣٤) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٢١٩٥).

وعن ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «عَلَى المرءِ المسلِم السَّمْعُ

والمعنى أن من كان هذا شأنه كان جميع حالاته من الحركة والسكون و الاستراحة والانتباه مقتضية للأجر، جالبة للثواب، وأن من حاله على خلاف ذلك لم يرجع بالكفاف، أي الثواب مأخوذ من كفاف الشيء وهو خياره، أو من الرزق أي لم يرجع بخير أو ثواب يغنيه يوم القيامة.

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ٣٩٦ وما بعدها):

. . . المهم أن الواجب أن نسمع ونطيع لولاة الأمر إلا في حال واحدة فإننا لا نطيعهم؛ إذا أمرونا بمعصية الخالق فإننا لا نطيعهم. لو قالوا: احلقوا لحاكم قلنا: لا سمع ولا طاعة، لو قالوا: نزلوا ثيابكم أو سراويلكم إلى أسفل الكعبين، قلنا: لا سمع ولا طاعة، لأن هذه معصية. لو قالوا: لا تقيموا الصلاة جماعة، قلنا: لا سمع ولا طاعة. لو قالوا: لا تصوموا رمضان، قلنا: لا سمع و لا طاعة، كل معصية لا نطيعهم فيها مهما كان. أما إذا أمروا بشيء ليس معصية وجب علينا أن نطيع.

ثانياً: لا يجوز لنا أن ننابذ ولاة الأمور.

ثالثاً: لا يجوز لنا أن نتكلم بين العامة فيما يثير الضغائن على ولاة الأمور، وفيما يسبب البغضاء لهم، لأن في ذلك مفسدة كبيرة. قد يتراءى للإنسان أن هذه غيرة، وأن هذا صدع بالحق؛ والصدع بالحق لا يكون من وراء حجاب، الصدع بالحق أن يكون ولي الأمر أمامك وتقول له: أنت فعلت كذا وهذا لا يجوز، تركت هذا، وهذا واجب.

أما أن تتحدث من وراء حجاب في سب ولي الأمر والتشهير به، فهذا ليس من الصدع بالحق، بل هذا من الفساد، هذا مما يوجب إيغار الصدور وكراهة ولاة الأمور والتمرد عليهم، وربما يفضي إلى ما هو أكبر إلى الخروج عليهم ونبذ بيعتهم والعياذ بالله.

وكل هذه أمور يجب أن نتفطن لها، ويجب أن نسير فيها على ما سار عليه أهل السنة والجماعة، ومن أراد أن يعرف ذلك فليقرأ كتب السنة المؤلفة في هذا.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في آخر كتاب العقيدة الواسطية ـ وهي

والطاعةُ فيمَا أَحَبَّ وكَرِهَ إلاَّ أَنْ يُؤْمَرَ بمعصيةٍ فَإذَا أُمِرَ بمعصيةٍ فَلا سَمْعَ وَلاَ طاعَةَ» أخرجاه(1) [1].

عقيدة مختصرة ولكنها كبيرة جدّاً في المعنى ـ ذكر أن من هدي أهل السنة والجماعة وطريقتهم، أنهم يدينون بالولاء لولاة الأمور، وأنهم يرون إقامة الحج والجهاد والأعياد والجمع مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً، حتى لو كان ولي الأمر فاجراً فإن أهل السنة والجماعة يرون إقامة الجهاد معه وإقامة الحج وإقامة الجمع وإقامة الأعياد.

إلا إذا رأينا كفراً بواحاً صريحاً عندنا فيه من الله برهان والعياذ بالله، فهنا يجب علينا ما استطعنا أن نزيل هذا الحاكم، وأن نستبدله بخير منه، أما مجرد المعاصي والاستئثار وغيرها؛ فإن أهل السنة والجماعة يرون أن ولي الأمر له الولاية حتى مع هذه الأمور كلها، وأن له السمع والطاعة، وأنه لا تجوز منابذته ولا إيغار الصدور عليه، ولا غير ذلك مما يكون فساده أعظم وأعظم.

والشر ليس يُدفع بالشر؛ ادفع الشر بالخير، أما أن تدفع الشر بالشر، فإن كان مثله فلا فائدة، وإن كان أشر منه كما هو الغالب في مثل هذه الأمور، فإن ذلك مفسدة كبيرة. نسأل الله أن يهدي ولاة أمورنا وأن يهدي رعيتنا إلى ما يلزمها، وأن يوفق الجميع للقيام بما يجب عليه.

[1] تقدم شرحه في كلام شيخنا ابن عثيمين رحمه الله قبل قليل.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٩٥٥ و٧١٤٤) ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة (٣/ ١٤٦٩) رقم (١٨٣٩).

٨٩ ـ باب الخروج عن الجماعة

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الآية [النّساء: الآية ١١٥] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره (ص ٢٤٠):

أي: ومن يخالف الرسول ﷺ، ويعانده فيما جاء به **﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾** بالدلائل القرآنية، والبراهين النبوية. **﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾** وسبيلهم هو: طريقهم في عقائدهم وأعمالهم.

﴿نوله ما تولى﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله، فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه. فجزاؤه من الله عدلاً، أن يبقيه في ضلاله حائراً، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله. كما قال تعالى: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾**، وقال تعالى: **﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾**.

ويدل مفهومها، على أن مَنْ لم يشاقق الرسول، ويتبع سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله، واتباع رسوله، ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه، من الذنوب أو الهم بها، ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه، بحفظه، ويعصمه من السوء كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: **﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾** أي: بسبب إخلاصه، صرفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص، كما يدل عليه، عموم التعليل.

وقوله: **﴿ونصله جهنم﴾** أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً. **﴿وساءت مصيراً﴾** أي: مرجعاً له ومالاً. وهذا الوعيد، المترتب على الشقاق، ومخالفة المؤمنين، مراتب، لا يحصيها إلا الله، بحسب حالة الذنب، صغراً وكبراً. فمنه ما يخلد في النار، ويوجب

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ الآية [آل عِمرَان: الآية ١٠٣] [١].

عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «**مَن كَرِهَ مِن أميرِهِ شيئاً فليصبِرْ فإنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السلطانِ قِيدَ شِبرٍ مَاتَ ميتَةً جَاهليةً**» أخرجاه[1] [٢].

جميع الخذلان. ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية، كالتفصيل لهذا المطلق.

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٥٩):

هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة، بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته، وترك معصيته، مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم، ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه، وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكَّرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار، فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة.

﴿**كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتميم هذه الحالة.

[٢] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٣/ ٧):

قوله «**فإنه من خرج من السلطان**» أي من طاعة السلطان. . . قال ابن أبي جمرة: المراد بالمفارقة السعي في حل عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير ولو بأدنى شيء فكنى عنها بمقدار الشر لأن الأخذ من ذلك يؤول إلى سفك الدماء بغير حق. قوله: «**مات ميتة جاهليه**» قال الكرماني: الاستثناء هنا بمعنى الاستفهام الإنكاري أي ما فارق الجماعة أحد إلا جرى له كذا. . . والمراد بالميتة الجاهلية حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال وليس له إمام مطاع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافراً بل يموت عاصياً، ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره ومعناه أنه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٧٠٥٣ و٧٠٥٤ و٧١٤٣) ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٤٦٦) برقم (١٨٣٥).

. . . .

يموت مثل موت الجاهلي وإن لم يكن هو جاهلياً، أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير وظاهره غير مراد. . . قال ابن بطال: في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن للدماء وتسكين الدهماء، وحجتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تحب مجاهدته لمن قدر عليها.

وقال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله ﷺ: **«إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»** هكذا هو لمعظم الرواة، وفي معظم النسخ بواحاً بالواو، وفي بعضها براحاً والباء مفتوحة فيهما، ومعناهما كفراً ظاهراً، والمراد بالكفر هنا المعاصي. ومعنى: **«عندكم من الله فيه برهان»** أي تعلمونه من دين الله تعالى.

ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم. وأما الخروج عليهم وقتالهم، فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين.

وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته. وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق، وأما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل، وحكي عن المعتزلة أيضاً فغلط من قائله مخالف للإجماع. قال العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه، ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه.

قال القاضي عياض: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها، قال: وكذلك عند جمهورهم البدعة، قال: وقال بعض البصريين تنعقد له وتستدام له لأنه متأول. قال القاضي: فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع، أو بدعة خرج عن حكم الولاية

. . . .

وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر. ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه، فإن تحققوا العجز لم يجب القيام، وليهاجر المسلم عن أرضه إلى غيرها، ويفر بدينه، وقال: ولا تنعقد لفاسق ابتداء. فلو طرأ على الخليفة فسق قال بعضهم: يجب خلعه إلا أن تترتب عليه فتنة وحرب.

وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ولا يخلع، ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه للأحاديث الواردة في ذلك. قال القاضي: وقد ادعى أبو بكر بن مجاهد في هذا الإجماع، وقد رد عليه بعضهم هذا بقيام الحسن وابن الزبير وأهل المدينة على بني أمية، وبقيام جماعة عظيمة من التابعين والصدر الأول على الحجاج مع ابن الأشعث. وتأول هذا القائل قوله: **«أن لا ننازع الأمر أهله»** في أئمة العدل. وحجة الجمهور أن قيامهم على الحجاج ليس بمجرد الفسق، بل لما غير من الشرع وظاهر من الكفر. قال القاضي: وقيل إن هذا الخلاف كان أولاً، ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم والله أعلم.

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ٣٩٦):

«من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر» ليصبر وليتحمل ولا ينابذه ولا يتكلم **«فإنه من خرج عن الجماعة مات ميتة جاهلية»** يعني ليس ميتة الإسلام والعياذ بالله. وهذا يحتمل معنيين:

الأول: يحتمل أنه يموت ميتة جاهلية بمعنى أنه يزاغ قلبه والعياذ بالله، حتى تكون هذه المعصية سبباً لردته.

الثاني: ويحتمل المعنى الآخر أنه يموت ميتة جاهلية، لأن أهل الجاهلية ليس لهم إمام ولا أمير، بل لهم رؤساء وزعماء لكن ليس لهم ولاية كولاية الإسلام، فيكون هذا مات ميتة جاهلية.

ولمسلم عن حذيفةَ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «سَتكونُ بَعدي أَئمَّةٌ لاَ يهتدون بهديي، وَلاَ يستَنُّونَ بسنتي، وسَيقُومُ فيهِمْ رِجَالٌ قُلوبُهُمْ قُلوبُ الشَّياطِين في جُثْمَانِ أنسٍ» قَالَ حُذَيفةُ: قُلتُ يَا رَسولَ الله كَيفَ أَصنعُ إنْ أدركْتُ ذَلِك؟ قالَ: «تَسمَعُ وتُطِيعُ الأميرَ، وإنْ ضَرَبَ ظَهرَكَ، وأَخَذَ مالكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»(١) [١].

وَلهُ عَنْ عَرْفَجَةَ الأَشْجَعَي ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «مَنْ أَتاكُمْ وأمركُمْ جميع عَلى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يريدُ أَنْ يشقَّ عَصاكُمْ، ويفرقَ جَماعَتَكُمْ فاقتلوهُ»(٢) [٢].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قال العلماء: معناه تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره، مما ليس بمعصية، فإن كانت لمعصية، فلا سمع ولا طاعة، كما صرح به في الأحاديث الباقية. فتحمل هذه الأحاديث المطلقة لوجوب طاعة ولاة الأمور على موافقة تلك الأحاديث المصرحة، بأنه لا سمع ولا طاعة في المعصية. والأثرة بفتح الهمزة والثاء، ويقال: بضم الهمزة وإسكان الثاء وبكسر الهمزة وإسكان الثاء، ثلاث لغات حكاهن في المشارق وغيره، وهي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم أي اسمعوا وأطيعوا، وإن اختص الأمراء بالدنيا، ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم. وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال، وسببها اجتماع كلمة المسلمين، فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم.

[٢] قال الإمام القرطبي رحمه الله في المفهم (٦/ ٦٣):

قوله: «**فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع**» أي مجتمعة على إمام واحد «**فاضربوه بالسيف كائناً من كان**» أي لا يحترم لشرفه ونسبه، ولا يُهاب لعشيرته ونسبه، بل يبادر بقتله قبل شرارة شرّه، واستحكام فساده، وعدوى غُرّه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٤٧٦) رقم: (١٨٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٤٨٠) رقم: (١٨٥٢).

٩٠ ـ باب ما جاء في الفتن

وقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٢٥] [١].

وقولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾ الآية [الأنعام: الآية ٦٥] [٢].

عن ابن عمرو قالَ: كُنَّا مَعَ رسولِ الله ﷺ في سَفَرٍ فنزلنا منزلاً فَمِنَّا مَنْ يُصلحُ

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٤١٣):

﴿**واتقوا فتنة لا تُصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته، تعم الفاعل وغيره، وتتقى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وجمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن ﴿**واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ لمن تعرض لمساخطه وجانب رضاه.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٣٢٣):

أي: هو تعالى؛ قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة. ﴿**من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم**﴾ أي: يخلطكم ﴿**شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ أي: في الفتنة، وقتل بعضكم بعضاً.

فهو قادر على ذلك كله، فاحذروا من الإقامة على معاصيه، فيصيبكم من العذاب، ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك. ولكن من رحمته، أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم، والحصب، ونحوه، ومن تحت أرجلهم؛ بالخسف.

ولكن عاقب من عاقب منهم، بأن أذاق بعضهم بأس بعض، وسلط بعضهم على بعض هذه العقوبات المذكورة، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون، ويشعر بها العاملون.

خِبَاءهُ، وَمِنَّا مَن ينتضِلُ وَمِنَّا مَنْ هُوَ في جَشرَةٍ إذ نادى مُنَادي رَسُولِ الله ﷺ: الصَّلاةَ جَامعَةً. فاجتَمَعْنَا إلى رَسولِ الله ﷺ فقالَ: «**إنَّهُ لَمْ يكنْ نبي قبلي إلاَّ كانَ حقّاً عليهِ أنْ يدلَّ أمتهُ علَى خيرِ مَا يعلمهُ لهم وينذرُهمْ شرَّ ما يعلمهُ لهم، وإنَّ أمتكمْ هذهِ جُعل عافيتُهَا في أوَّلها وسيصيبُ آخرَها بَلاءٌ وأمورٌ تنكرونَهَا، وتجيءُ الفتنةُ فيرقق بعضَها بعضاً وتجيءُ الفتنةُ فيقولُ المؤمِنُ هذه مهلكتي، ثمَّ تنكشفُ وَتجيءُ الفتنة فيقولُ المؤمنُ هذهِ هذهِ، فمنْ أحبَّ أنْ يزحزحَ عن النَّار ويدخَلَ الجنَّةَ فلتأتِهِ منيتهُ وهوَ يُؤمِنُ بالله واليومِ الآخر، وليأتِ للنَّاسِ الَّذي يُحبُّ أنْ يُؤتَى إليهِ، وَمَن بايعَ إمامه فأعطاه صفقة يدهِ وثمرة وقلبهِ فليطعهُ إنِ استطاعَ فإنْ جَاء آخَرُ يُنازعهُ فاضربوا عُنق الآخر**» رواه مسلم[(١)] [١].

﴿**انظر كيف نصرف الآيات**﴾ أي: ننوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق. ﴿**لعلهم يفقهون**﴾ أي: يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية، والمطالب الإلٰهية.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله ﷺ: «**وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضاً**» هذه اللفظة رويت على أوجه: أحدها وهو الذي نقله القاضي عن جمهور الرواة: يرقق بضم الياء وفتح الراء وبقافين أن يصير بعضها رقيقاً أي خفيفاً لعظم ما بعده، فالثاني يجعل الأول رقيقاً، وقيل: معناه: يشبه بعضها بعضاً: وقيل: يدور بعضها في بعض ويذهب ويجيء، وقيل: معناه، يسوف بعضها إلى بعض بتحسينها وتسويلها.

والوجه الثاني: فيرفق بفتح الياء وإسكان الراء وبعدها فاء مضمومة. والثالث: فيدفق بالدال المهملة الساكنة وبالفاء المكسورة أي يدفع ويصب والدفق الصب.

قوله ﷺ: «**وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**» هذا من جوامع كلمة ﷺ وبديع حكمه، وهذه قاعدة مهمة، فينبغي الاعتناء بها، وأن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٤٧٢) رقم: (١٨٤٤).

ولهُ عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «**بَادروا بالأعْمَالِ فتناً كقَطع اللَّيْلِ المظلم يُصبحُ الرَّجُلُ مُؤمِناً ويمسي كافراً ويمسي مُؤْمَناً ويصبِحُ كَافراً يبيعُ دينهُ بعرضٍ مِنَ الدُّنيا**»(١) [١].

ولهُ عن مَعقلِ بْنِ يَسَارٍ ـ رضي الله عنه ـ مَرفُوعاً: «**العبَادَةُ في الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إليَّ**»(٢) [٢].

قوله ﷺ «**فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر**» معناه: ادفعوا الثاني، فإنه خارج على الإمام، فإن لم يندفع إلا بحرب وقتال فقاتلوه، فإن دعت المقاتلة إلى قتله جاز قتله، ولا ضمان فيه، لأنه ظالم متعد في قتاله.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة، قبل تعذرها والاشتغال عنها لما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر ووصف ﷺ نوعا من شدائد تلك الفتن، وهو أنه يمسي مؤمناً ثم يصبح كافراً أو عكسه، شك الراوي، وهذا لعظم الفتن، ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب، والله أعلم.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٥/ ٢٥٧٥):

«**بادرو بالأعمال فتناً**» جمع فتنة وهي الاختبار، ويطلق على المصائب وعلى ما به الاختبار «**كقطع الليل المظلم**» جمع قطعة وهي طائفة منه، يعني وقوع فتن مظلمة سوداء. والمراد: الحث على المسارعة بالعمل الصالح قبل تعذره، أو تعسره بالشغل عما يحدث من الفتن المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل، ثم وصف نوعاً من شدائد الفتن بقوله: «**يصبح الرجل**» فيها «**مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً**» وهذا لعظم الفتن يتقلب الإنسان في اليوم هذه الانقلابات «**يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا قليل**» أي بقليل من حطامها.

[٢] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ١١٠) رقم: (١١٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفتن (٤/ ٢٢٦٨) رقم: (٢٩٤٨).

ولهُمَا عن حذيفةَ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ عمرَ ـ رضي الله عنه ـ قالَ: أيكم يحفظُ قول النبيِّ ﷺ في الفتن؟ فَقُلتُ: أَنَا، فقال: هَاتِ فإنَّكَ عليهِ لجريءٌ، فقلتُ: سمعتُه يقولُ: **«فتنةُ الرَّجُلِ في أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرهَا الصلاةُ والصيامُ والصدقَةُ والأمْرُ بالمعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ المنكَرِ»** فقالَ: ليسَ هذا أريد إنَّما أريدُ التي تموج كموجِ البحْرِ فَقلتُ: مَالَكَ ولَها يَا أميرَ المؤمِنينَ؟ إنَّ بَينَكَ وبَينَهَا بَاباً مُغلقاً، فقال: يفتحُ البابُ، أم يُكسرُ؟ قلتُ: بل يكسرُ، قالَ: ذلكَ أجدرُ أَنْ لا يغلقَ، فقلت لحذيفةَ: أَكَانَ عمرُ يعلم مَن البابُ؟ قال: نعم كَما يعلمُ أَنَّ دونَ غد الليلة إني حدثتُه حديثاً ليس بالأَغاليطِ، فهبنا أَنْ نسألهُ مِنِ البابُ، فقلنَا لمسروقٍ أسألهُ فسألهُ فقالَ: عمر(١) [١].

قوله ﷺ: **«العبادة في الهرج كهجرة إليّ»** المراد بالهرج هنا: الفتنة، واختلاط أمور الناس، وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها، ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا أفراد.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٨/ ٤٠٧٨):

قوله ﷺ: **«العبادة في الهرج»** أي وقت الفتن واختلاط الأمور **«كهجرة إليّ»** في كثرة الثواب أو يقال: المهاجر في الأول كان قليلاً لعدم تمكن أكثر الناس من ذلك فهكذا العابد في الهرج قليل.

قال ابن العربي: وجه تمثيله بالهجرة أن الزمن الأول كان الناس يفرون فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا وقعت الفتن تعين على المرء أن يفر بدينه من الفتنة إلى العبادة ويهجر أولئك القوم وتلك الحالة، وهو أحد أقسام الهجرة.

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٢/ ١٠):

قوله: «في الفتنة» فيه دليل على جواز إطلاق اللفظ العام وإرادة الخاص، إذ تبين أنه لم يسأل إلا عن فتنة مخصوصة. ومعنى الفتنة في الأصل الاختبار والامتحان، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام: (٥٢٥ و١٤٣٥ و١٨٩٥ و٣٥٨٦ و٧٠٩٦) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ١٢٨) وكتاب الفتن (٤/ ٢٢١٨).

. . . .

استعملت في كل أمر يكشفه الامتحان عن سوء. وتطلق على الكفر، والغلو في التأويل البعيد، وعلى الفضيحة والبلية والعذاب والقتال والتحول من الحسن إلى القبيح والميل إلى الشيء والإعجاب به، وتكون في الخير والشر كقوله تعالى: ﴿**ونبلوكم بالشر و الخير فتنة**﴾.

وقال رحمه الله في الفتح (٦/ ٧٥١):

قوله: «**تكفرها الصلاة والصدقة**» قال بعض الشراح: يحتمل أن يكون كل واحدة من الصلاة وما معها مكفرة للمذكورات كلها لا لكل واحدة منها، وأن يكون من باب اللف والنشر بأن الصلاة مثلاً مكفرة للفتنة في الأهل والصوم في الولد.. إلخ والمراد بالفتنة ما يعرض للإنسان مع من ذكر من البشر أو الالتهاء بهم أو أن يأتي لأجلهم بما لا يحل له أو يخل بما يجب عليه.

وقال الزين بن المنير: الفتنة بالأهل تقع بالميل إليهن أو عليهن في القسمة والإيثار حتى في أولادهن، ومن جهة التفريط في الحقوق الواجبة لهن، وبالمال يقع الاشتغال به عن العبادة أو بحبسه عن إخراج حق الله، والفتنة بالأولاد تقع بالميل الطبيعي إلى الولد وإيثاره على كل أحد، والفتنة بالجار تقع بالحسد والمفاخرة والمزاحمة في الحقوق وإهمال التعاهد، ثم قال: وأسباب الفتنة بمن ذكر غير منحصرة فيما ذكرت من الأمثلة، وأما تخصيص الصلاة وما ذكر معها بالتكفير دون سائر العبادات ففيه إشارة إلى تعظيم قدرها لا نفي أن غيرها من الحسنات ليس فيها صلاحية التكفير، ثم إن التكفير المذكور يحتمل أن يقع بنفس فعل الحسنات المذكورة، ويحتمل أن يقع بالموازنة، والأول أظهر، والله أعلم.

قوله: «ولكن التي تموج» أي الفتنة «كموج البحر» أي تضطرب اضطرابات البحر عند هيجانه، وكنى بذلك عن شدة المخاصمة وكثرة المنازعة وما ينشأ عن ذلك من المشاتمة والمقاتلة.

قوله: «إن بينك وبينها باباً مغلقاً» أي لا يخرج منها شيء في حياتك... وكأنه مثل الفتن بدار ومثل حياة عمر بباب لها مغلق، ومثل موته بفتح ذلك الباب، فما دامت حياة عمر موجودة فهي الباب المغلق لا يخرج مما هو داخل تلك الدار شيء، فإذا مات فقد انفتح ذلك الباب فخرج ما في تلك الدار.

ولمسلمٍ عَن أبي بكرَة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**إنهَا ستكونُ فتنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي إليها ألا إذا نزلت أو وقعت فمن كانَ لهُ إبلٌ فليلحقْ بأبلهِ ومنْ كَانَ لهُ غنمٌ فليلحق بغنمهِ ومَن كانتْ لهُ أرضٌ فليلحق بأرضه**» فقالَ رجُلٌ: يا رسول الله أرأيتَ مَنْ لَمْ يكن له إبلٌ وَلا غنمٌ ولاَ أرضٌ قال: «**يَعمدُ إلى سيفِه فيدقّ عَلى حدِّهِ بحجَر ثُمَّ إن استطاعَ النجاء**» ثُمَّ قال: «**اللهم هل بلغت**» قالها ثلاثاً فقال رجل: يَا رسولَ الله أرأيتَ إن أكرهتُ حتَّى ينطلقَ بي إلى أحَدِ الصفين فيضربنِي رَجُلٌ بسيفِهِ أو يَجِيءُ سَهمٌ فيقتلني قال: «**يبوء بإثمكَ وإثمِهِ فيكون من أصحَاب النَّارِ**»(١) [١].

قوله: «كما أن دون غد الليلة» أي أن ليلة غد أقرب إلى اليوم من غد قوله: «إني حدثته. . .» هو بقية كلام حذيفة، والأغاليط جمع أغلوطة وهو ما يغالط به، أي حدثته حديثاً صدقاً محققاً من حديث النبي ﷺ لا عن اجتهاد ولا رأي.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

وأنما قوله ﷺ: «**القاعد فيها خير من القائم**» إلى آخره، فمعناه: بيان عظيم خطرها، والحث على تجنبها، والهرب منها، ومن التشبث في شيء، وأن سرها وفتنتها يكون على حسب التعلق بها.

قوله ﷺ: «**يعمد إلى سيف ليدق على حده بحجر**».

قيل: المراد كسر السيف حقيقة على ظاهر الحديث ليسد على نفسه هذا القتال، وقيل: هو مجاز والمراد ترك القتال، والأول أصح. وهذا الحديث وما في معناه مما يحتج به من لا يرى القتال في الفتنة بكل حال، وقد اختلف العلماء في قتال الفتنة، فقالت طائفة لا يقاتل في فتن المسلمين، وإن دخلوا عليه بيته وطلبوا قتله فلا يجوز له المدافعة عن نفسه، لأن الطالب متأول.

وقالت طائفة يجب نصر المحق في الفتن والقيام معه بمقاتلة الباغين كما قال

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفتن (٤/ ٢٢١٢) رقم (٢٨٨٧).

ولأبي داود عن سعد رضي الله عنه: قلت يا رسول الله: أرأيتَ إنْ دخلَ عليَّ بيتي وبسطَ إليَّ يدهُ ليقتلني فقالَ: «**كُن كخير إبني آدمَ**» وتَلا هذه الآية: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [المَائدة: الآية ٢٨] (1) الآية [٢].

تعالى: ﴿**فقاتلوا التي تبغي**﴾ وهذا الصحيح، وتتأول هذه الأحاديث على من لم يظهر له المحق أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما، ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد واستطال أهل البغي والمبطلون، والله أعلم.

[٢] قال العظيم آبادي رحمه الله في عون المعبود (١١/ ١٩٧):

«أرأيت» أي أخبرني «ابن آدم» المطلق ينصرف إلى الكامل وفيه إشارة لطيفة إلى أن هابيل المقتول المظلوم هو ابن آدم لا قابيل القاتل الظالم كما قال تعالى في حق ولد نوح عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: ٤٦] كذا في المرقاة، وفي بعض النسخ كابني آدم، وفي بعض النسخ كخبر ابني آدم أي فلتستسلم حتى تكون قتيلاً كهابيل ولا تكن قاتلاً كقابيل «وتلا» أي قرأ.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٢٥٧) والترمذي في سننه برقم (٢١٩٤) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٣٥٨١).

٩١ ـ باب تعظيم

قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق

عن سالم بن عبد الله بن عُمرَ ـ رضي الله عنه ـ قالَ: يَا أهلَ العراقِ مَا أسألكمْ عن الصغيرةِ وما أركبكُمْ للكبيرةِ: سمعتُ أبي يقولُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: إنَّ الفتنة تجيء مِن ههنَا وأومأ بيدهِ نَحوَ المشرقِ مِنْ حيثُ يطلعُ قرنُ الشَّيطانِ وأنتُم يضربُ بعضُكمْ رِقابَ بعضٍ وإنَّمَا قتلَ مُوسى الذي قَتَلَ مِنْ آل فِرعَون خطأ فقالَ الله تعالى لهُ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: الآية ٤٠] رواهُ مسلم[(١)] [١].

---

[٢] قال الإمام القرطبي رحمه الله في المفهم (٧/ ٢٠٩):

وقد نص الخبر على أن الفتنة تأتي من قبل المشرق.

وقد وجد كل ذلك كما أخبر عنه ﷺ فكان ذلك من أدلة صحة نبوته ورسالته، ظهرت بعد وفاته.

وقول سالم لأهل العراق: إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ... إلخ، تعظيم لما أقدموا عليه من قتل أخيار المسلمين وصدورهم، وتقبيح عليهم، وتهديد لهم، ووجه ذلك: أن الله تعالى عظّم على موسى ـ عليه السلام ـ وهو صفيّه وكليمه عليه السلام قتل كافر لم يُنه عن قتله، مع أن قتله كان خطأ، وكرر عليه، وامتن عليه بمغفرته مراراً، فكيف يكون حال من سفك دماء خيار المسلمين من صدور هذه الأمة من الصحابة والتابعين؟! كل ذلك بمحض الهوى، والتجرؤ على استباحة الدماء

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفتن (٤/ ٢٢٢٩) رقم (٢٩٠٥).

ولهمَا عن المقدادِ رضي الله عنه: قُلتُ يَا رسولَ الله: أرأيتَ إن لقيني رَجلٌ مِنَ الكفَّار فاقتتلنَا فضرَبَ إحدى يديَّ بالسيفِ فقطعها ثُمَّ لاذَ مني بشجَرةٍ فقالَ: أسلمتُ لله أأقتلُهُ؟ قال: «**لاَ تقتلْهُ فَإِنَّكَ إنْ قتلتهُ فإِنَّهُ بمنزلتكَ قَبْلَ أن تَقتلَهُ وأنتَ بمنزلتِهِ قَبلَ أن يَقولَ كلمتُه التي قَالها**»[1] [١].

فهم الذين قتلوا الحسين، وسبوا نساءه وأولاده من غير توقف ولا سؤال، وسألوا عن دم البراغيث ليرتفع عنهم الاشكال، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقوله: ﴿**فنجيناك من الغم**﴾ أي من غمّ البحر، وقيل: غم الخوف والقود، و﴿**فتناك فتونا**﴾ فتنة بعد فتنة، أي محنة بعد محنة، وفتوناً بمصدر فتن كخرج خروجاً، وقعد قعوداً.

[١] قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٢٣٣):

قوله: «**فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله**» قال الكرماني: القتل ليس سبباً لكون كل منهما بمنزلة الآخر لكن عند النحاة مؤول بالإخبار أي هو سبب لإخباري لك بذلك، وعند البيانيين المراد لازمه كقوله يباح دمك إن عصيت.

قوله: «**وأنت بمنزلته قبل أن يقول**»، قال الخطابي: معناه أن الكافر مباح الدم بحكم الدين قبل أن يسلم، فإذا أسلم صار مصان الدم كالمسلم، فإن قتله المسلم بعد ذلك صار دمه مباحاً بحق القصاص كالكافر بحق الدين وليس المراد إلحاقه في الكفر كما تقوله الخوارج من تكفير المسلم بالكبيرة، وحاصله اتحاد المنزلتين مع اختلاف المأخذ، فالأول إنه مثلك في صون الدم، والثاني إنك مثله في الهدر. ونقل ابن التين عن الداودي قال: معناه أنك صرت قاتلاً كما كان هو قاتلاً، قال: وهذا من المعاريض، لأنه أراد الإغلاظ بظاهر اللفظ دون باطنه، وإنما أراد أن كلا منهما قاتل، ولم يرد أنه صار كافراً بقتله إياه ونقل ابن بطال عن المهلب معناه فقال: أي إنك بقصدك لقتله عامداً آثم كما كان هو بقصده لقتلك آثماً، فأنتما في حالة واحدة من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٠١٩ و٦٨٦٥) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٩٥) رقم (٩٥).

ولَهُمَا عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قالَ بَعثنَا رسولُ الله ﷺ إلى الحُرقَاتِ مِنْ جُهَينَةَ فصبحنَا القومَ علَى مِيَاهِهم، فلحِقتُ أنَا ورَجُلٌ مِن الأنصار رجلاً منهم فلمَّا غشيناهُ قالَ: لاَ إلهَ إلاَّ الله، فكفَّ عنه الأنصاري فطعنتهُ بِرمحِي فقتلتهُ، فلمَّا قدمنَا بلغ ذلكَ رَسولَ الله ﷺ فقالَ لي: «**يَا أسامةُ أقتلتهُ بعد مَا قَالَ لاَ إلهَ إلاَّ الله؟**» قُلتُ يا رسول الله: إنَّما قالهَا متعوذاً، فقال: «**أقتلتُه بعد ما قَال لاَ إلهَ إلاَّ الله**» فما زَال يكررها حتَّى تَمنيتُ أنِّي لَم أكنْ أسلمتُ قَبل ذلِكَ اليوم.

وفي رواية أنه قال: «**أفلا شققت عَنْ قلبِهِ**»(١).

ولمسلم أنهُ قال: يا رسول الله إستغْفر لي فقال: «**كيفَ تصنعُ بلاَ إلهَ إلاَّ الله إذا جَاءتْ يَومَ القيامَةِ**»(٢) [١].

العصيان.... وقال القاضي عياض: معناه أنه مثله في مخالفة الحق وارتكاب الإثم وإن اختلف النوع في كون أحدهما كفراً والآخر معصية.

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٢/ ٢٣٩):

قوله «بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة» بضم المهملة وبالراء ثم قاف وهم بطن من جهينة... قوله «فصبحنا القوم» أي هجموا علينا صباحاً قبل أن يشعروا بهم، يقال صبحته أتيته صباحاً بغتة، ومنه قوله: ﴿**ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر**﴾.. قوله ﴿**غشيناه**﴾: أي لحقنا به حتى تغطى بنا.. ووقع في حديث جندب عند مسلم «فلما رفع عليه السيف قال لا إله إلا الله فقتله» ويجمع بأنه رفع عليه السيف أولاً فلما لم يتمكن من ضربه بالسيف طعنه بالرمح. قوله: «فلما قدمنا» أي المدينة.. قوله: «أقتلته بعدما قال» قال ابن التين: في هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة حتى لا يقدم أحد على قتل من تلفظ بالتوحيد، وقال القرطبي: في تكريره ذلك والإعراض عن قبول العذر زجر شديد عن الإقدام على مثل ذلك.. قوله: «قال قلت يا رسول الله والله إنما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٤٢٦٩، ٦٨٧٢) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٩٦) رقم (٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٩٧ ـ ٩٨) رقم (٩٧).

وللبخاري عن ابن عُمرَ ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «**لاَ يَزالُ العبدُ في فسحةٍ من دينهِ مَا لَمْ يُصبْ دماً حَراماً**»(١) [١].

كان متعوذاً» كذا أعاد الاعتذار وأعيد عليه الإنكار، وفي رواية الأعمش: «**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا**» قال النووي الفاعل قوله: «**أقالها**» هو القلب، ومعناه أنك إنما كلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان وأما القلب فليس لك طريق إلى ما فيه، فأنكر عليه ترك العمل بما ظهر من اللسان فقال: «**أفلا شققت عن قلبه**» لتنظر هل كانت فيه حين قالها واعتقدها أو لا، والمعنى أنك إذا كنت لست قادراً على ذلك فاكتف منه باللسان. . قوله: «حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم» أي أن إسلامي كان ذلك اليوم لأن الإسلام يجب ما قبله، فتمنى أن يكون ذلك الوقت أول دخوله في الإسلام ليأمن من جريرة تلك الفعلة، ولم يرد أنه تمنى أن لا يكون مسلماً قبل ذلك.

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٢/ ١٨٧):

قوله: «**في فسحة**» أي سعة. قوله: «**من دينه**» بكسر المهملة من الدين، ومفهومه أن يضيق عليه دينه ففيه إشعار بالوعيد على قتل المؤمن متعمداً بما يتوعد به الكافر، وقال ابن العربي: الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، قوله: «**ما لم يصب دماً حراماً**» في رواية إسماعيل القاضي من هذا الوجه: «**ما لم يتند بدم حرام**» ومعناه: الإصابة وهو كناية عن شدة المخالطة ولو قلت. ا.هـ. فمعنى لم يتند أي لم يصب منه شيئاً أو لم ينله منه شيء كأنه نال نداوة الدم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٨٦٢).

٩٢ ـ باب تكثير السواد في الفتن

عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**مَنْ حَمَلَ علينا السلاحَ فليسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشنَا فليسَ مِنَّا**» رواه مسلم[(١)] [١].

وفي البخاري عن محمد بن عبد الرحمٰن أبي الأسودَ قالَ: قُطع على أهل

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (١٣/ ٢٩ فتح):

معنى الحديث أي حمل السلاح على المسلمين لقتالهم به بغير حق لما في ذلك من تخويفهم وإبطال الرعب عليهم وكأنه كني بالحمل عن المقاتلة أو القتل للملازمة الغالبة. قال ابن دقيق العبد: يحتمل أن يراد بالحمل ما يضاد الوضع ويكون كناية عن القتال به ويحتمل أن يراد بالحمل حمله لإرادة القتال به لقرينة قوله: «**علينا**» ويحتمل أن يكون المراد حمله للضرب به وعلى كل حال ففيه دلالة على تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه.

قوله: «**فليس منه**» أي ليس على طريقتنا، أو ليس متبعاً لطريقتنا لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ويقاتل دونه لا أن يرعبه بحمل السلاح عليه لإرادة قتاله أو قتله ونظيره: «**من غشنا فليس منا**» وهذا في حق من لا يستحل ذلك، فأما من يستحله فإنه يكفر باستحلال المحرم بشرطه لا مجرد حمل السلاح.

والأولى عند كثير من السلف إطلاق لفظ الخبر من غير تعرض لتأويله ليكون أبلغ من الزجر وكان سفيان بن عيينة ينكر على من يصرفه عن ظاهره ويرى أن الإمساك عن تأويله أولى لما ذكرناه، والوعيد المذكور لا يتناول من قاتل البغاة من أهل الحق فيحمل على البغاة وعلى من بدأ بالقتال ظالماً.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٩٩) رقم: (١٠١).

المدينةِ بعثٌ فاكتتبتُ فِيه، فلقيتُ عكرمَةَ فأخبرتُهُ فنهاني أَشَدَّ النهيِ وقال: أخبرني عبد الله بنُ عَبَّاسٍ: أنَّ أناساً مِنَ المسلمينَ كانوا معَ المشركين يكثرونَ سوادَ المشركينَ على رَسولِ الله ﷺ يَأتي السهمُ يُرْمى بِهِ فيصيبُ أحدهمْ فيقتلهُ أو يضربُ فيقتل فأنزلَ الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾الآية [النِّساء: الآية ٩٧] (١) [١].

وقال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

تقدم في أول الكتاب قاعدة مذهب أهل السنة والفقهاء وهي أن من حمل السلاح على المسلمين بغير حق ولا تأويل ولم يستحله فهو عاص ولا يكفر بذلك فإن استحله كفر، فأما تأويل الحديث فقيل: هو محمول على المستحل بغير تأويل فيكفر ويخرج من الملة، وقيل معناه ليس على سيرتنا الكاملة وهدينا، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يكره قول من يفسره بليس على هدينا ويقول: بئس هذا القول، يعني بل يمسك عن تأويله ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر، والله أعلم.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١١/ ٥٩٢٤):

«**من غش**» أي خان والغش ستر حال الشيء «**فليس منا**» أي من متابعينا، قال الطيبي: لم يرد به نفيه عن الإسلام بل نفي خلقه عن أخلاق المسلمين، أي ليس هو على سنتنا أو طريقتنا في مناصحة الإخوان كما يقول الإنسان لصاحبه: أنا منك، يريد الموافقة والمتابعة، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: الآية ٣٦].

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٣/ ٤٧):

قوله: «**فيأتي السهم فيرمي به**» قيل هو من القلب والتقدير فيرمي بالسهم فيأتي. قلت: ويحتمل أن تكون الفاء الثانية زائدة.. وقوله: «**أو يضربه**» معطوف على «**فيأتي**» لا على «**فيصيب**» أي يقتل إما بالسهم وإما بالسيف وفيه تخطئة من يقيم بين أهل المعصية باختياره لا لقصد صحيح من إنكار عليهم مثلاً أو رجاء انقاذ مسلم من هلاكه وأن القادر على التحول عنهم لا يعذر كما وقع للذين كانوا أسلموا ومنعهم المشركون

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٥٩٦ و٧٠٨٥).

وقوله ﷺ: «وَلكنْ مَنْ رَضيَ وَتَابَعَ»[1] [١].

من أهلهم من الهجرة ثم كانوا يخرجون مع المشركين لا لقصد قتال المسلمين بل لإيهام كثرتهم في عيون المسلمين فحصلت لهم المؤاخذة بذلك، فرأى عكرمة أن من خرج من جيش يقاتلون المسلمين يأثم وإن لم يقاتل ولا نوى ذلك.

وقال رحمه الله في الفتح (٨/ ٣٣٤):

وفي هذه القصة دلالة على براءة عكرمة مما ينسب إليه من رأي الخوارج لأنه بالغ في النهي عن قتال المسلمين وتكثير سواد من يقاتلهم. وغرض عكرمة أن الله ذم من كثر سواد المشركين مع أنهم كانوا لا يريدون بقلوبهم موافقتهم، قال: فكذلك أنت لا تكثر سواد هذا الجيش وإن كنت لا تريد موافقتهم لأنهم لا يقاتلون في سبيل الله، وقوله: ﴿**فيم كنتم**﴾ سؤال توبيخ وتقريع، واستنبط سعيد بن جبير من هذه الآية وجوب الهجرة من الأرض التي يعمل فيها بالمعصية.

[١] قال النووي رحمه الله: قوله ﷺ: «**ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون ممن عرف فقد بريء ومن أنكر سلم ولن من رضي وتابع**» قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «**لا ما صلوا**» هذا الحديث فيه معجزة ظاهرة بالإخبار بالمستقبل، ووقع ذلك كما أخبر ﷺ. وأما قوله ﷺ: «**فمن عرف فقد بريء**» فأما رواية من روى: «**فمن كره فقد بريء**» فظاهرة، ومعناه: من كره ذلك المنكر فقد بريء من إثمه وعقوبته، وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده، ولا لسانه، فليكرهه بقلبه وليبرأ، وإما من روى: «**فمن عرف فقد بريء**»، فمعناه والله أعلم: فمن عرف المنكر ولم يشتبه عليه، فقد صارت له طريق إلى البراءة من إثمه وعقوبته بأن يغيره بيده أو بلسانه فإن عجز فليكرهه بقلبه.

وقوله ﷺ: «**ولكن من رضي وتابع**» معناه: ولكن الإثم والعقوبة على من رضي وتابع. وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت بل إنما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٤٨١) رقم: (١٨٥٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون فمن كره منكم فقد بريء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**» قالوا: يا رسول الله: ألا نقاتلهم؟ قال: «**لا، ما صلّوا**» أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه.

. . . .

يأثم بالرضى به، أو بأن لا تكرهه بقلبه أو بالمتابعة عليه. وأما قوله: «**أفلا نقاتلهم؟**» قال: «**لا ما صلوا**» ففيه معنى ما سبق، أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام.



٩٣ ـ باب ذكر العقوق

وقول الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: الآية ١٤] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٨٩٣):

﴿**ووصينا الإنسان**﴾ أي عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿**بوالديه**﴾ وقلنا له ﴿**اشكر لي**﴾ بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي. ﴿**ولوالديك**﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، و الفعل الجميل، و التواضع لهما، وإكرامهما، وإجلالهما، والقيام بمؤونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿**إليَّ المصير**﴾ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك، وكلفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الوبيل؟

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله في شرحه لرياض الصالحين (٥/ ٢٣٦):

العقوق مأخوذ من العق وهو القطع، ومنه سميت العقيقة التي تذبح عن المولود في اليوم السابع؛ لأنها تعق: يعني تقطع رقبتها عند الذبح.

والعقوق من كبائر الذنوب لثبوت الوعيد عليه من الكتاب والسنة وكذلك قطيعة الرحم.

قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: الآيتان ٢٢، ٢٣] يعني أنكم إذا

عن ابن عمرو ـ رضي الله عنهما أقبلَ رجلٌ إلى النبي ﷺ فقالَ: أبايعكَ على الهجرَةِ والجهادِ، أبتغي الأجرَ مِنَ الله فقالَ: «**هَلْ مِنْ والديكَ أحدٌ حيٌّ**» فقال: نعمْ

توليتم أفسدتم في الأرض، وقطعتم الرحم وحقت عليكم اللعنة.

﴿**وأعمى أبصارهم**﴾ المراد بالأبصار هنا البصيرة وليس بصر العين، والمراد أن الله تعالى يعمي بصيرة الإنسان والعياذ بالله، حتى يرى الباطل حقّاً والحق باطلاً.

وهذه عقوبة أخروية ودنيوية.

أما الأخروية: فقوله: ﴿**أولئك الذين لعنهم الله**﴾.

وأما الدنيوية: فقوله ﴿**فأصمهم**﴾، يعني أصم آذانهم عن سماع الحق والانتفاع به، ﴿**وأعمى أبصارهم**﴾، عن رؤية الحق والانتفاع به.

وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: الآية ٢٥]، ميثاق العهد: توكيده، فينقضون العهد، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من القرابات وغيرهم، ويفسدون في الأرض بكثرة المعاصي ﴿**أولئك لهم اللعنة**﴾ واللعنة تعني الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ﴿**ولهم سوء الدار**﴾ أي سوء العاقبة.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: الآية ٢٣ ـ ٢٤].

فأمر الله بالإحسان إلى الوالدين، وقال إن بلغا عندك الكبر أحدهما أو كلاهما؛ إما الأم أو الأب أو الأم والأب جميعاً فزجرت منهم؛ لأن الإنسان، إذا كبر قد يصل إلى الهرم وأرذل العمر فيُتعب، فقال حتى في هذه الحال ﴿**فلا تقل لهما أف**﴾ أي لا تقل إني متضجر منكما ﴿**ولا تنهرهما**﴾ أي عند القول، ﴿**وقل لهما قولاً كريماً**﴾ يعني طيباً حسناً يدخل السرور عليهما، ويزيل عنهم الكآبة والحزن، ﴿**واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**﴾ يعني ذل لهما مهما بلغت من علو المنزلة، كما تعلو الطيور، فاخفض لهما جناح الذل، وتذلل لهما رحمة بهما، ﴿**وقل رب ارحمهما كما ربياني**

بَل كلاهمَا قالَ: «**فتبتغي الأجرَ من الله تعالى**»، قال: نَعمْ، قالَ: «**فارجع إلى والديكَ فأحسنْ صحبتهما**» أخرجاه. واللفظ لمسلم(١) [١].

وعَنْ معاويةَ بن جاهمةَ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ جاهمةَ جاءَ إلى النَّبي ﷺ فقال: يَا رسول الله أردتُ أن أغزو وقدْ جئتُ أستشيرُكَ فقالَ: «**فهلْ لكَ مِنْ أُمٍّ**»؟ قلت: نعم قال: «**فالزمْهَا فإنَّ الجَنَّةَ تحتَ رِجليْهَا**» رواه أحمد والنسائي(٢) [٢].

وعَنْ أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رجلاً قالَ: يَا رسولَ الله مَنْ أحَقُّ النَّاسِ

صغيراً﴾ فارحمهما أنت، وادع الله أن يرحمهما.

[١] قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ١٧٣):

قوله «**ففيهما فجاهد**» وفي رواية مسلم: «**ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**»: أي خصصهما بجهاد النفس في رضاهما، ويستفاد منه جواز التعبير عن الشيء بضده إذا فهم المعنى، لأن صيغة الأمر في قوله: «**فجاهد**» ظاهرها إيصال الضرر الذي كان يحصل لغيرهما لهما، وليس ذلك مراداً قطعاً، وإنما المراد إيصال القدر المشترك من كلفة الجهاد وهو تعب البدن والمال، ويؤخذ منه أن كل شيء يتعب النفس يسمى جهاداً، وفيه أن بر الوالد قد يكون أفضل من الجهاد، وان المستشار يشير بالنصيحة المحضة، وأن المكلف يستفصل عن الأفضل في أعمال الطاعة ليعمل به لأنه سمع فضل الجهاد فبادر إليه، ثم لم يقنع حتى استأذن فيه فدل على ما هو أفضل منه في حقه، ولولا السؤال ما حصل له العلم بذلك.

[٢] قال الإمام الطيبي رحمه الله في المشكاة (١٠/ ٣١٧١):

قوله: «**عند رجلها**» كناية عن غاية الخضوع ونهاية التذلل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٤]. ولعله ﷺ عرف من حاله وحال أمه حيث ألزمه خدمتها ولزومها أن ذلك أولى به.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٠٠٤ و٥٩٧٢) ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٧٥) رقم: (٢٥٤٩).

(٢) أخرجه النسائي في سننه برقم: (٣١٠٤) وابن ماجه في سننه برقم: (٢٧٨١) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٠٢) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه رقم: (٢١٤١).

بحسْن صحبتي؟ قال: «**أُمك**». قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**أُمك**». قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «**أُمُّكَ**». قالَ: ثُمَّ مَن؟ قال: «**أبوك**» أخرجاه(1) [1].

وللبخاري عَنِ ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مَرفوعاً: «**الكَبَائِرُ الإشْرَاكُ بالله، وعقوقُ الوالدَيْنِ وقتلُ النَّفْس، واليمينُ الغموسُ**»(2) [2].

---

[1] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه على المشكاة (10/ 3154):

قوله: «**صحابتي**» قال الجوهري: صحب يصحبه صحبة بالضم وصحابه بالفتح.. وفيه الحث على بر الأقارب، وإن الأم أحقهم بذلك ثم بعدها الأب ثم الأقرب والأقرب، قالوا: وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها.

[2] قال الإمام السيوطي رحمه الله في التوشيح (9/ 3937):

«**الغموس**» بفتح المعجمة وضم الميم، آخره مهملة: فعول بمعنى فاعل، لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار. وانظر شرح الحديث في الباب رقم (1).

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (597) ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (4/ 1974) رقم: (2548).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان والنذور بالأرقام: (6675 و6870 و6920).

٩٤ ـ باب ذكر القطيعة

وقولِ الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ الآية [البَقَرَة: الآية ٢٧] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٣٨ ـ ٣٩):

... ثم ذكر حكمته وعدله في إضلاله من يضل فقال: ﴿**وما يضل به إلا الفاسقين**﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسل الله؛ الذين صار الفسق وصفهم، فلا يبغون به بدلاً، فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضى فضله وحكمته هداية من اتصف بالإيمان، وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان:

نوع مخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان، كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج من الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ الآية.

ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه**﴾، وهذا يعم العهد الذي بينهم وبين ربهم؛ والذي بينهم وبين الخلق؛ الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق.

﴿**ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل**﴾، وهذا يدخل في أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به، والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به، ومحبته، وتعزيره، والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب، والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بحقوقهم التي أمر الله أن نصلها.

ولـهمَا عنْ جبيرِ بن مُطعم ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**لاَ يدخُلُ الجنَّةَ قاطعُ رَحم**»[(1)] [١].

ولـهُما عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**إنَّ الله تعالى خَلقَ الخلق، حَتى إذا فَرغَ منهمْ، قامتِ الرَّحِمُ فقالت: هذا مقامُ العائِذِ بكَ مِنَ القطيعةِ، قالَ: نعمْ أمَا ترضينَ أنْ أَصِلَ من وصلَكِ، وأقطَعَ منْ قطعكِ. قالتْ: بَلى، قالَ: فذلك لَكِ**». ثُمّ قالَ رسولَ الله ﷺ: «**إقرأوا إنْ شئتُمْ**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا

فأما المؤمنون، فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق؛ وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون، فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم معتاضين عنها بالفسق والقطيعة، والعمل بالمعاصي، وهو: الإفساد في الأرض.

ف﴿**أولئك**﴾، أي: من هذه صفته ﴿**هم الخاسرون**﴾، في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح، لأن كل عمل صالح، شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون تفريطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿**إن الإنسان لفي خسر**﴾، فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير، الذي كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

هذا الحديث يتأول تأويلين: أحدهما: حمله على من يستحل القطيعة بلا سبب ولا شبهة مع علمه بتحريمها فهذا كافر يخلد في النار ولا يدخل الجنة أبداً، والثاني معناه: ولا يدخلها في أول الأمر مع السابقين بل يعاقب بتأخره بالقدر الذي يريده الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٩٨٤) ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٨١) رقم: (٢٥٥٦).

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ الآية [محمَّد: الآية ٢٢] »(١) [١].

---

[١] قال الإمام ابن حجر رحمه الله (١٠/ ٥١١ فتح):

قوله: «**إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ**» قال ابن أبي جمرة: يحتمل أن يكون المراد بالخلق جميع المخلوقات ويحتمل أن يكون المراد به المكلفين. وهذا القول يحتمل أن يكون بعد خلق السمٰوات والأرض وإبرازها في الوجود ويحتمل أن يكون بعد خلقها كتباً في اللوح المحفوظ ولم يبرز بعد اللوح والقلم، ويحتمل أن يكون بعد انتهاء خلق أرواح بني آدم عند قوله: ﴿**ألست بربكم**﴾ لما أخرجهم من صلب آدم عليه السلام مثل الذر. قوله: «**قامت الرحم فقالت**»: قال ابن أبي جمرة: يحتمل أن يكون بلسان الحال ويحتمل أن يكون بلسان المقال قولان مشهوران. والثاني أرجح. قوله: «**صل من وصلك واقطع من قطعك**».

قال ابن أبي جمرة: الوصل من الله كناية عن عظيم إحسانه. وإنما خاطب الناس بما يفهمونه، ولما كان أعظم ما يعطيه المحبوب كمحبة الوصال وهو القرب منه وإسعاده بما يريد ومساعدته على ما يرضيه وكانت حقيقة ذلك مستحيلة في حق الله تعالى عرف أن ذلك كناية عن عظيم إحسانه لعبده قال: وكذا القول من القطع هو كناية عن حرمان الإحسان.

وقال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قال القاضي عياض رحمه الله: الرحم التي توصل وتبر إنما هي معنى من المعاني ليست بجسم وإنما هي قرابة ونسب تجمعه رحم والده ويتصل بعضه ببعض فسمي بذلك الاتصال رحماً. والمعنى: لا يتأتى منه القيام ولا الكلام فيكون ذكر قيامها هنا وتعلقها ضرب مثل وحسن استعارة على عادة العرب من استعمال ذلك. والمراد تعظيم شأنها وفضيلة واصليها وعظيم إثم قاطعيها بعقوقهم. لهذا سمي العقوق: قطعاً. والعق: الشق، وكأنه قطع ذلك السبب المتصل به، هذا كلام القاضي. والعائذ المستعيذ وهو: المعتصم بالشيء الملتجىء إليه المستجير به.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام: (٤٨٣٠ و٥٩٨٧ و٧٥٠٢) ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٨٠) رقم: (٢٥٥٤).

. . . .

قال العلماء وحقيقة الصلة، العطف والرحمة. فصلة الله سبحانه وتعالى عبارة عن لطفه بهم ورحمته إياهم وعطفه وإحسانه ونعمه أوصلتهم بأهل ملكوته الأعلى وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته.

قال القاضي عياض: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة. قال: والأحاديث في الباب تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة. وصلتها بالكلام ولو بالسلام. ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة فمنها واجب ومنها مستحب لو وصل بعض الصلة، ولم يصل غايتها، لا يسمى قاطعاً ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى واصلاً.

٩٥ ـ باب أذى الجار [١]

وقولِ الله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النِّساء: الآية ٣٦] [٢].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (/ ٢٠٥):

الجار هو الملاصق لك في بيتك القريب من ذلك، وقد وردت بعض الآثار بما يدل على أن الجار أربعون داراً من كل جانب، ولا شك أن الملاصق للبيت جار، وأما ما وراء ذلك فإن صحت الأخبار بذلك عن النبي ﷺ فالحق ما جاءت به، وإلا فإنه يرجع في ذلك إلى العرف، فما عده الناس جواراً فهو جوار.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى آية سورة النساء: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النِّساء: الآية ٣٦] الجار ذي القربى: يعني الجار القريب، والجار الجنب: يعني الجار البعيد الأجنبي منك.

قال أهل العلم: والجيران ثلاثة:

١ ـ جار قريب مسلم فله حق الجوار والقربة والإسلام.

٢ ـ وجار مسلم غير قريب فله حق الجوار والإسلام.

٣ ـ وجار كافر فله حق الجوار، وإن كان قريباً فله حق القرابة أيضاً.

فهؤلاء الجيران لهم حقوق؛ حقوق واجبة وحقوق يجب تركها.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢٠٦):

﴿**والجار ذي القربى**﴾ أي: الجار القريب، الذي له حقان، حق الجوار، وحق القرابة، فله على جاره حق، وإحسان، راجع إلى العرف. وكذلك ﴿**الجار الجنب**﴾ أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب باباً، كان آكد حقاً. فينبغي للجار، أن

عن أبي شُريح رضي الله عنه مرفوعاً: «**مَنْ كانَ يُؤمنُ بالله واليومِ الآخر فليكرم ضيفهُ، ومَن كَانَ يُؤمِنُ بالله واليومِ الآخرِ فليحسِنْ إلى جَارِه، ومَنْ كَانَ يؤمِنُ بالله واليومِ الآخرِ فليقلْ خيراً أو لِيصمُتْ**» أخرجاهُ(١) [١].

يتعاهد جاره بالهدية والصدقة، والدعوة، واللطافة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته، بقول أو فعل.

﴿**والصاحب بالجنب**﴾ قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل الصاحب مطلقاً، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر، ويشمل الزوجة. فعلى الصاحب لصاحبه، حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له؛ والوفاء معه، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له، ما يحب لنفسه، ويكره له، ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة، تأكد الحق وزاد.

[١] قال الحافظ رحمه الله في الفتح (١٠/ ٥٤٧):

«**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر**» المراد بقوله يؤمن الإيمان الكامل، وخصه بالله واليوم الآخر إشارة إلى المبدأ والمعاد أي من آمن بالله الذي خلقه وآمن بأنه سيجازيه بعمله فليفعل الخصال المذكورات. قوله: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» وهذا من جوامع الكلم لأن القول كله إما خير وإما شرّ وإما آيل إلى أحدهما، فدخل في الخير كل مطلوب من الأقوال فرضها وندبها فأذن فيه على اختلاف أنواعه، ودخل فيه ما يؤول إليه وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إلى الشر فأمر عند إرادة الخوض فيه بالصمت. . . . واشتمل حديث الباب على أمور ثلاثة تجمع مكارم الأخلاق الفعلية والقولية، أما الأولان فمن الفعلية، وأولهما أن يرجع إلى الأمر بالتخلي عن الرذيلة والثاني يرجع إلى الأمر بالتحلي بالفضيلة، وحاصله من كان حامل الإيمان فهو متصف بالشفقة على خلق الله قولاً بالخير وسكوتاً عن الشر وفعلاً لما ينفع أو تركاً لما يضرّ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام: (٦٠١٨ و٦١٣٥ و٦٤٧٦) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٦٨) رقم: (٤٨).

ولمسلِم عن أَبي هريرةَ مرفوعاً: «والله لاَ يُؤمن، والله لاَ يُؤمِنُ، والله لاَ يُؤمِنُ» - قيلَ مَن يَا رسولَ الله؟ قَالَ: «الَّذي لاَ يَأْمَنُ جارهُ بوائقَهُ»[1]. البوائِقُ:

وقال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قال القاضي عياض رحمه الله: معني الحديث أن من التزم شرائع الإسلام لزمه إكرام جاره وضيفه وبرهما، وكل ذلك تعريف بحق الجار وحث على حفظه، وقد أوصى الله تعالى بالإحسان إليه في كتابه العزيز وقال ﷺ: **«ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»** والضيافة من آداب الإسلام وخلق النبيين والصالحين.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١١/ ٥٩٨٣، ٥٩٨٤):

«من كان يؤمن بالله» أي إيماناً كاملاً منجياً من عذابه المتوقف على امتثال الأوامر الآتية كمال الإيمان لا حقيقة، **«واليوم الآخر»** وهو من آخر أيام الحياة الدنيا إلى آخر ما يقع يوم القيامة **«فليحسن إلى جاره»** أي من كان يؤمن بجوار الله في الآخرة والرجوع إلى السكنى في جواره بدار كرامته فليكرم جاره في الدنيا بكف الأذى وتحمل ما صدر عنه منه والبشر في وجهه وغير ذلك كما لا يخفى رعايته على الموفقين، والجار من بينك وبينه أربعون داراً من كل جانب ثم الأمر بالإكرام يختلف باختلاف الأشخاص والأقوال فقد يكون فرض عين، وقد يكون مندوباً ويجمع الجميع أن ذلك من مكارم الأخلاق **«ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر»** أي يوم القيامة وصفه به لتأخره عن أيام الدنيا ولأنه أخر إليه الحساب والإيمان به تصديق ما فيه من الأحوال والأهوال **«فليكرم ضيفه»** الغني والفقير بطلاقة الوجه والاتحاف و الزيارة وقد عظم شأن الجار والضيف حيث قرر حقهما بالإيمان بالله واليوم الآخر.

«ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً» أي كلاماً يثاب عليه، قال الشافعي: لكن بعد أن يتفكر فيما يريد التكلم به فإذا ظهر له أنه خير لا يترتب عليه مفسدة ولا يجر إليها أتى به **«أو ليسكت»** قال القرطبي: معناه أن المصدق بالثواب والعقاب المترتبين على الكلام في الدار الآخرة لا يخلو إما أن يتكلم بما يحصل له ثواباً

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٠١٦) (١٠/ ٤٤٣) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٦٨) رقم: (٤٦) بلفظ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه».

الغَوائِلُ والشُّرُورُ [١].

وللترمذِي وحَسَّنهُ عن ابنِ عمر مرفوعاً: «**خَيرُ الأصحابِ عندَ الله خَيرُهُمْ لصاحِبِهِ، وخيرُ الجيرَانِ عندَ الله خَيرهُمْ لِجَارِهِ**»(١) [٢].

أو خيراً فيغنم أو يسكت عن شيء فيجلب له عقاباً أو شرًا فيسلم.

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٥/٢٠٦، ٢٠٧):

حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ أقسم ثلاث مرات فقال: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**» قالوا: من يا رسول الله؟ قال: «**من لا يأمن جاره بوائقه**» يعني غدره وخيانته وظلمه وعدوانه، فالذي لا يأمن جاره من ذلك ليس بمؤمن، وإذا كان يفعل ذلك ويوقعه فعلاً فهو أشد.

وفي هذا دليل على تحريم العدوان على الجار؛ سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل، أما بالقول فأن يسمع منه ما يزعجه ويقلقه، كالذين يفتحون الراديو أو التلفزيون أو غيرهما مما يسمع فيزعج الجيران، فإن هذا لا يحل له، حتى لو فتحه على كتاب الله وهو مما يزعج الجيران بصوته فإنه معتد عليهم، ولا يحل له أن يفعل ذلك.

وأما بالفعل فيكون بإلقاء الكناسة حول بابه، والتضييق عليه عند مداخل بابه، أو بالدق، أو ما أشبه ذلك مما يضره، ومن هذا أيضاً إذا كان له نخلة أو شجرة حول جدار جاره، فكان يسقيها حتى يؤذي جاره بهذا السقي، فإن ذلك من بوائق الجار فلا يحل له.

إذن يحرم على الجار أن يؤذي جاره بأي شيء، فإن فعل فإنه ليس بمؤمن، والمعنى أنه ليس متصفاً بصفات المؤمنين في هذه المسألة التي خالف بها الحق.

[٢] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (٦/٣١١٨):

«**خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه**» الصاحب يقع على الأدنى والأعلى والمساوي في صحبة دين أو دنيا سفراً أو حضراً فخيرهم عند الله منزلة وثواباً فيما

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم: (١٩٤٤) والدارمي في سننه برقم: (٢٤٤٢) وأحمد في المسند (٢/١٦٨) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة رقم: (١٠٣).

وفي المسند وصحيح الحاكم عن ابن عمر مرفوعاً: «**أَيّمَا أَهلُ عرصَةٍ أصبحَ فيهم امرؤٌ جَائِعٌ فقد بَرئَتْ مِنهُم الذمَّة**»[1].

وفي صحيحِ الحَاكِم عَن ابن عَبَّاس مرفوعاً: «**ليسَ المؤمِنُ الذي يَشبعُ وجَارُهُ جَائعٌ**» وفي روايةٍ: «**لاَ يُؤمِنُ مَن بَاتَ شعبانَ وجَارهُ طاوياً**»[2] [١].

اصطحبا أكثرهما نفعاً لصاحبه، وإن كان الآخر قد يفضله في خصائص أخر «**وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**» وكل من كان أكثر خيراً لصاحبه أو جاره فهو الأفضل عند الله تعالى وفي إفهامه أن شرهم عند الله شرهم لصاحبه أو جاره، وبه صرح في عدة أخبار.

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (١٠/ ٣١٩٤):

قوله: «**ليس المؤمن**» التعريف فيه للجنس، أي ليس المؤمن الذي عرفته أنه مؤمن كامل بالذي يشبع.

وقال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٠/ ٥١٧٦):

«**ليس المؤمن**» التعريف للجنس أي ليس المؤمن الذي عرفته أنه مؤمن كامل الإيمان «**بالذي يشبع**» وجاره أي والحال أن جاره «**جائع إلى جنبه**» لإخلاله بما توجبه عليه في الشريعة من حق الجوار وتهاونه في فضيلة الإطعام التي هي من شرائع الإسلام سيما عند حاجته وخصاصته، وألصق الجوار جوار الزوجة والخادم والقريب وقد كان للمصطفى ﷺ كما في مسلم جار فارسي طيب المرق فصنع طعاماً ودعاه، فقال: أنا وهذه يعني عائشة فلم يأذن لها فامتنع المصطفى من إجابته لما كان بها من الجوع فلم يستأثر عليها بالأكل، وهذه قضية مكارم الأخلاق سيما مع أهل بيت الرجل ولذلك قيل:

وشبع الفتى لؤم إذا جاع جاره.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٣) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٢) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في تخريجه لأحاديث مشكلة الفقر برقم: (٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم: (١١٢) والحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٧) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة رقم: (١٤٩).

٩٦ ـ باب الاستخفاف بأهل الفضل

عن ابن عمرو مرفوعاً: «**لَيسَ منَّا مَنْ لم يَرحَمْ صغيرَنَا، ولَمْ يَعرفْ شَرَفَ كبيرِنَا**» صحَّحه الترمذيّ(١) [١].

ولأبي داودَ عَنْ أبي مُوسى مرفوعاً: «**إنَّ مِن إجلاَلِ الله إكرَامَ ذي الشَّيبَةِ المسْلم وحامِلِ القُرآنِ غيرِ الغَالي فيهِ، والجَافِي عَنهُ، وإكْرَامَ ذي السُّلطَانِ المقسِطِ**» حديثٌ حسن(٢) [٢].

---

[١] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٠/ ٥٢٣):

«**ليس منا**» يعني من أهل الكمال منا «**من لم يرحم صغيرنا**» يعني الصغير من المسلمين بالشفقة عليه والإحسان إليه «**ويعرف شرف كبيرنا**» مما يستحقه من التعظيم والتبجيل وعليك برحمة الخلق أجمعين ومراعاتهم كيفما كانوا فإنهم عبيد الله وإن عصوا وخلق الله وإن فضل بعضهم على بعض فإنك إذا فعلت نجح سعيك وسما جدك.

قال الحافظ العراقي: ويؤخذ من قوله: «**شرف كبيرنا**» أنه إنما يستحق الكبير الإكرام إذا كان له شرف بعلم أو صلاح ونسب زكي كالشرف ويحتمل أن التعمير في الإسلام شرف لقوله: «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**».

[٢] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاه المصابيح (١٠/ ٣١٨٦):

قوله: «**إن من إجلال الله**» أي من جملة تعظيم الله تعالى وتوقيره أن يكرم موضع

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم: (١٩٢٠) وأبو داود في سننه رقم: (٤٩٤٣) وأحمد في المسند (٢/ ٢١٧ و٢٢٢) والبخاري في الأدب المفرد برقم: (٢٥٦) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم: (٤١٤٣).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٤٨٤٣) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم: (٤٠٥٣).

ولأحمَدَ بسنَد جيِّد: «**لَيسَ مِنَّا مَن لا يُجِلّ كَبيرنا، ولا يَرحَم صغيرَنا، وَلاَ يَعرفُ لِعَالمنا حَقَّهُ**» انتهى[1] [١].

وقاره وهو شيبة المسلم ولهذا السر قال الخليل: زدني وقاراً. قال تعالى: ﴿**وتعزروه وتوقروه**﴾. قوله: «**غير الغالي فيه**» قال ابن الأثير: إنما قال: «**غير الغالي فيه والجافي عنه**» لأن من أخلاقه صوات الله عليه وآدابه التي أمر بها القصد في الأمور، وخير الأمور أوساطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم ومنه الحديث: «**اقرءوا القرآن ولا تجفوا عنه**»[1] أي تتعاهدوه ولا تتبعدوا عن تلاوته. يريد لا تقلوا في القرآن بأن تبذلوا جهدكم في قراءته وتجويده من غير تفكر وتدبر كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو: «**لم يفقه من قرأ القرآن من أقل من ثلاثة**»[2]، أو «**لا تجفوا عنه**» بأن تتركوا قراءته وتشتغلوا بتأويله وتفسيره.

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٠/ ٥٢٣٦):

«**ليس منا**» أي ليس مثلنا «**من لم يجل كبيرنا**» لما خص به من السبق في الوجود وتجربة الأمور و«**يرحم صغيرنا**» لعجزه وبراءته عن قبائح الأعمال وقد يكون صغيراً في المعنى مع تقدم سنه لجهله وغباوته وحرقه وغفلته فيرحم بالتعليم والإرشاد والشفقة «**ويعرف لعالمنا حقه**» بأن لم يحترمه ولم يطع أمره في غير معصية.

قال الحكيم: إجلال الكبير هو حق سنه لكونه تقلب في العبودية لله في أمد طويل، ورحمة الصغير موافقه لله فإنه رحم ورفع عنه العبودية، ومعرفة حق العالم هو حق العلم بأن يعرف قدره بما رفع الله من قدره، فإنه قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۢ﴾ [المجادلة: ١١] فيعرف له درجته التي رفع الله له بما آتاه من العلم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٢٣) والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٢) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح الجامع رقم: (٥٤٤٣).

(٢) أخرجه أحمد والطبراني وغيرهما وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح الجامع رقم: (١١٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وهو في صحيح الجامع برقم: (٧٧٤٣).

٩٧ ـ باب إغضاب الزوج

وقولِ الله تعالى: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النِّساء: الآية ٣٤] الآية [١].

عَنْ أَبي هُريرةَ ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «**والذِي نَفسِي بيدِه مَا مِنْ رَجُلٍ يدعُو امرأتَه إلى فِرَاشِهِ فَتأْبَى عِليهِ إلاَّ كَانَ الذي في السَّمَاءِ ساخطاً عَليهَا حتى يَرضَى عَنهَا زَوجُهَا**» ـ وفي روايةٍ ـ «**إلاَّ لَعَنتهَا الملائِكَةُ حَتَّى تُصبِحَ**» أخرجَاهُ[1] [٢].

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٤/ ٦١):

﴿**فالصالحات**﴾ المستقيمات الدين، العاملات بالخير ﴿**قانتات**﴾ يعني مطيعات لله ولأزواجهن ﴿**حافظات للغيب**﴾ أي حافظات لأنفسهن عند غيبة أزواجهن عنهن في فروجهن وأموالهم، وللواجب عليهن من حق الله في ذلك وغيره ﴿**بما حفظ الله**﴾ أي بحفظ الله إياهن: إذا صيرن كذلك.

[٢] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (/ ١٦٤):

قول النبي ﷺ: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح**».

ولعن الملائكة يعني أنها تدعو على هذه المرأة باللعنة، واللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمه الله، إذا دعاها إلى فراشه ليستمتع بها بما أذن الله له فيه فأبت أن تجيء، فإنها تلعنها الملائكة والعياذ بالله، أي تدعو عليها باللعنة إلى أن تصبح.

واللفظ الثاني أنها إذا هجرت فراش زوجها، فإن الله تعالى يغضب عليها حتى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥١٩٣) ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٥٩) برقم: (١٤٣٦).

. . . .

يرضى عنها الزوج، وهذا أشد من الأول؛ لأن الله سبحانه وتعالى إذا سخط فإن سخطه أعظم من لعنة الإنسان، نسأل الله العافية.

ودليل ذلك أن الله تعالى ذكر في آية اللعان أنه إذا لاعن الرجل يقول: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [النُّور: الآية ٧] وهي إذا لاعنت تقول: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [النُّور: الآية ٩] وهذا يدل على أن الغضب أشد.

وأيضاً قال في الحديث: **«إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها»** أي الزوج، وهناك قال: **«حتى تصبح»**، أما هنا فعلقه برضى الزوج وهذا قد يكون أقل، وقد يكون أكثر يعني ربما يرضي الزوج عنها قبل طلوع الفجر وربما لا يرضى إلا بعد يوم أو يومين، المهم ما دام الزوج ساخطاً عليها فالله عزّ جلّ ساخط عليها.

وفي هذا دليل على عظم حق الزوج على زوجته، ولكن هذا في حق الزوج القائم بحق الزوجة، أما إذا نشز ولم يقم بحقها، فلها الحق أن تقتص منه وألا تعطيه حقه كاملاً، لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٤] ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: الآية ١٢٦].

لكن إذا كان الزوج مستقيماً قائماً بحقها فنشزت هي وضيعت حقه فهذا جزاؤها إذا دعاها إلى فراشه فأبت أن تأتي.

والحاصل أن هذه الألفاظ التي وردت في هذا الحديث هي مطلقة، لكنها مقيدة بكونه قائماً بحقها، أما إذا لم يقم بحقها فلها أن تقتص منه وأن تمنعه من حقه مثل ما منعها من حقها، لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٤]، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: الآية ١٢٦].

وفي هذا الحديث دليل صريح لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وسلف الأمة من أن الله عز وجل في السماء هو نفسه جل وعلا، فوق عرشه، فوق سبع سمٰوات،

وعَنهُ مرفوعاً: **«لَوْ كُنتُ آمراً أحداً أَنْ يسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجُدَ لِزَوجِهَا»** صححهُ الترمذي[1] [١].

وليس المراد بقوله في السماء أي ملكه في السماء، بل هذا تحريفٌ للكلم عن مواضعه.

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٠/ ٥١١٥):

في الحديث تعليق الشرط بالمحال لأن السجود قسمان: سجود عبادة وليس إلا لله وحده ولا يجوز لغيره أبداً وسجود تعظيم كما سجدت الملائكة لآدم تعظيماً، وأخبر المصطفى ﷺ أن ذلك لا يكون ولو كان لجعل للمرأة في أداء حق الزوج... وفي الحديث تأكيد حق الزوج وحث على ما يجب من بره ووفاء عهده والقيام بحقه ولهن على الأزواج ما للرجال عليهن.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم: (١١٥٩) وابن حبان في صحيحه رقم: (٤١٦٢) والحاكم في المستدرك (٤/ ١٧١) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الإرواء برقم (١٩٩٨).

٩٨ ـ باب أذى الصالحين

وقولِ الله تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ الآية [الأحزاب: الآية ٥٨] الآية[١].

عَنْ أبي هبيرةَ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ أبَا سفيانَ أَتَى عَلى سَلمَانَ وصهيبٍ وبلالٍ في نَفَرٍ فَقالُوا: ما أخذت سُيوفُ الله مأْخَذَهَا مِن عُنقِ عَدوِّ الله، فَقالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه ـ أتقُولُونَ هَذا لشيخِ قُرَيشٍ وسَيدِهِمْ؟ فَأتَى النَّبي ﷺ فأَخْبَرَهُ فَقالَ: «**يَا أبا بَكرٍ لَعَلَّكَ أَغضبتَهُمْ لئن كنتَ أغضبتهم فقد أغضبت ربك**»، فقال: يا اخوتاه لعلي أغضبتكم؟ فَقالوا: لاَ. يَغفرُ الله لَكَ يَا أخِي. رَواهُ مسلمٌ(١) [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٩٢٥):

وإن كان أذية المؤمنين عظيمة، وإثمهما عظيماً، ولهذا قال فيها: ﴿**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا**﴾ أي: بغير جناية منهم موجبة للأذى ﴿**فقد احتملوا**﴾ على ظهورهم ﴿**بهتاناً**﴾ حيث آذوهم بغير سبب ﴿**وإثماً مبيناً**﴾ حيث تعدوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها. ولهذا كان سبُّ آحاد المؤمنين، موجباً للتعزير، بسحب حالته وعلو مرتبته. فتعزير مَنْ سبَّ الصحابة أبلغ، وتعزير مَن سبَّ العلماء وأهل الدين، أعظم من غيرهم.

[٢] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

وفي هذا فضيلة ظاهرة لسلمان ورفقته هؤلاء، ويه مراعاة قلوب الضعفاء، وأهل الدين، وإكرامهم وملاطفتهم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة (١٩٤٧/٤) رقم: (٢٥٠٤).

وللترمذي وحسنَهُ عن أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً: **«مَنْ أَهَانَ السلطَانَ أَهانَهُ الله»**(١) [١].

---

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (٨/ ٢٥٧٦):

قوله: «**من أهان سلطان الله**...» المعنى: من أهان من أعزه الله وألبسه خلع السلطنة، أهانه الله، و«**في الأرض**» متعلق بـ«**سلطان الله**» تعلقها في قوله تعالى: ﴿**إنا جعلناك خليفة في الأرض**﴾ والإضافة في «**سلطان الله**» إضافة تشريف كبيت الله.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٣٣٩) وأحمد في المسند (٥/ ٤٢، ٤٩) وابن أبي عاصم في السنة برقم (١٠١٧) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم: (٢٢٩٦)وفي صحيح سنن الترمذي رقم: (١٨١٢).

٩٩ ـ باب ما جاء
في الأمانة والخيانة فيها وتفسير الأمانة

وقولِ الله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: الآية ٥٨] الآية [١].

وقـــولـــه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢] [٢].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢١٣):

الأمانات: كل ما ائتمن عليه الإنسان، وأمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها، أي كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولاً لها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال، والأسرار، والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله. وقد ذكر الفقهاء أن من ائتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها. قالوا لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها فوجب ذلك. ووفي قوله تعالى: ﴿إلى أهلها﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمن ووكيله بمنزلته، فلو دفعها لغير ربها، لم يكن مؤدياً لها.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٩٢٧):

يعظم تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، والسمٰوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وأنك إن قمت بها وأدَّيتها على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقم بها، ولم تؤدِّها، فعليك العقاب.

﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ أي خوفاً أن لا يقمن بما حُمِّلنَ، لا عصياناً

رَوَى البيهقيُّ عَن ابنِ مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قالَ: القتلُ في سبيلِ الله يكفِّرُ كُلَّ شيءٍ إلاَّ الأمانَةَ والدَّينَ ـ يُؤتَى بالعَبدِ القَيَامَةِ وإنْ قُتِلَ في سَبيلِ الله فَيقالُ: لهُ أَدِّ أمانَتَكَ فيقولُ: أيْ رَبِّ كيفَ وقَدْ ذَهبتِ الدُّنْيا؟ فيقالُ: انطلقُوا بهِ إلى الهَاوِيَةِ فينطلقُونَ بهِ إليْهَا فتمثَّلُ لهُ أَمَانَتُهُ كَهيأَتِهَا يومَ دفعتْ إليه، فيراهَا ويعرفُهَا فيهوي في أثَرِها حَتَّى يُدْركَهَا فيحملُهَا عَلى مَنكبِهِ حَتَّى إذَا ظَنَّ أنَّهُ خَارجَ زَلَّتْ عَنْ مَنكبِه فَهُوَ يَهوي في أثرِهَا أَبَدَ الآبدين، ثُمَّ قَالَ: الصلاةُ أَمانَةٌ، والوضوءُ أَمانَةٌ، والوزنُ أَمَانَةٌ، والكيلُ أَمَانَةٌ ـ وعددَ أشياءَ ـ وأشدُّ ذلكَ الودائعُ قالَ: فأَتيتُ البَراءَ فقلتُ: ألا تَرَى إلى مَا قَالَ ابنُ مسعودٍ؟ قَالَ كَذا وكَذا. قالَ: صَدقَ أَما سمعتْ الله تَعالَى يَقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النِّساء: الآية ٥٨] قال زيدُ بن أَسْلَمَ: هي الصَّومُ والغسلُ مِنَ الجَنَابَة ومَا خفي من الشرائع[١].

لربهن، ولا زهداً في ثوابه.

وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانقسم الناس ـ بحسب قيامهم بها وعدمه ـ إلى ثلاثة أقسام: منافقون: قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون: تركوهها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون: قائمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب فقال: **﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾**. فله تعالى الحمد، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده. مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم، لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٢٣) برقم: (٥٢٦٦).

١٠٠ ـ باب الولايات من الأمانة

عَنْ أبي هريرة ـ رضي الله عنه مرفوعاً: أنَّ أعرابياً سألَ النَّبي ﷺ مَتَى الساعةُ؟ قَالَ: «**إذَا ضُيعتِ الأمانةُ فانتظر السَّاعَةَ**» ـ قالَ كيفَ إضاعتهَا؟ قالَ: «**إذَا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلهِ فانتظرِ السَّاعَةَ**» أخرجهُ البخاري(١) [١].

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١/ ١٩٠):

قوله: «**إذا وسد**» أي أسند وأصله من الوسادة، وكان من شأن الأمير عندهم إذا جلس أن تثنى تحته وسادة، فقوله: وسد أي جعل له غير أهله وساداً، فتكون إلى بمعنى اللام وأتى بها ليدل على تضمين معنى أسند.

وقال رحمه الله في الفتح (١١/ ٤٠٦):

. . والمراد من «**الأمر**» جنس الأمور التي تتعلق بالدين كالخلافة والإمارة والقضاء والإفتاء وغير ذلك. وقوله: «**فانتظر الساعة**» الفاء للتفريع، أو جواب شرط محذوف أي إذا كان الأمر كذلك فانتظر، قال ابن بطال: معنى «**أسند الأمر إلى غير أهله**» أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، فينبغي لهم تولية أهل الدين، فإذا قلدوا غير أهل الدين فقد ضيعوا الأمانة التي قلدهم الله تعالى إياها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٩ و٦٤٩٦).

١٠١ ـ باب النهي عن طلبها (أي الولاية)

عن عبدِ الرحمٰنِ بن سمرةَ رضي الله عنه مرفوعاً: **«لاَ تَسأَلِ الإمارةَ فإنَّكَ إنْ أعطيتَها مِن غَيرِ مسألَةٍ أُعنتَ عليهَا، وإنْ أَعطيتَهَا عَنْ مسأَلَةٍ وُكلتَ إليهَا، وإذَا حَلفتَ عَلى يمين فَرأَيت غَيرَها خيراً مِنهَا فأْتِ الذي هُوَ خيرٌ وكَفِّرْ عَنْ يَمينكَ»** أخرجاه[1] [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٧/ ٦ وما بعدها):

الإمارة معناها التأمر على الناس والاستيلاء عليهم. وهي كبرى وصغرى.

أما الكبرى فهي التي تكون إمارة عامة على كل المسلمين، كإمارة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو خليفة رسول الله ﷺ، وكإمارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم من الخلفاء، هذه إمارة عامة وسلطة عامة.

وإمارة خاصة دون ذلك: تكون إمارة على منطقة من المناطق تشتمل على قرى ومدن، أو إمارة أخص من ذلك على قرية واحدة أو مدينة واحدة، وكلها يُنهى الإنسان أن يطلب فيها أن يكون أميراً، كما سيأتي في حديث عبد الرحمٰن بن سمرة رضي الله عنه.

وطلب الإمارة ربما يكون قصد الطالب للإمارة أن يعلو على الناس، ويملك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٦٦٢٢ و٦٧٢٢ و٧١٤٦ و٧١٤٧) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٣/ ١٢٧٣) وكتاب الإمارة (٣/ ١٤٥٦).

. . . .

رقابهم، ويأمر وينهى فيكون قصده سيئاً، فلا يكون له حظ من الآخرة، والعياذ بالله، ولهذا نُهي عن طلب الإمارة.

ثم ساق المؤلف رحمه الله حديث عبد الرحمٰن بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال له: **«يا عبد الرحمٰن بن سمرة»** ناداه باسمه واسم أبيه من أجل أن ينتبه لما يُلقى إليه، لأن الموضوع ليس بالهين. **«لا تسأل الإمارة»** يعني لا تطلب أن تكون أميراً. **«فإنك إن أعطيتها عن مسألة»** يعني بسبب سؤالك **«وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»** والمعين هو الله.

فإذا أعطيتها بطلب منك وكلك الله إليها وتخلى الله عنك والعياذ بالله، وفشلت فيها ولم تنجح ولم تفلح، وإن أعطيتها عن غير مسألة بل الناس هم الذين اختاروك وهم الذي طلبوك، فإن الله تعالى يعينك عليها، يعني فاقبلها وخذها.

وهذا يشبه المال، فإن الرسول ﷺ قال لعمر: **«ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك»**[(1)].

ولهذا ينبغي للإنسان الموفق ألا يسأل شيئاً من الوظائف، فإن رُقي بدون مسألة فهذا هو الأحسن وله أن يقبل حينئذ، أما أن يطلب ويلح فإنه يُخشى أن يكون داخلاً في هذا الحديث.

فالورع والاحتياط ألا تطلب شيئاً من ترقية أو انتداب أو غير ذلك، إن أعطيت فخذ، وإن لم تعط فالأحسن والأورع والأتقى ألا تطلب، فكل الدنيا ليست بشيء، وإذا رزقك الله رزقاً كفافاً لا فتنة فيه، فهو خير من مال كثير تفتن فيه، نسأل الله السلامة.

«لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٧١٦٣، ٧١٦٤) كتاب الأحكام. ومسلم في صحيحه رقم (١٠٤٥) كتاب الزكاة.

وَلمسلم عَنْ أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قُلتُ: يَا رسولَ الله أَلاَ تَستعمِلُني؟ فَضرَبَ بيدهِ عَلَى منكبِي ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَاكَ ضعيفاً، وَإِنَّهَا أَمَانةٌ، وإِنَّهَا يَومَ**

مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير»، يعني إذا حلفت ألا تفعل شيئاً، ثم تبين لك أن الخير في فعله، فكفر عن يمينك وافعله، وإذا حلفت أن تفعل شيئاً ثم بدا لك أن الخير في تركه فاتركه وكفر عن يمينك.

وإنما قال له النبي ذلك، لأنه إذا كان الإنسان أميراً فحلف على شيء ربما تملي عليه أنفة الإمارة ألا يتحول عن حلفه، ولكن ينبغي ـ وإن كان أميراً ـ إذا حلف على شيء ورأى الخير في تركه أن يتركه، أو حلف ألا يفعل شيئاً ورأى الخير في فعله أن يفعله، وهذا شامل للأمير وغيره.

إذا حلفت على شيء ورأيت أن الخير في خلافه فكفر عن يمينك وافعل الخير.

مثال ذلك: رجل حلف ألا يزور قريبه لأنه صار بينه وبينه شيء فقال: والله لا أزوره؛ فهذا حلف على قطع الرحم؛ وصلة الرحم خير من القطيعة، فنقول: يجب عليك أن تكفر عن يمينك وأن تزور قريبك، لأن هذا من الصلة والصلة واجبة.

مثال آخر رجل حلف ألا يكلم أخاه المسلم ويهجره، نقول: هذا غلط، كفر عن يمينك وكلمه.

وهكذا كل شيء تحلف عليه ويكون الخير بخلاف ما حلفت فكفر عن يمينك وافعل الخير، وهذه قاعدة في كل الأيمان، ولكن ينبغي للإنسان ألا يتسرع في الحلف؛ فإن كثيراً من الناس يتسرعون في الحلف أو في الطلاق أو ما أشبه ذلك، ويندمون بعد ذلك، فنقول: لا تتعجل ولا تتسرع، إذا كنت عازماً على الشيء فافعله أو اتركه بدون يمين وبدون طلاق، ثم إن ابتليت بكثرة الحلف فاقرن حلفك بقولك: إن شاء الله، فإنك إن حلفت وقلت: إن شاء الله، فأنت في حل حتى لو خالفت ما حلفت عليه فإنه لا يضرّ.

فلو قلت: والله إن شاء الله لا أفعل هذا الشيء، ثم فعلته فليس عليك شيء، لأن من قال في يمينه إن شاء الله، فلا حنث عليه، والله الموفق.

القِيَامَةِ خِزيٌ وَنَدَامَةٌ إلاَّ مَن أَخَذَهَا بِحَقِّها وأَدَّى الذي عَلَيهِ فِيهَا»[(1)] [1].

---

[1] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين: (7/11 وما بعدها):

والمعنى أن النبي ﷺ نهاه أن يكون أميراً لأنه ضعيف، والإمارة تحتاج إلى إنسان قوي أمين، قوي بحيث تكون له سلطة وكلمة حادة؛ إذا قال فعل، لا يكون ضعيفاً أمام الناس، لأن الناس إذا استضعفوا الشخص لم يبق له حرمة عندهم، وتجرأ عليه لكع بن لكع، وصار الإنسان ليس بشيء، لكن إذا كان قويّاً حادّاً في ذات الله لا يتجاوز حدود الله عزّ وجلّ، ولا يقصر عن السلطة التي جعلها الله له فهذا هو الأمير حقيقة.

ففي هذا دليل على أنه يشترط للإمارة أن يكون الإنسان قويّاً وأن يكون أميناً، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**إنها أمانة**»، فإذا كان قويّاً أميناً فهذه هي الصفات التي يستحق بها أن يكون أميراً. فإن كان قويّاً غير أمين، أو أميناً غير قوي، أو ضعيفاً غير أمين، فهذه الأحوال الثلاثة لا ينبغي أن يكون صاحبها أميراً.

ولكن يجب أن نعلم أن الأشياء تتقيد بقدر الحاجة، فإذا لم نجد إلا أميراً ضعيفاً، أو أميراً غير أمين، وكان لا يوجد في الساحة أحد تنطبق عليه الأوصاف كاملة، فإنه يُولي الأمثل فالأمثل، ولا تترك الأمور بلا إمارة، لأن الناس محتاجون إلى أمير، ومحتاجون إلى قاضٍ، ومحتاجون إلى من يتولى أمورهم، فإن أمكن وجود من تتم فيه الشروط فهذا هو الواجب وإن لم يوجد فإنه يُولى الأمثل فالأمثل لقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية 16].

وتختلف الأنظار فيما إذا كان لدينا رجلان: أحدهما أمين غير قوي، والثاني قوي غير أمين، كل منهما معيب من وجه، لكن في باب الإمارة يفضل القوي وإن كان فيه ضعف في الأمانة، لأن القوي ربما يكون أميناً، لكن الضعيف الذي طبيعته الضعف

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (3/1457) رقم: (1825).

. . . .

فإن الطبع لا يتغير ولا يتحول غالباً.

فإذا كان أمامنا رجلان: أحدهما ضعيف ولكنه أمين، والثاني قوي لكنه ضعيف في الأمانة، فإننا نؤمر القوي لأن هذا أنفع للناس، فالناس يحتاجون إلى سلطة وإلى قوة، وإذا لم تكن قوة ولا سيما مع ضعف الدين ضاعت الأمور.

١٠٢ ـ باب ما جاء في غش الرعية

عَنْ معقلِ بن يَسارٍ رضي الله عنه مرفوعاً: «**مَا مِنْ عَبدٍ يسترعيهِ الله رَعِيَّةَ يَموتُ يومَ يَموتُ وَهُوَ غاشٌ لرعِيَّتهِ، إلاَّ حَرَّمَ عَلَيهِ الجَنَّةَ**» ـ وفي رِوايَة ـ «**فلَمْ يَحُطهَا بنَصيحتَه إلاَّ لَمْ يَجِدْ رائحةَ الجَنَّةِ**» أَخْرجَاهُ(١) [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله: «**حرم الله عليه الجنة**» فيه التأويلان المتقدمان في نظائره، أحدهما أنه محمول على المستحل، والثاني حرم عليه دخولها مع الفائزين السابقين، ومعنى التحريم هنا المنع. قال القاضي عياض رحمه الله: معناه بين في التحذير من غش المسلمين لمن قلده الله تعالى شيئاً من أمرهم واسترعاه عليهم ونصبه لمصلحتهم في دينهم أو دنياهم، فإذا خان فيما اؤتمن عليه، فلم ينصح فيما قلده، إما بتضييعه تعريفهم ما يلزمهم من دينهم وأخذهم به، وإما بالقيام بما يتعين عليه من حفظ شرائعه، والذب عنها لكل متصيد لإدخال داخلة فيها أو تحريف لمعانيها، أو إهمال حدودهم، أو تضييع حقوقهم، أو ترك حماية حوزتهم ومجاهدة عدوهم أو ترك سيرة العدل فيهم فقد غشهم، قال القاضي: وقد نبه ﷺ على أن ذلك من الكبائر الموبقة المبعدة عن الجنة، والله أعلم.

وقال الإمام ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٣/ ١٦٠):

قال ابن بطال: هذا وعيد شديد على أئمة الجور فمن ضيع من استرعاه الله أو خانهم أو ظلمهم فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة، وكيف يقدر على التحلل من ظلم أمة عظيمة، ومعنى «**حرم الله عليه الجنة**» أي أنفذ الله عليه الوعيد ولم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧١٥١) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ١٢٥) رقم: (١٤٢).

. . . .

يرض عنه المظلومين. . . . قوله: «**وهو غاش**» فيه للعقل مقصود بالذكر يريد أن الله إنما ولاه على عباده ليديم لهم التضحية لا ليغشهم حتى يموت على ذلك، فلما قلب القضية استحق أن يعاقب.

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين: (٦/ ٣٤٦ وما بعدها):

هذا الباب عقده المؤلف رحمه الله في كتابه هو باب عظيم مهم يُخاطب به ولاة الأمور ويخاطب به الرعية، ولكل منهم على الآخر حق يجب مراعاته.

أما ولاة الأمور فيجب عليهم الرفق بالرعية، والإحسان إليهم، واتباع مصالحهم، وتولية من هو أهل للولاية، ودفع الشر عنهم وغير ذلك من مصالحهم، لأنهم مسؤولون عنهم أمام الله عزّ وجلّ.

وأما الرعية فالواجب عليهم السمع والطاعة في غير المعصية، والنصح للولاة، وعدم التشويش عليهم، وعدم إثارة الناس عليهم، وطي مساوئهم، وبيان محاسنهم، لأن المساوىء يمكن أن ينصح فيها الولاة سرّاً بدون أن تُنشر على الناس، لأن نشر مساوىء ولاة الأمور أمام الناس لا يستفاد منه، بل لا يزيد الأمر إلا شدة؛ فتحمل صدور الناس الكراهية والبغضاء لولاة الأمور.

وإذا كره الناس ولاة الأمور وأبغضوهم وتمردوا عليهم، ورأوا أمرهم بالخير أمراً بالشر، ولم يسكتوا عن مساوئهم، وحصل بذلك إيغار للصدور وشر وفساد.

والأمة إذا تفرقت وتمزقت حصلت الفتنة بينها ووقعت، مثل ما حصل في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، حين بدأ الناس يتكلمون فيه، فأوغروا الصدور عليه، وحشدوا الناس ضده، وحصل ما حصل من الفتن والشرور إلى يومنا هذا.

فولاة الأمور لهم حق وعليهم حق.

ثم استدل المؤلف رحمة الله تعالى بآيات من كتاب الله فقال: وقول الله تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ يعني لا تتعالى عليهم، ولا ترتفع في الجو، بل اخفض الجناح، حتى وإن كنت تستطيع أن تطير في الجو فاخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.

. . . .

وأما من خالفك وعصاك فأقم عليه العقوبة اللائقة به، لأن الله تعالى لم يقل اخفض جناحك لكل أحد، بل قال: لمن اتبعك من المؤمنين.

وأما المتمردون والعصاة فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: الآيتان ٣٣، ٣٤].

وقوله الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: الآية ٩٠].

إن الله يأمر بهذه الأمور الثلاثة:

بالعدل وهو واجب، فيجب على الإنسان أن يقيم العدل في نفسه، وفي أهله، وفيمن استرعاه الله عليهم.

فالعدل في نفسه بألا يثقل عليها في غير ما أمر الله، وأن يراعيها حتى في أمر الخير، فلا يثقل عليها أو يحملها فوق ما تطيقه. ولهذا لما قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أصوم ولا أفطر، وأصلي ولا أنام، دعاة النبي عليه الصلاة والسلام ونهاه عن ذلك وقال: «**إن لنفسك عليك حقاً، ولربك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه**»[1].

وكذلك يجب العدل في أهل الإنسان، فمن كان له زوجتان وجب عليه العدل بينهما، و«**من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٦١٣٤) كتاب الأدب. ومسلم في صحيحه رقم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه رقم (١١٤١) كتاب النكاح. والنسائي في سننه (٧/ ٦٣) كتاب عشرة النساء. وابن ماجه في سننه رقم (١٩٦٩) كتاب النكاح، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم (١٦٠٣).

. . . .

ويجب العدل بين الأولاد، فإذا أعطيت أحدهم ريالاً، فأعط الآخر مثله، وإذا أعطيت الابن ريالين، فأعط البنت ريالاً، وإذا أعطيت الابن ريالاً فأعط البنت نصف ريال.

حتى إن السلف ـ رحمهم الله ـ كانوا يعدلون بين الأولاد في القُبل، فإذا قبّل الولد الصغير وأخوه عنده قبّل الولد الثاني، لئلا يجحف معهم في التقبيل.

وكذلك أيضاً في الكلام، يجب أن تعدل بينهم، فلا تتكلم مع أحدهم بكلام خشن ومع الآخر بكلام لين.

وكذلك يجب العدل فيمن ولاك الله عليهم، فلا تحابي قريبك لأنه قريبك، ولا الغني لأنه غني، ولا الفقير لأنه فقير، ولا الصديق لأنه صديق، لا تحابِ أحداً فالناس سواء.

حتى إن العلماء رحمهم الله قالوا: يجب العدل بين الخصمين إذا دخلا على القاضي؛ في لفظه ولحظه وكلامه ومجلسه ودخولهما عليه. لا تنظر لهذا نظرة غضب ولهذا نظرة رضا، لا تلن الكلام لهذا والثاني بعكسه. لا تقل لأحد كيف أنت؟ كيف أهلك؟ كيف أولادك؟ والثاني: تتركه، بل اعدل بينهما حتى في هذا.

وكذلك في المجلس لا تجعل أحدهما يجلس على اليمين قريباً منك والثاني تجعله بعيداً عنك. بل اجعلهما أمامك على حدٍ سواء.

حتى المؤمن والكافر إذا تخاصما عند القاضي، يجب أن يعدل بينهما في الكلام والنظر والجلوس، فلا يقل للمسلم تعالى بجواري والكافر يبعده، بل يجعلهما يجلسان جميعاً أمامه، فالعدل واجب في كل الأمور.

أما الإحسان فهو فضل زائد على العدل، ومع ذلك أمر الله به، لكن أمره بالعدل واجب وأمره بالإحسان سنة وتطوع.

﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي إعطاء القريب حقه. فإن القريب له حق، حق الصلة، فمن وصل رحمه وصله الله، ومن قطع رحمه قطعه الله.

. . . .

﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ينهي عن الفحشاء: الفحشاء هي كل ما يُستفحش من الذنوب، كعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، والزنا، ونكاح المحارم، وغير ذلك مما يُستفحش شرعاً وعرفاً، والمنكر هو ما يُنكر، وهو دون الفحشاء كعامة المعاصي. والبغي: تجاوز الحد، وهو الاعتداء على الخلق بأخذ أموالهم، والاعتداء على دمائهم وأعراضهم، كل هذا يدخل في البغي.

وبين الله عز وجل أنه أمر ونهى ليعظنا ويصلح أحوالنا، ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وأما حديث معقل بن يسار الذي ذكره المؤلف، فإن فيه التحذير من غش الرعية، وأنه ما من عبد يسترعيه الله على رعيته ثم يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة، وأنه إذا لم يحطهم بنصيحته فإنه لا يدخل معهم الجنة.

وهذا يدل على أن ولاة الأمور مسؤولون عن الصغيرة والكبيرة، وعليهم أن ينصحوا لمن ولاهم الله أمرهم، وأن يبذلوا لهم النصيحة، وأهمها النصيحة في دين الله، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير.

ومن النصيحة لهم أن يسلك بهم الطريق التي فيها صلاحهم في معادهم ومعاشهم، فيمنع عنهم كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم، يمنع عنهم الأفكار السيئة، والأخلاق السافلة، وما يؤدي إلى ذلك من المجلات والصحف وغيرها؛ ولهذا يجب على ولي الأمر في البيت وهو الرجل في بيته أن يمنع من وجود هذه الأشياء في البيت؛ الصحف السيئة الفاسدة، الأفكار المنحرفة، الأخلاق السافلة.

وكذلك فإن ولي الأمر العام يجب عليه أن يمنع هذه الأشياء؛ وذلك لأن هذه الأشياء إذا شاعت بين الناس صار المجتمع بهيمياً؛ لا يهمه إلا إشباع البطن وشهوة الفرج، وتحصل الفوضى، ويزول الأمن، ويكون الشر والفساد، فإذا منع ولي الأمر ما يفسد الخلق، حصل بهذا الخير الكثير.

. . . .

لو أن كل واحد منا في بيته منع أهله من اقتناء هذه الصحف والمجلات الخليعة الفاسدة، ومن مشاهدة التمثيليات الفاسدة، والمسلسلات الخبيثة، لصلح الناس، لأن الناس هم أفراد الشعب؛ أنت في بيتك، والثاني في بيته، والثالث في بيته، وهكذا إذا صلحوا صلح كل شيء. نسأل الله أن يصلح ولاة أمورنا وأن يرزقهم البطانة الصالحة.



١٠٣ ـ باب الشفقة على الرعية

وقول الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٨٨] [١].

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩] الآية [٢].

ولمسلمٍ عنْ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ مَرفوعاً: «**اللَّهُمَّ مَن وُلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي**

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٥٨٣):

﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ أي: أَلِن لهم جانبك وحسن لهم خلقك محبة وإكراماً وتَوَدُّداً.

[٢] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٧٣):

أي برحمة الله لك ولأصحابك، منّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك. **﴿ولو كنت فظاً﴾**، أي سيىء الخلق **﴿غليظ القلب﴾** أي قاسيه **﴿لانفضوا من حولك﴾** لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء. فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره.

أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله وجذباً لعباد الله لدين الله.

شَيئاً فَشَقَّ عَليهِمْ، فَاشقُقْ عَلَيهِ، وَمَنْ وُلِّيَ مِنْ أَمرِ أُمَّتي شيئاً فرفَقَ بِهم فَارفُقْ بِهِ»[1] [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٦/ ٣٥٤):

قول النبي ﷺ: **«اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه»**.

هذا دعاء من النبي ﷺ على من تولى أمور المسلمين الخاصة والعامة؛ فيقع على الإنسان يتولى أمر بيته، وعلى مدير المدرسة يتولى أمر المدرسة، وعلى المدرس يتولى أمر الفصل، وعلى الإمام يتولى أمر المسجد.

ولهذا قال: **«من وولي من أمر أمتي شيئاً»**. **«وشيئاً»** نكرة في سياق الشرط، وقد ذكر علماء الأصول أن النكرة في سياق الشرط تفيد العموم، أي شيء يكون، **«فرفق بهم فارفق به»**، لكن ما معنى الرفق؟

قد يظن بعض الناس أن معنى الرفق أن تأتي للناس على ما يشتهون ويريدون، وليس الأمر كذلك، بل الرفق أن تسير بالناس حسب أمر الله ورسوله، ولكن تسلك أقرب الطرق وأرفق الطرق بالناس، ولا تشق عليهم في شيء ليس عليه أمر الله ورسوله، فإن شققت عليهم في شيء ليس عليه أمر الله ورسوله، فإنك تدخل في الطرف الثاني من الحديث؛ وهو الدعاء عليك بأن يشق الله عليك والعياذ بالله.

يشق عليك إما بآفات في بدنك، أو في قلبك، أو في صدرك، أو في أهلك أو في غير ذلك، لأن الحديث مطلق **«فاشفق عليه»** بأي شيء يكون، وربما لا يظهر للناس المشقة، قد يكون في قلبه نار تلظى والناس لا يعلمون، لكن نحن نؤمن بأنه إذا شق على الأمة بما ينزل الله به سلطاناً فإنه مستحق لهذه العقوبة من الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٤٥٨) رقم: (١٨٢٨).

١٠٤ ـ باب الاحتجاب دون الرعية

عَنْ أبي مَريمَ الأزديِّ رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ لمعاويَةَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: **«مَنْ وَلاهُ الله شَيئاً مِن أُمُورِ المسلمِينَ فاحتَجَبَ دونَ حَاجَتهمْ وخَلَّتِهِمْ وفَقْرِهِم، احتَجَبَ الله دُونَ حَاجَتِهِ وخَلَّتِهِ وفَقرِهِ يَومَ القِيامَةِ»** فَجعَلَ معاويةُ رَجُلاً عَلى حَوائجِ النَّاسِ. رَواهُ أَبو دَاودَ والتِّرمِذيُّ[(١)] [١].

---

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (ص ٢٥٩٢):

قوله: **«فاحتجب»** قال القاضي ناصر الدين: والمراد باحتجاب الوالي أن يمنع أرباب الحوائج والمهمات أن يلجوا عليه فيعرضوها ويعسر عليهم إنهاؤها، واحتجاب الله تعالى أن لا يجيب دعوته ويخيب آماله. والفرق بين الحاجة والخلة والفقر، أن الحاجة ما يهتم به الإنسان وإن لم يبلغ حد الضرورة بحيث لو لم يحصل لاختل به أمره. والخلة ما كان كذلك مأخوذ من الخلل، ولكن ربما لم يبلغ حد الاضطرار بحيث لو لم يوجد لامتنع التعيش، والفقر هو الاضطرار إلى ما لا يمكن التعيش دونه، مأخوذ من الفقار كأنه كسر فقاره، ولذلك فسر الفقير بالذي لا شيء له أصلاً، واستعاذ رسول الله ﷺ من الفقر.

قال المظهر: يعني من احتجب دون حاجة الناس وخلتهم فعل الله به يوم القيامة ما فعل بالمسلمين.

أقول: ولعل هذا الوجه أعني التقييد بيوم القيامة أرجح، لأن الترقي في قوله:

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٢٩٤٨) والترمذي في سننه برقم: (١٣٣٣) والحاكم في المستدرك (٤/ ٩٣) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم: (٦٢٩) وفي صحيح سنن أبي داود برقم: (٢٥٥٥).

وللترمذيّ[1] عَنْ عمرو بن مُرَّة الجهنيّ نَحوهُ. صَححَهُ الحَاكِمُ.

«حاجته وخلته وفقره» في شأن الملوك والسلاطين وليس ذلك إلا في العقبى، ونحوه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: الآية ١٥] تغليظاً عليهم وتشديداً، ولما كان جزاء المقسطين يوم القيامة أن يكونوا على منابر من نور على يمين الرحمن كان جزاء القاسطين البعد، والاحتجاب عنهم والإقناط عن مباغيهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم: (١٣٣٢) والحاكم في المستدرك (٤/ ٩٤) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم: (١٠٧١).

١٠٥ ـ باب المحاباة في الولاية

أخرجَ أحمدُ والحَاكِم وصححهُ عَنْ يَزيدَ بن أَبِي سُفيانَ رضي الله عنه أَنَّ أَبَا بَكرٍ رضي الله عنه قَالَ لَهُ: يَا يَزيدُ إنَّ لَكَ قَرابَةً فَهلْ عَسيت أَنْ تُؤْثِرهُمْ بالإِمَارَةِ وذَلكَ أَكْثَرُ مَا أَخَافُ عَلَيكَ بَعدَ مَا قَالَ رسولُ الله ﷺ: **«مَنْ وُلي مِنْ أَمْرِ المسلمينَ شَيئاً فَأَمَرَ أَحداً مُحَابَاةً فعليهِ لَعنةُ الله المَلائِكَةِ والنَّاسِ أجمَعِينَ، لاَ يَقبَلُ الله مِنهُ صرفاً وَلاَ عدلاً حَتَّى يدخلُهُ جَهَنَّمَ»**[1] [١].

وللحَاكِم وصَحَّحَهُ عَن ابنِ عبَّاسٍ مَرفوعاً: **«مَنِ استعملَ رَجلاً عَلى عِصابَةَ وفيهِمْ مَن هُوَ أَرضى لله مِنهُ فقَدْ خَانَ الله ورسولَه والمؤمِنينَ»**[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٦) والحاكم في المستدرك (٤/ ٩٣)، وقال صحيح الإسناد وتعقبه الذهبي بقوله: بكر بن خنيس قال عنه الدارقطني: متروك.
وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٣٢): وفيه رجل لم يسم.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٢) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع برقم: (٥٤٠١) والضعيفة برقم: (٤٥٤٥).

١٠٦ ـ باب الجور والظلم وخطر الولاية

أخرج الحاكِمُ وصححهُ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يكونُ عَلى شَيءٍ مِن أمورِ هَذِهِ الأمةِ فلمْ يعدلْ فيهم إلاَّ كبهُ الله في النَّارِ**»(١).

وَلهُمَا عَنْ مُعاذٍ رضي الله عنه مَرفوعاً: «**إتَّقِ دَعوةَ المظلومِ فإِنَّهُ لَيْسَ بينَها وبَين الله حِجَابٌ**»(٢) [١].

ولمسلم عَن عَدي بن عُمَيرةَ رضي الله عنه مرفوعاً: «**مَنِ استعملنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فكتمَ مِنهُ مخيطَاً فَمَا فوقَهُ كَانَ غُلولاً يَأْتِي بِهِ يَومَ القِيَامَةِ**»(٣) [٢].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين: (٨/ ٦١٥):

. . . «**واتق دعوة المظلوم**» يعني أنك إذا أخذت من نفائس أموالهم فإنك ظالم لهم، وربما يدعون عليك، فاتق دعوتهم، «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» تصعد إلى الله تعالى ويستجيبها.

[٢] قال الحافظ المناوي رحمه الله في فيض القدير (١١/ ٥٦٣٨):

«**من استعملناه منكم**» خطاب للمسلمين وخرج به الكافر. فاستعماله على شيء

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٠ ـ ٩١) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع برقم: (٥١٤٤) والروض النضير رقم: (٨٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٤٩٦) و(٢٤٤٨ و٤٣٤٧) وملم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٥٠) رقم: (١٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٤٦٥) رقم: (١٨٣٣).

ولأحمدَ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً: «**وَيلٌ للأمَرَاءِ، وَيلٌ لِلعُرَفَاء، ويلٌ للأمناء، لَيَتَمنَّيَنَّ أقوَامٌ يَومَ القِيَامَةِ أن ذوائبهم كانَتْ مُعلَّقةً بالثُّريا يَتذبذَبونَ بينَ السَّماءِ والأرضِ ولَمْ يَكُونُوا عُمِّلوا عَلى شيءٍ**»[1].

من أموال بيت المال ممنوع «**على عمل فكتمنا**» أي أخفى علينا «**مخيطاً**» بكسر الميم وسكون الخاء: إبرة ونصبه على أنه بدل من ضمير المتكلم بدل اشتمال أي كتم مخيطاً «**فما فوقه**» عطفاً على مخيطاً أي شيئاً يكون فوق الإبرة في الصغر «**كان ذلك غلولاً**» أي خيانة في فعله أو وباله يوم القيامة «**يأتي به**» أي بما غلّ «**يوم القيامة**» تفضيحاً وتعذيباً له وهذا مسوق لتحريض العمال على الأمانة وتحذيرهم من الخيانة ولو في تافه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٥٢) وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٣٣٥) رقم: (٤٤٨٣) والحاكم في المستدرك (٤/ ٩١) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في غاية المرام برقم: (١٧٣).

١٠٧ ـ بَابُ ولاية من لا يحسن العدل

عَنْ أَبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: **«يَا أَبَا ذَرٍّ إني أَرَاكَ ضَعيفاً وَإني أُحبُّ لَكَ مَا أُحبُّ لنفسي، لا تأَمَّرنَّ عَلى اثنينِ، وَلاَ تَولَّيَنَّ مَالَ يَتِيم»** رَواهُ مُسلمٌ[(١)] [١].

ولأَبي دَاودَ عن بُريدَةَ رضي الله عنه مَرفوعاً: **«القضاةُ ثَلاثةٌ واحدٌ في الجَنَّةِ،**

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٧/ ١٠ وما بعدها):

قول النبي ﷺ: **«إنك امرؤ ضعيف وإني أحب لك ما أحب لنفسي، فلا تأمرن على اثنين ولا تولين على مال يتيم»** هذه أربع جمل بيّن الرسول عليه الصلاة والسلام لأبي ذرّ فيها ما بيّن:

الأولى: قال له: **«إنك امرؤ ضعيف»**، وهذا القول إذا كان مصارحة أمام الإنسان فلا شك أنه ثقيل على النفس، وأنه قد يؤثر فيك أن يُقال لك: إنك امرؤ ضعيف، لكن الأمانة تقتضي هذا، أن يُصرح للإنسان بوصفه الذي هو عليه؛ إن قويّاً فقوي وإن ضعيفاً فضعيف.

هذا هو النصح: **«إنك امرؤ ضعيف»**. ولا حرج على الإنسان إذا قال لشخص مثلاً: إن فيك كذا وكذا، من باب النصيحة لا من باب السب والتعيير، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: **«إنك امرؤ ضعيف»**.

«الثانية»: قال: **«إني أحب لك ما أحب لنفسي»** وهذا من حسن خلق النبي عليه الصلاة والسلام، ولما كانت الجملة الأولى فيها شيء من الجرح قال: **«وإني أحب لك ما أحب لنفسي»** يعني لم أقل لك ذلك إلا إني أحب لك ما أحب لنفسي.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٤٥٧) رقم: (١٨٢٥).

واثنانِ في النَّارِ، فَأَمَّا الذي في الجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرفَ الحَقَّ فقضَى بِهِ، ورَجُلٌ عَرفَ الحقَّ فجَارَ في الحكْمِ فَهُوَ في النَّار، ورَجُلٌ قضى لِلنَّاسِ عَلى جَهْلٍ فَهُو في النَّارِ»(١) [١].

«الثالثة»: «**فلا تأمرنَّ على اثنين**»، يعني لا تكن أميراً على اثنين وما زاد فهو من باب أولى.

والمعنى أن النبي ﷺ نهاه أن يكون أميراً لأنه ضعيف، والإمارة تحتاج إلى إنسان قوي أمين، قوي بحيث تكون له سلطة وكلمة حادة؛ إذا قال فعل، لا يكون ضعيفاً أمام الناس، لأن الناس أذا استضعفوا الشخص لم يبق له حرمة عندهم، وتجرأ عليه لكع بن لكع، وصار الإنسان ليس بشيء، لكن إذا كان قوياً حادّاً في ذات الله لا يتجاوز حدود الله عزّ وجل، ولا يقصر عن السلطة التي جعلها الله له فهذا هو الأمير حقيقة.

الرابعة: «**ولا تولين مال يتيم**» واليتيم هو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ فنهاه الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتولى على مال اليتيم؛ لأن مال اليتيم يحتاج إلى عناية ويحتاج إلى رعاية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: الآية ١٠]، وأبو ذر ضعيف لا يستطيع أن يرعى هذا المال حق رعايته؛ فلهذا قال: «**ولا تولين مال يتيم**» يعني لا تكن وليّاً عليه دعه لغيرك.

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله من شرحه لمشكاة المصابيح (٨/ ٢٥٩٦):

قوله: «**ورجل عرف الحق**» قرينة لقوله: «**فأما الذي في الجنة**» وترك أداة التفضيل فيها ظاهراً، لئلا، يسلكها في مسلك واحد لبعد ما بينهما. وإنما قلنا ظاهراً: لأن التقدير: فأما الذي في النار فرجل كذا، نحو قوله تعالى: ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه**﴾ إلى قوله: ﴿**والراسخون في العلم يقولون**﴾ أي فأما الراسخون فيقولون، وهو من فصيح الكلام وبليغه، والفاء في قوله: «**فرحل**» جواب «**أما**» وفي «**فقضى**» مسبب عن عرق والسبب والمسبب صفة «**رجل**» والفاء في «**فجار**» مثلها في «**فقضى**» لكن على التعكيس، يعني عرفان الحق سبب لقضاء الحق، فعكس، وجعله

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم: (٣٥٧٣) والترمذي في سننه رقم: (١٣٢٢) وابن ماجه في سننه رقم: (٢٣١٥) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم: (٣٠٥١).

ولَهُ عَنْ أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «**مَنْ أَفْتَى فُتيا بِغَيْرِ عَلمٍ كَانَ إِثمُ ذلكَ عَلَى الَّذي أَفتَاهُ**»(1) [1].

مسبباً للجور كقوله تعالى: ﴿**وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**﴾ أي تجعلون شكر رزقكم التكذيب، وهو موجب للتصديق، وقوله: «**فهو من النار**» خبر «**رجل**» وهو جواب «**أما**» المقدرة على أن المبتدأ ذكره موصوفة، و«**على جهل**» حال من فاعل «قضى» أي قضى للناس جاهلاً.

[1] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه للمشكاة (٢/ ٦٩٦):

قوله: «من **أفتى**» قال الأشرف: يجوز أن يكون «**أفتى**» الثاني بمعنى استفتى، أي كان إثمه على من استفتاه، فإنه جعله في معرض الإفتاء بغير علم ويجوز أن يكون الأول مجهولاً، أي فإثم إفتائه على من أفتاه، أي بالإثم على المفتي دون المستفتي.

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه رقم: (٣٦٥٧) وابن ماجه في سننه رقم: (٨) وأحمد في المسند (٢/ ٣٢١، ٣٦٥) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود رقم: (٣١٠٥).

١٠٨ ـ باب الأمانة في البيع والشراء والكيل والوزن

وقول الله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٣].

عَنْ حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثنا رسولُ الله ﷺ بحديثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وأَنَا أَنتظرُ الآخر: حَدَّثَنا أَنَّ الأمَانَة نَزلَت في جَذرِ قلوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ نَزَلَ القُرآنُ فعلمُوا من القُرآنِ وعَلمُوا مِنَ السُّنَّة. ثُمَّ حَدثنا عَنْ رَفْع الأمانة فقال: **«يَنَامُ الرَّجُلُ النومَةَ فتقبض الأمانَةُ من قلبهِ فيظَلُّ أثرها مِثلَ أَثر الوكتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّومَةَ فتقبضُ الأمانةُ من قَلبِه فيظلُّ أَثَرُهَا مِثلَ أَثَر المَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ على رجلك فنفَط فتراهُ مُنتبراً وليسَ فيه شيء، ثُمَّ أَخَذَ حَصاةً فدحرجَهَا على رجله، فيصبح النَّاسُ يتبايعونَ فَلا يَكادُ أحدهُمْ يُؤدِّي الأمانَة حَتَّى يُقالَ إنَّ في بَني فُلانٍ رجُلاً أميناً، وحتَّى يقالَ للرجُلِ مَا أجلدَهُ ما أظرفهُ مَا أعقَلَهُ، وَمَا في قَلْبهِ مِثقالُ حَبَّةِ خردلٍ مِنْ إيمان»**. وَلَقَدْ أَتَى عَليَّ زَمانٌ وَمَا أبَالِي أيكُمْ بَايَعْتُ لئنْ كَانَ مُسلماً ليردَّنُه عليَّ دينُه وإنْ كَانَ نصرانياً أو يهودياً ليردَّنَهُ عَليَّ سَاعِيهِ، وأمَّا اليَوْم فَمَا كُنتُ أُبايعُ مِنكُمْ إلاَّ فُلاناً وَفُلاناً(١) [١].

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٣/ ٤٩):

قوله: «ثم علموا القرآن ثم علموا السنة» فيه إشارة إلى أنهم كانوا يتعلمون القرآن قبل أن يتعلموا السنن والمراد ما يتلقونه عن النبي ﷺ واجباً كان أو مندوباً.

قوله: «وحدثنا عن رفعها» هذا الحديث الثاني الذي ذكر حذيفة أنه ينتظره وهو

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٤٩٧ و٧٠٨٦ و٧٢٧٦) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ١٢٦) رقم: (٢٣٠).

الجَذْرُ: الأصلُ، وَالوَكْتُ الأثرُ اليسيرُ، والمجْلُ: نفطٌ يَسيرٌ مِنْ أَثَرِ عملٍ، ومنتبراً: مُرتفعاً، ساعيه: الوالي عليه.

رفع الأمانة أصلاً حتى لا يبقى من يوصف بالأمانة إلا النادر، ولا يعكر على ذلك ما ذكره في آخر الحديث مما يدل على قلة من ينسب للأمانة إن ذلك بالنسبة إلى حال الأولين، فالذين أشار إليهم بقولهم: «ما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً» هم من أهل العصر الأخير الذي أدركه والأمانة فيهم بالنسبة إلى العصر الأول أقل، وأما الذي ينتظره فإنه حيث تفقد الأمانة من الجميع إلا النادر.

قوله: **«فيظل أثرها»** أي يصير وأصل **«ظل»** ما عمل بالنهار ثم أطلق على كل وقت... والمعنى أن الأمانة تذهب حتى لا تبقى منها إلا الأثر الموصوف من الحديث.

قوله: **«مثل أثر الوكت»** هو سواد من اللون، والمجل أثر الحمل في اليد.

قوله: **«فنفط»** أي صار منتفطاً وهو المنتبر، يقال: انتبر الجرح وانتفط إذا ورم وامتلأ ماء، وحاصل الخبر أنه إنذار برفع الأمانة وإن الموصوف بالأمانة يسلبها حتى يصير خائناً بعد أن كان أميناً، وهذا إنما يقع على ما هو شاهد لمن خالط أهل الخيانة فإنه يصير خائناً لأن القرين يقتدي بقرينة.

قوله: «ولقد أتى علي زمان... الخ» يشير إلى أن حال الأمانة أخذ من النقص من ذلك الزمان، وكانت وفاة حذيفة في أول سنة ست وثلاثين بعد قتل عثمان بقليل، فأدرك بعض الزمن الذي وقع فيه التغير فأشار إليه. قال ابن التين: الأمانة كل ما يخفى ولا يعلمه إلا الله من المكلف، وعن ابن عباس: هي الفرائض التي أمروا بها ونهوا عنها، وقيل: هي الطاعة، وقيل: التكاليف، وقيل: العهد الذي أخذه الله على العباد... وقال ابن العربي: المراد بالأمانة في حديث حذيفة الإيمان، وتحقيق ذلك فيما ذكر من رفعها: أن الأعمال السيئة لا تزال تضعف الإيمان، حتى إذا تناهى الضعف لم يبق إلا أثر الإيمان، وهو التلفظ باللسان والاعتقاد الضعيف في ظاهر القلب، فسبب الأثر في ظاهر البدن، وكنى عن ضعف الإيمان بالنوم، وضرب مثلاً لزهوق الإيمان عن القلب حالاً بزهوق الحجر على الرجل حتى يقع بالأرض.

وَلمسلم في حَديثِ الشفَاعَةِ: «**وَتُرْسلُ الأمانَةُ والرحِمْ فيقُومَانِ بِجَنَّتي الصِّراطِ يَميناً وشَمَالاً**»[1] [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

«**جنبتا الصراط**»: معناها: جانباه. وأما إرسال الأمانة والرحم فهو لعظم أمرها وكثير موقعهما، فتصوران مشخصتين على الصفة التي يريدها الله تعالى. قال صاحب التحرير: في الكلام اختصار، والسامع فهم أنهما تقومان لتطالب كل من يريد الجواز بحقهما.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/١٨٦) رقم (١٩٥).

١٠٩ ـ باب قوله كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته

وقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ الآية [التحريم: الآية ٦] [١].

عن ابن عمرَ ـ رضي الله عنهما ـ قالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «**كُلُّكُمْ راعٍ وَكُلُّكُمْ مسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتهِ، فالإمامُ رَاعٍ ومسؤُولٌ عَن رَعِيَّتهِ، والخَادِمَ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ**

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٢١٦):

أي: يا من مَنَّ الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

فـ﴿**قوا أنفسكم وأهليكم ناراً**﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، امتثالاً، ونهيه اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله، ويوجب العذاب.

ووقاية الأهل الأولاد، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله.

فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيمن تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿**وقودها الناس والحجارة**﴾ كما قال تعالى: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾.

﴿**عليها ملائكة غلاظ شداد**﴾، أي: غليظة أخلاقهم، شديد انتصارهم يفزعون بأصواتهم ويزعجون بمرآهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، وينفذون فيهم أمر الله، الذي حتَّم عليهم بالعذاب، وأوجب عليهم شدة العقاب.

﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ وهذا فيه أيضاً مدحٌ للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

ومسؤولٌ عَن رَعيته، فكلكُمْ رَاعٍ وكلُّكُمْ مَسؤولٌ عَنْ رعيته» متفقٌ عليه[1] [٢].

---

[٢] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (٥/ ١٧٢):

قول النبي ﷺ: **«كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»**.

الخطاب للأمة حميعاً يبين فيه الرسول ﷺ أن كل إنسان راعٍ ومسؤول عن رعيته. والراعي هو الذي يقوم على الشيء ويرعى مصالحه فيهيئها له، ويرعى مفاسده فيجنبه إياها، كراعي الغنم ينظر ويبحث عن المكان المربع حتى يذهب بالغنم إليه، وينظر في المكان المجدب فلا يتركها في هذا المكان.

هكذا بنو آدم كل إنسان راع، وكلٌّ مسؤول عن رعيته، فالأمير راع ومسؤول عن رعيته. والأمراء يختلفون في نفوذهم وفي مناطق أعمالهم، قد يكون هذا الأمير أميراً على قرية صغيرة، فتكون مسؤوليته صغيرة، وقد يكون أميراً على مدينة كبيرة فتكون مسؤوليته كبيرة، وقد يكون مسؤولاً عن أمة كالأمير الذي ليس فوقه أمير في منطقته، كالملك مثلاً هنا، وكالرؤساء في البلاد الأخرى، وكأمراء المؤمنين في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وكالخلفاء في زمن بني أمية وبني العباس وغيرهم.

المهم أن الرعاة تتنوع رعيتهم أو تتنوع رعايتهم ما بين مسؤولية كبيرة واسعة، ومسؤولية صغيرة، ولهذا قال: **«الأمير راعٍ»** يعني هو مسؤول عن رعيته، **«الرجل راع»** لكن رعيته محصورة؛ هو راع في أهل بيته، في زوجته، في ابنه، في بنته، في أخته، في عمته، في خالته، كل من في بيته، هو راع في أهل بيته ومسؤول عن رعيته، يجب عليه أن يرعاهم أحسن رعاية؛ لأنه مسؤول عنهم.

كذلك المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، يجب عليها أن تنصح في البيت في الطبخ، في القهوة، في الشاي، في الفرش، لا تطبخ أكثر من اللازم، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧١٣٨) ومسلم في صحيحه (٣/ ١٤٥٩) رقم (١٨٢٩).

. . . .

تسوي الشاي أكثر مما يحتاج إليه؛ يجب عليها أن تكون أمرأةً مقتصدة؛ فإن الاقتصاد نصف المعيشة، غير مفرطة فيما ينبغي.

مسؤوله أيضاً عن أولادهم في إصلاحهم وإصلاح أحوالهم وشؤونهم، كإلباسهم الثياب، وخلعهم الثياب غير النظيفة، وتغيير فراشهم الذي ينامون عليه، وتغطيتهم في الشتاء وهكذا مسؤولة عن كل هذا، مسؤوله عن الطبخ وإحسانه ونضجه، وهكذا مسؤولة عن كل ما في البيت.

كذلك العبد مسؤول وراع في مال سيده، ومسؤول عن رعيته، يجب عليه أن يحفظ مال سيده، وأن يتصرف فيه بما هو أحسن، وألا يفرط فيه، وألا يتعدى الحدود وهكذا، فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته.

١١٠ ـ باب الرفق بالمملوك

عن أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ أنهُ ضَربَ عبداً لهُ فقالَ النبيُّ ﷺ: **«إعلمْ أبَا مسعودٍ أنَّ الله أقدرُ عليكَ مِنكَ على هَذا الغُلام»** ـ قلتُ: هُوَ حُرٌّ لوجهِ الله تعالى، فقالَ: **«أَمَا إنَّكَ لَو لم تفعلْ للفحَتك النَّارُ ـ أو لمَّستكَ النَّارُ»**[(١)] [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:
في الحديث الحث على الرفق بالمملوك والوعظ والتنبيه على استعمال العفو، وكظم الغيظ، والحكم كما يحكم الله على عباده.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٢٨٠) رقم: (١٦٥٩).

١١١ ـ باب الرفق بالبهائم

عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رَسولَ ﷺ رأَى حِمَاراً قد وُسِمَ في وَجهِهِ فأَنكَرَ ذلكَ. وفي رواية: «**لَعَن الله الذي وسَمَه**» وفي رواية: «**نهى عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه**» رَواهُ مسلم(١) [١].

ولهُمَا عَنْ أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «**دَخَلتِ امرأةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ رَبطتْهَا فَلاَ هِيَ أطعمتْهَا وَلاَ هِيَ أرسلتْهَا تَأكُلُ مِن خَشخاشِ الأَرضِ حَتَّى مَاتَتْ**»(٢) [٢].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قال أهل اللغة: الوسم أثر كية. يقال: بعير موسوم وقد وسمه يسمه وسماً وسمة، والميسم الشيء الذي يوسم به. وهو بكسر الميم وفتح السين وجمعه مياسم ومواسم، وأصله كله من السمة وهي العلامة، وعليه سمة الخير. أي علامته، وتوسمت فيه كذا أي رأيت فيه علامته والله أعلم. وأما الوسم من الوجه فنهى عن بالإجماع للحديث. . لأن النبي ﷺ لعن فاعله. واللعن يقتضي التحريم.

[٢] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٦/ ٤٤٠):

قوله «**في هرة**» أي بسبب هرة، والهرة أنثى السنور والهر الذكر، قوله: «**من خشاش الأرض**» المراد هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها بالحبس، قال عياض: يحتمل أن تكون المرأة كافرة فعذبت بالنار حقيقة، أو بالحساب لأن من نوقش الحساب عذب. ثم يحتمل أن تكون المرأة كافرة فعذبت بكفرها وزيدت عذاباً بسبب ذلك، أو مسلمة وعذبت بسبب ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه(٣/ ١٦٧٣) رقم: (٢١١٧ و٢١١٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: ((٣٣١٨) ومسلم في صحيحه كتاب التوبة (٤/ ٢٠٢٣) رقم: (٢٦١٩).

ولمسلم عَن ابن عَمر ـ رضي الله عنهما ـ مَرفوعاً: «**كَفَى بالمرءِ إثماً أنْ يَحبسَ عَمَّنْ يَملِكُ قُوتَهُ**»(١) ولأبي داود: «**أن يضيِّع مَنْ يقوتُ**»(٢) [١].

ولهُمَا عَنِ الحَسنِ أنَّهُ قالَ لصاحبِ الجَمَل الذي لَمْ يعلفْهُ: «**أمَّا إنَّهُ ليحَاجُّكَ يَوْمَ القيامَةِ**»(٣).

---

[١] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير: (٨/ ٤٤٣٢):

«**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت**» أي من يلزمه قوته، قال الزمخشري: فإنه يقوته إذا أطعمه قوتاً ورجل مقوت ومقيت وأقات عليه أقاته فهو مقيت إذا حافظ عليه وهيمن، ومنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: الآية ٨٥] . . . وهذا صريح في وجوب نفقة من يقوت لتعليقه الإثم على تركه لكن إنما يتصور ذلك في موسر لا معسر فعلى القادر السعي على عياله لئلا يضيعهم فمع الخوف على ضياعهم هو مضطر إلى الطلب لهم لكن لا يطلب لهم إلا قدر الكفاية لأن الدنيا بغيضة لله وسؤال أوساخ الناس قروح وخموش يوم القيامة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة (٢/ ٦٩٢) رقم: (٩٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (١٦٩٢) والإمام أحمد في المسند (٢/ ١٩٣ و١٩٥).

(٣) لم أجده في الصحيحين، وإنما أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٢٥٤٩) وأحمد في المسند (١/ ١٢٤) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم: (٢٢٢٢).

١١٢ ـ باب إباق العبد

عَنْ جَريرِ بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «**أَيُّمَا عَبدٍ أبَقَ فَقدْ برئَتْ منهُ الذمة**» رواهُ مسلم(١) [١].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله ﷺ: «**فقد برئت منه الذمة**» فمعناه لا ذمة له.

وقوله ﷺ: «**إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة**» فقد أوله الإمام المازري وتابعه القاضي عياض رحمهما الله على أن ذلك محمول على المستحل للإباق فيكفر ولا تقبل به صلاة لا غيرها ونبه بالصلاة على غيرها، وأنكر الشيخ أبو عمرو هذا وقال: بل ذلك جار في غير المستحل ولا يلزم من عدم قبول عدم الصحة، فصلاة الآبق صحيحة غير مقبولة فعدم قبولها لهذا الحديث ذلك لاقترانها بمعصية وأما صحتها فلوجود شروطها وأركانها المستلزمة صحتها ولا تناقض في ذلك ويظهر أثر عدم القبول في سقوط الثواب وأثر الصحة في سقوط القضاء وفي أنه لا يعاقب عقوبة تارك الصلاة. هذا آخر كلام الشيخ أبي عمرو رحمه الله وهو ظاهر لا شك في حسنه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٨٣) رقم: (٦٩).

١١٣ ـ باب ظلم الأجير

عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ مَرفُوعاً: «**قال الله تَعالى: ثَلاثةٌ أَنَا خَصْمهُمْ يَومَ القيامَةِ ومَنْ كُنتُ خصمه خَصَمْتُهُ رَجُلٌ أعطى بي ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ بَاعَ حُراً فأَكَلَ ثَمنَهُ، ورَجُلٌ إستأْجَرَ أجيراً فَاستوفَى مِنهُ وَلَمْ يُؤْتِهِ أُجرتَهُ**» رواهُ البخاريُّ(١) [١].

---

[١] قال الإمام ابن حجر رحمه الله (٤/ ٥٢٦ فتح):

قال ابن التين: هو سبحانه وتعالى خصم لجميع الظالمين إلا أنه أراد التشديد على هؤلاء بالتصريح والخصم يطلق على الواحد وعلى الاثنين وعلى أكثر من ذلك.

قوله: «**أعطى بي ثم غدر**» التقدير أعطى بيمينه بي أي عاهد عهداً وحلف عليه بالله ثم نقضه.

قوله: «**باع حراً فأكل ثمنه**» معنى الأكل بالذكر لأنه أعظم مقصود... قال الخطابي: اعتبار الحر يقع بأمرين: أن يعتقه ثم يكتم، أو يجحد، والثاني أن يستخدمه كرهاً بعد العتق. والأول أشدهما. قلت: وحديث الباب أشد لأن منع مع كتم العتق أو جحده العمل، بمقتضى ذلك من البيع وأكل الثمن فمن ثم كان الوعيد عليه أشد، قال المهلب: وإنما كان إثمه شديداً لأن المسلمين أكفاء في الحرية. فمن باع حرّاً فقد منعه التصرف فيما أباح الله له والتزمه الذل الذي أنقذه الله منه.

قوله: «**ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره**» هو ففي معنى من باع حرّاً وأكل ثمنه لأنه استوفى منفعته بغير عوض وكأنه أكلها ولأنه استخدمه بغير أجرة، وكان استعبده.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٢٢٧ و٢٢٧٠).

. . . .

وقال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (٨/ ٤٢٧٦):

قال الله تعالى: **«قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة»** الخصم مصدر خصمته أخصمه نعت به للمبالغة كعدل وصوم **«رجل أعطى بي ثم غدر»** بحذف المفعول أي أعطى يمينه بي أي عاهد عهداً وحلف عليه ثم نقضه. **«ورجل باع حراً فأكل ثمنه»** خص بالأكل لأنه أعظم مقصود **«ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه»** ما استأجر لأجله في العمل **«ولم يعطى أجره»** لأنه استوفى منفعته بغير عوض واستخدمه بغير أجرة فكأنه استعبده.

١١٤ ـ باب سؤال المرأة الطلاق

أخرجَ الترمذيُّ وابنُ حبَّانَ في صحيحهِ عَنْ ثَوْبَانَ مَرفوعاً: **«أيُمَا امرأةٍ سَألَتْ زوجَهَا الطلاَقَ مِن غيرِ مَا بَأسٍ فَحَرامٌ عَليهَا رَائحةُ الجَنَّةِ»**(١) [١].

---

[١] قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرحه لمشكاة المصابيح (٧/ ٢٣٤٢):

قوله: **«في غير ما بأس»** قال القاضي ناصر الدين: البأس الشدة و«ما» مزيدة، أي في غير حال شدة تدعوها وتلجئها إلى المفارقة. وقوله: **«فحرم عليها»** أي فممنوع عنها لا تجد رائحة الجنة أول ما يجدها المحسنون، لا أنها لا تجد أصلاً، وهذا من المبالغة في التهديد، ونظير هذا كثير.

وقال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير: (٥/ ٢٤٦٩):

«أيما امرأة سألت زوجها الطلاق» في رواية طلاقها **«من غير ما بأس»** بزيادة ما للتأكيد واليأس والشدة أي من غير حالة شدة تدعوها وتلجئها إلى المفارقة كأن تخاف ألا تقيم حدود الله فيما يجب عليها من حسن الصحبة وجميل العشرة، لكراهتها له أو بأن يضارها لتختلع منه **«فحرام عليها»** أي ممنوع عنها **«رائحة الجنة»** وأول ما يجد ريحها المحسنون المتقون لا أنها لا تجد ريحها أصلاً فهو لمزيد المبالغة في التهديد، وكم له من نظير. وقال ابن حجر: الأخبار الواردة في ترغيب المرأة من طلب طلاق زوجها محمولة على ما إذا لم يكن سبب يقتضي ذلك كحديث ثوبان هذا.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٢٢٢٦) والترمذي في سننه برقم: (١١٨٧) وابن ماجه في سننه برقم: (٢٠٥٥) وأحمد في المسند (٥/ ٢٧٧، ٢٨٣) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم: (١٩٤٧).

١١٥ ـ باب ما جاء في الديوث

عَن ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ مَرفُوعاً: **«ثَلاثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: العَاقُّ لوَالِدَيْهِ، والدَّيُوثُ وَرَجُلَةُ النِّسَاءِ»**. رَواهُ في المستدرَكَ ـ والطبَرانِي بسندٍ قَالَ المنذرِيُّ لاَ أَعْلَمُ فيهِ مَجروحاً قَريباً مِنْهُ وفيهِ: فَمَا الدَّيُّوثُ؟ قَالَ: **«الَّذِي لاَ يُبَالِي بِمَنْ دَخَلَ عَلَى أَهْلِهِ»** قِيْلَ فَمَا الرَّجُلة قَالَ: **«الَّتِي تَتَشبَهُ بالرِّجَالِ»**(1) [١].

---

[١] قال المناوي رحمه الله في فيض القدير: (٦/ ٢٨٣١):

«ثلاثة لا يدخلون الجنة» بالمعنى لمقرر فيما قبله **«العاق لوالديه»** إن عليا **«والديوث»** فيعول، من ديثت البعير: إذا دللته ولينته بالرياضة فكان الديوث ذلل -تى رأى المنكر بأهله فلا يغيره **«ورجلة النساء»** أي المتشبهة بالرجال في الزي والهيئة لا في الرأي والعلم فإنه محمود.

وقال الذهبي: فيه أن هذه الثلاثة من الكبائر قال: فمن كان يظن بأهله الفاحشة ويتغافل لمحبته فيها فهو دون من يعرس عليها، ولا خير فيمن لا غيرة فيه، والقوادة التي لا تزال بالحرة حتى تصيرها بغيّاً عليها وزران.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه برقم: (٢٥٦١) وأحمد في المسند (٦٩١٢، ١٢٨) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم: (١٣٩٧).

١١٦ ـ باب ظلم المرأة

أخرَجَ الطَّبرانِيُّ بسنَدٍ رِجَالُهُ ثِقاتٌ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ تَزوَّجَ امرأَةً عَلى ما قل مِنَ المهرِ أَوْ كَثُرَ، وليسَ في نِفسِهِ أَن يُؤَدي إليهَا حَقهَا خَدعَهَا فَمَاتَ وَلَمْ يُؤَدِّ إليهَا حَقَّهَا لقيَ الله يومَ القيامَةِ وَهوَ زَانٍ بها**»[١].

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٨/ ٤٠) رقم: (٧٣٠٢) وقال شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع رقم: (٢٢٣٥): ضعيف جداً.

١١٧ ـ باب الإشارة بالسلاح على وجه اللعب

عَن أبي هريرةَ مرفوعاً: «لاَ يُشيرَنَّ أحدكُمْ إلى أَخيهِ بالسلاَحِ فَأَنَّهُ لاَ يدري لعلَّ الشَّيطانَ يَنزعُ في يَدِهِ فيقَعُ في حُفرَةٍ مِنَ النَّارِ» أخرجاه(١) [١].

ولمسلم: «مَنْ أشارَ إلى أخيهِ بحديدَةٍ فإنَّ الملائكَةَ تَلعَنُهُ حَتَّى يَردَّهَا وإنْ كَانَ أَخَاهُ مِن أبيهِ وأُمِّهِ»(٢) [٢].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله ﷺ: **«لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزع في يده»**... وهو نهي بلفظ الخبر كقوله تعالى: **﴿ولا تضار والدة﴾** وقد قدمنا مرات أن هذا أبلغ من لفظ النهي، و**«لعل الشيطان ينزع»**... معناه: يرمي في يده ويحقق ضربته ورميته، وروي في غير مسلم: بالغين المعجمة، وهو بمعنى الأعزاء، أني: يحمل على تحقيق الضرب به ويزين ذلك.

[٢] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله ﷺ: **«من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه»** فيه تأكيد حرمة المسلم والنهي الشديد عن ترويعه، وتخويفه، والتعرض له بما قد يؤذيه وقوله ﷺ: وإن كان أخاه لأبيه وأمه مبالغة في إيضاح عموم النهي في كل أحد سواء من يتهم فيه، ومن لا يتهم، وسواء كان هذا هزلاً ولعباً، أم لا، لأن ترويع المسلم حرام بكل حال، ولأنه قد يسبقه السلاح كما صرح به في الرواية الأخرى:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧٠٧٢) ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٤/ ٢٠٢٠) رقم: (٢٦١٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٤/ ٢٠٢٠) رقم: (٢٦١٦).

وللترمذيِّ وحَسَّنَهُ عنْ جابر رضي الله عنه: «**نَهَى رَسولُ الله ﷺ عَنْ تَعاطِي السيفِ مسلولاً**»[1]

وفي المسنِد عَن أبي بَكْرَةَ أنَّ النَّبي ﷺ مَرَّ عَلى قوم يَتعاطُونَ السَّيفَ مَسلولاً فقالَ: «**لَعن الله مَن فَعل هذا أو لَيسَ قد نَهيتُ عنه؟**» ثُمَّ قَالَ: «**إذَا سَلَّ أحَدكُمْ سَيفَهُ فَنظرَ إليهِ ثُمَّ أرَادَ أنْ يُنَاوِلَهُ أَخَاهُ فليغمِدهُ ثُمَّ يُناوِلْهُ إيَّاهُ**»[2] [١].

ولعن الملائكة له يدل على أنه حرام.

وقوله ﷺ: «**فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان**». هكذا في عامة النسخ وفيه محذوف، وتقديره حتى يدعه. وكذا وقع في بعض النسخ.

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (٢/ ٧٣٣، ٧٣٤):

«**إذا سلّ**» بالتشديد «**أخيكم**» أيها المؤمنون «**سيفاً**» أي انتزعه من غمده «**لينظر إليه**» أي لأجل أن ينظر إليه لشراء أو نحو تعهد، ومثل السيف ما في معناه كخنجر وسكين «**فإذا أراد أن يناوله أخاه**» المسلم لينظر إليه الآخر مثلاً، وذكر الأخ غالباً، فالذمي كذلك «**فليغمده**» ندباً: أي يدخله في قرابه قبل مناولته إياه، والعمد بالكسر جفر السيف، وإغماده إدخاله فيه وذكر النظر تمثيل وتصوير، فلو سلّه لا لغرض فالحكم كذلك «**ثم يناوله إياه**» ليأمن من إصابة ذبابه له، وتباعداً عن صورة الإشارة به إلى أخيه التي ورد التهديد البليغ عليها، والمناولة الإعطاء.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٢٥٨٨) والترمذي في سننه برقم: (٢١٦٣) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم: (٢٢٥٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٢) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٩٠) والطبراني في الكبير (٢/ ١١٩٠) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١/ ٦٠٤) والمشكاة (٣٥٢٧).

١١٨ ـ باب العصبية

عن جُندبُ بْن عبدِ الله ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**مَنْ قُتِلَ تحتَ رَايةَ عَميةٍ يدعو عصبيَّةً أو يَنصرُ عصبيَّةً فَقتْلتُهُ جَاهليةٌ**» رواه مسلم[(١)] [١].

ولأبي داودَ بسندٍ جَيدٍ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً وموقوفاً: «**فَمَن نَصر قَومَهُ علَى غيرِ الحَقِّ فَهُوَ كَالبعيرِ الذي تردّى في بِئرٍ فَهُوَ يُنزعُ بِذنبِهِ**»[(٢)] [٢].

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم:

قوله ﷺ «**من قاتل تحت راية عمية**» هي بضم العين وكسرها لغتان مشهورتان، والميم مكسورة مشددة والياء مشددة أيضاً، قالوا: هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور. قال إسحاق بن راهويه هذا كتقاتل القوم للعصبية، قوله ﷺ: «**يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة**» معناها: أنه يقاتل لشهوة نفسه وغضبه لها.

[٢] قال العظيم آبادي رحمه الله في عون المعبود (١٤/ ١٧):

«**من نصر قومه على غير الحق**» أي على باطل أو مشكوك «**فهو كالبعير الذي ردي**» بضم الراء وكسر الدال المشددة وفتح الياء أي تردى وسقط في البئر «**فهو**» أي البعير المتردي «**ينزع**» بصيغة المجهول أي يخرج ويرفع «**بذنبه**» أي يجر من ورائه.

قال الخطابي: معناه أنه قد وقع في الإثم وهلك كالبعير إذا تردى في بئر فصار ينزع بذنبه ولا يقدر على الخلاص.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٤٧٨) رقم: (١٨٥٠).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٥١١٧) موقوفاً. والإمام أحمد في مسنده (١/ ٣٩٣، ٤٤٩) مرفوعاً. وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم: (٤٢٧٠) وفي المشكاة برقم: (٤٩٠٤/ التحقيق الثاني).

١١٩ ـ باب من آوى محدثاً

عَن عَلي ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: حَدَّثَني رَسولُ الله ﷺ بأربَع كَلماتٍ «**لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لِغير الله، لَعَنَ الله مَنْ لَعَنَ والدَيْهِ، لَعَنَ الله مَنْ آوى مُحدِثاً، لَعَنَ الله مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأرضِ**» رَواه مسلم(١) [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لكتاب التوحيد (ص ٢١٤ وما بعدها):

قوله: «**لعن الله**»، اللعن من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فإذا قيل: لعنه الله؛ فالمعنى: طرده وأبعده عن رحمته، وإذا قيل: اللهم العن فلاناً؛ فالمعنى أبعده عن رحمتك واطرده عنها.

قوله: «**مَن ذبح لغير الله**»، عام يشمل من ذبح بعيراً، أو بقرةٍ، أو دجاجةً، أو غيرها.

قوله: «**لغير الله**»، يشمل كل مَن سوى الله حتى لو ذبح لنبي، أو ملك، أو جنّي، أو غيرهم.

وقوله: «**لعن**» يحتمل أن يكون الجملة خبرية، وأنَّ الرسول ﷺ يخبر أنَّ الله لعن من ذبح لغير الله، ويحتمل أن تكون إنشائية بلفظ الخبر؛ أي: اللهم العن من ذبح لغير الله، والخبر أبلغ؛ لأنَّ الدعاء قد يُستجاب.

قوله: «**والديه**»، يشمل الأب والأم، ومن فوقهما؛ لأنَّ الجد أب، كما أنَّ أولاد الابن والبنت أبناء في وجوب الاحترام لأصولهم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأضاحي (٣/ ١٥٦٧) رقم: (١٩٧٨).

. . . .

والمسألة هنا ليست مالية، بل هي من الحقوق، ولعن الأدنى أشد من لعن الأعلى؛ لأنّه أولى بالبر، ولعنه ينافي البر.

قوله: **«من لعن والديه»**، أي: سبّهما وشتمهما؛ فاللعن من الإنسان السب والشتم، فإذا سببت إنساناً أو شتمته؛ فهذا لعنه لأنَّ النبي ﷺ قيل له: كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: **«يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»**[١].

وأخذ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة، وهي: أنَّ السبب بمنزله المباشرة في الإثم؛ وإن كان يخالفه في الضمان على تفصيلٍ في ذلك عند أهل العلم.

قوله: **«من آوى محدثاً»**، أي: ضمّه إليه وحماه، والإحداث: يشمل الإحداث في الدين؛ كالبدع التي أحدثها الجهمية والمعتزلة، وغيرهم.

والإحداث في الأمر: أي في شؤون الأمة؛ كالجرائم وشبهها، فمن آوى محدثاً؛ فهو ملعون، وكذا من ناصرهم؛ لأن الإيواء أن تأويه لكف الأذى عنه، فمن ناصره؛ فهو أشد وأعظم.

والمحدث أشد منه؛ لأنّه إذا كان إيواؤه سبباً للعنة، فإن نفس فعله جرم أعظم.

ففيه التحذير من البدع والإحداث في الدين، قال النبي ﷺ: **«إيّاكم ومُحدثات الأُمور؛ فإنَّ كل بدعة ضلالة»**[٢]، وظاهر الحديث: ولو كان أمراً يسيراً.

قوله: **«منار الأرض»**، أي: علاماتها ومراسيمها التي تُحدد بين الجيران، فمن غيّرها ظلماً؛ فهو ملعون، وما أكثر الذين يُغَيِّرون منار الأرض، لا سيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أنَّ الرسول ﷺ يقول: **«مَن اقتطع شبراً من الأرض ظُلماً؛ طوّقه من**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب/باب لا يسب الرجل والديه حديث رقم (٥٦٢٨)، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر حديث رقم (٢٥٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٢٦/٤) وأبو داود في سننه (١٣/٥) والترمذي في سننه برقم (٢٦٧٨) وهو في صحيح سنن أبي داود برقم (٣٨٥١).

. . . .

سبع أرضين»[1]؛ فالأمر عظيم، مع أنَّ هذا الذي يقتطع من الأرض ويُغيِّر المنار، ويأخذ ما لا يستحق لا يَدري: قد يستفيد منها في دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يُسلَّط عليه آفةٌ تأخذ ما أخذ.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المظالم/باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض حديث رقم (٢٤٥٣) ومسلم في صحيحه كتاب المساقاة/باب تحريم الظلم وغصب الأرض حديث رقم (٤١١٣).

كتاب المظالم

١٢٠ ـ باب ظلم اليتيم

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النّساء: الآية ١٠] [١].

ولهما عن أبي هُريرةَ مرفوعاً: «**اجْتنبُوا السَّبعَ الموبِقَاتِ**» قالوا وَمَا هنَّ يَا رَسولَ الله؟ قَالَ: «**الشِّركُ بالله والسِّحْرُ، وقَتْل النَّفس التي حَرَّمَ الله إلاَّ بالحق، وَأَكْلُ**

---

[١] قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره (٣/ ٦١٥):

﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ يقول: بغير حق **﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾** يوم القيامة بأكلهم أموال اليتامى ظلماً في الدنيا، نار جهنم **﴿وسيصلون﴾** بأكلهم **﴿سعيراً﴾** وهو شدة حرّ جهنم.

وقال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١٨٨):

﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ أي بغير حق، وهذا القيد يخرج به ما تقدم من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى، فمن أكلها ظلماً فإنما **﴿يأكلون في بطونهم ناراً﴾** أي فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم وهم الذين أدخلوه في بطونهم **﴿وسيصلون سعيراً﴾** أي: ناراً محرقة متوقدة، وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر. نسأل الله العافية.

الربا، وأَكْلُ مَالِ اليتيمِ، وَالتولِّي يَومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المحصَنَاتِ الغَافِلاَتِ المُؤْمِنَاتِ»[(1)] [1].

---

[1] تقدم شرحه في الباب رقم (٤٩).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٧٦٦ و٦٨٥٧) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٩٢) رقم: (٨٩).

١٢١ ـ باب غصب الأرض

عَنْ سعيدِ بن زيد ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: **«مَن اقتَطَعَ شِبراً مِنَ الأرض ظُلماً طَوقَهُ الله إيَّاهُ يَومَ القيامَةِ مِنْ سَبعِ أرضين»** أخرجاه[1] [١].

---

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين: (/ ٦٠٩ وما بعدها):

قول النبي ﷺ: **«من ظَلَمَ من الأرض قيد شبر طوَّقه يوم القيامة من سبع أرضين»** هذا الحديث يتناول نوعاً من أنواع الظلم في الأراضي. وظلم الأراضي من أكبر الكبائر، لأن النبي ﷺ **«لعن من غير منار الأرض»**[2]. قال العلماء: منار الأرض حدودها، لأنه مأخوذ من «المنور» وهو العلامة، فإذا غير الإنسان من هذه الأرض، بأن أدخل شيئاً من هذه الأرض إلى أرض غيره، فإنه ملعون على لسان النبي ﷺ. **واللعنة**: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وثمةَ عقوبة أخرى، وهو ما ذكره في هذا الحديث؛ أنه إذا ظلم قَيْد شبر طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين، لأن الأرضين سبع، كما جاءت به السنة صريحاً، وكما ذكره الله تعالى في القرآن إشارة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: الآية ١٢] ومعلوم أن المماثلة ها هنا ليست في الكيفية، لأن بين السماء والأرض من الفرق كما بينهما من المسافة، السماء أكبر بكثير من الأرض، وأوسع، وأعظم. قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذَّاريَات: الآية ٤٧] الآية. أي بقوة، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النَّبَإِ: الآية ١٢] أي قوية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٤٥٢، ٣١٩٨) ومسلم في صحيحه كتاب المساقاة (٣/ ١٢٣٠) رقم: (١٦١٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٩٧٨) كتاب الأضاحي.

. . . .

فالإنسان إذا ظلم قيد شبر من الأرض فإنه يطوق من سبع أرضين يوم القيامة، أي يجعل له طوقاً في عنقه والعياذ بالله، يحمله أمام الناس أمام العالم، يخزى به يوم القيامة. وقوله: «**قيد شبر من الأرض**» ليس هذا على سبيل القيد، بل هو على سبيل المبالغة يعني، فإن ظلم ما دونه طُوِّقه أيضاً، لكن العرب يذكرون مثل هذا للمبالغة، يعني ولو كان شيئاً قليلاً فإنه سيطوقه يوم القيامة.

وفي هذا الحديث دليل على أن من ملك الأرض ملك قعرها إلى الأرض السابعة، فليس لأحد أن يضع نفقاً تحت أرضه إلا بإذنه، يعني لو فرض أن لك أرضاً مسافتها ثلاثة أمتار بين أرضٍ لجارك، فأراد جارك أن يفتح نفقاً بين الأرضين ويمرّ من تحت أرضك، فليس له الحقُّ في ذلك، لأنك تملك الأرض وما تحتها إلى الأرض السابعة، كما أن الهواء لك إلى السماء، فلا أحد يستطيع أن يبني على أرضك سقفاً إلا بإذنك. ولهذا قال العلماء: الهواء تابع للقرار، والقرار ثابت إلى الأرض السابعة، فالإنسان له من فوق ومن تحت، لا أحد يتجرأ عليه.

قال أهل العلم: ولو كان عند جارك شجرة، فامتدت أغصانها إلى أرضك، وصار الغصن إلى أرضك، فإن الجار يلويه عن أرضك، وإن لم يمكن ليُّه فإنه يقطع، إلا بإذن منك وإقرار، لأن الهواء لك وهو تابع للقرار.

١٢٢ ـ باب الظلم في الأبدان

عَن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مَرفوعاً: «**ثَلاثَةٌ لاَ يَقبَلُ الله مِنهُمْ صَلاةً: مَنْ أَمَّ قَوماً وَهمْ له كَارهُونَ، وَرجُلٌ أتى الصَّلاةَ دِباراً** ـ والدِّبَارُ أنْ يَأتِيها بَعدَ أنْ تفوتَهُ ـ **ورَجُلٌ اعتبدَ مُحَرَّراً**» رَواه أبو داودَ الطَّبرانِي بسند جَيِّدٍ[١].

وَعَنْ أبي أمامةَ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**مَنْ جَردَ ظَهرَ مُسلِم بِغَيْرِ حَقٍّ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَان**»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن برقم: (٥٩٣) وابن ماجه في سننه برقم: (٩٧٠) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود رقم: (١١٩) وضعيف سنن ابن ماجه رقم: (٢٠٥).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه (٨/ ١٣٦) رقم: (٧٠٣٦) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع برقم: (٤٥٤٣).

١٢٣ ـ باب الظلم في الأموال

في الصحيح: «وَلاَ ينتَهِبُ نُهبَةً يَرفَعُ النَّاسُ إليه فيهَا أبصَارَهُمْ حِينَ يَنتهِبُهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ»[١] [١].

---

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٣/ ٧٠):

قوله: «**ولا ينتهب نهب**» بضم النون هو المال المنهوب والمراد به المأخوذ جهراً وقهراً، وأشار برفع البصر إلى حالة المنهوبين فإنهم ينظرون إلى من ينهبهم ولا يقدرون على دفعه ولو تضرعوا إليه، ويحتمل أن يكون كناية عن عدم التستر بذلك فيكون صفة لازمة للنهب، بخلاف السرقة والاختلاس فإنه يكون في خفية، والانتهاب أشد لما فيه من مزيد الجراءة وعدم المبالاة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام: (٢٤٧٥ و٥٥٧٨ و٦٧٧٢).

١٢٤ ـ باب خذلان المظلوم

عَنْ سَهلِ بن حنيفٍ ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «**مَنْ أُذِلَّ عِنده مُسلمٌ فَلَم ينصرهُ وهوَ يَقدرُ أَنْ ينصرهُ أذلهُ الله عَلى رؤوس الخَلائِقِ يومَ القِيَامَةِ**» رَواهُ أحمدُ[١].

ولأبي داودَ عن جابر وأبي طلحة ـ رضي الله عنهما ـ مَرفوعاً: «**مَا مِن امرئٍ مُسلم يَخذُلُ أمرأً مُسلماً في موضعٍ تنتهكُ فيه حرمتُه وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في موطنٍ يُحبُّ فيه نصرتهُ، وَمَا مِن امرئٍ مُسلم يَنْصُرُ أمرأً مُسلماً في مَوضعٍ يُنتقصُ فيهِ من عِرضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إلاَّ نَصَرَهُ الله في مَوطِنٍ يُحبُّ فِيهِ نُصرَتَهُ**»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٨٧) والطبراني في معجمه (٦/ ٨٩) برقم: (٥٥٥٤) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع برقم: (٥٣٨٠). والضعيفة برقم: (٢٤٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم: ((٤٨٨٤) وأحمد في المسند (٤/ ٣٠) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود رقم: (١٠٤٠) والمشكاة برقم: (٤٩٨٣/ التحقيق الثاني).

١٢٥ ـ باب ما جاء
في أخوة الإسلام وحق المسلم على المسلم

وقَوْلِ الله تعَالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ الآية [الحُجرَات: الآية ١٠] [١].

---

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ١١١٥):

﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ هذا عقد، عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهوا له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ، آمراً بالأخوة الإيمانية: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخ المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه**» متفق عليه.

وفيهما عن النبي ﷺ: «**المؤمن للمؤمن، كالبنيان يشد بعضهم بعضاً**» وشبك ﷺ بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ومما يحصل به التآلف والتوادد، والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بالتقوى وبحقوق المؤمنين، الرحمة، فقال: ﴿**لعلكم ترحمون**﴾، وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٥٤] الآية [١].

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيره من الذنوب والكبائر، التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة.

وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة، حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة، دون أموالهم.

[١] قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٢٨٧ و٢٨٨):

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المَائدة: الآية ٥٤] يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه مَنْ يرتد عن دينه، فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن لله، عباداً مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمٰن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقواهم نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً.

أجل صفاتهم أن الله ﴿**يحبهم ويحبونه**﴾. فإن محبة الله للعبد، هي أجل نعمة بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه. وإذا أحب الله عبداً، يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه، بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ، ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله، وجميع أحواله. كما قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾.

كما أن من لوازم محبة الله للعبد، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله، بالفرائض

والنوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله. «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه**».

ومن لوازم محبة الله، معرفته تعالى، والإكثار من ذكره. فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة، وإن وجدت دعواها. ومَنْ أحب الله أكثر من ذكره. وإذا أحب الله عبداً، قبل منه اليسير من العمل، وغفر به الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿**أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾. فهم للمؤمنين أذلة، من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم، ورفقهم، ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم.

وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله ـ أعزة قد اجتمعت هممهم وعزائمهم، على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم.

قال تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾.

وقال تعالى: ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ فالغلظة الشديدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه، في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة، دعوتهم، إلى الدين الإسلامي، بالتي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿**يجاهدون في سبيل الله**﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم. ﴿**ولا يخافون لومة لائم**﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين. وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب، ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتر قوته، عند عذل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم، على أمر الله. فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

وفي الصحيح: «**لَوْ كُنتُ مُتَّخِذاً مِن أُمَّتِي خَليلاً لاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ خَليلاً، ولَكِن أُخُوَّةَ الإِسلامِ أَفضَلُ**»[1] [١].

وعَنْ أبي مُوسى ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «**المؤمِنُ للمُؤْمِن كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعْضاً**» أخرجَاهُ[2] [٢].

ولما مدحهم تعالى بما منَّ به عليهم من الصفات الجميلة، والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير ـ أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه، لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي منَّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء والله واسع عليم**﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم. ولكنه عليم بمن يستحق الفضل، فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

[١] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٧/ ٢٧):

واختلف في المودة والمحبة والصداقة هي مترادفة أو مختلفة، قال أهل اللغة: الخلة أرفع رتبة وهو الذي يشعر به حديث الباب وكذا قوله ﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي**» فإنه يشعر بأنه لم يكن له خليل من بني آدم، ولا يعكر على هذا إنصاف إبراهيم عليه السلام بالخلة ومحمد ﷺ بالمحبة فتكون المحبة أرفع رتبة من الخلة، لأن يجاب عن ذلك بأن محمداً ﷺ قد ثبت له الأمران معاً فيكون رجحانه من الجهتين والله أعلم.

[٢] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٢/ ٦٠٨٤):

«**المؤمن للمؤمن**» اللام فيه للجنس، والمراد بعض المؤمنين لبعض «**كالبنيان**» أي الحائط لا يتقوى في أمر دينه ودنياه إلا بمعرفة أخيه كما أن بعض البنيان يقوى ببعضه «**يشد بعضه بعضاً**» بيان لوجه التشبيه «**ثم شبك بين أصابعه**» أي يشد بعضهم بعضاً مثل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٦٥٦، ٣٦٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام: (٤٨١ و٢٤٤٦، ٦٠٢٦)، ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٩٩) رقم: (٢٥٨٥).

ولهُمَا عَن النعمان بن بَشير ـ رضي الله عنهما ـ مَرفُوعاً: «**مَثَلُ المؤمِنينَ في تَوادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهمْ وتَعاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ إذَا اشتَكَى مِنهُ عُضوٌ تَدَاعى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ وَالحُمَّى**»(1) [١].

هذا الشد فوقع التشبيك تشبيهاً لتعاضد المؤمنين بعضهم ببعض، كما أن البنيان الممسك بعضه ببعض يشد بعضه بعضاً وذلك لأن أقواهم لهم ركن وضعيفهم مستند لذلك الركن القوي فإذا والاه قوى بما بباطنه ويعاتبه ذكره الحرالي وفيه تفصيل الاجتماع على الانفراد ومدح الاتصال على الانفصال فإن البنيان إذا تفاصل بطل وإذا اتصل ثبت الانتفاع به بكل ما يراد منه.

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (١٠/ ٥٤٩٢):

«**مثل المؤمنين**» الكاملين من الإيمان «**في توادهم**» مصدر تواد أي تحاب «**وتراحمهم**» أي تلاطفهم «**وتعاطفهم**» قال ابن أبي جمرة: الثلاثة وإن تفاوت معناها بينها فرق لطيف فالمراد بالتراحم أن يرحم بعضهم لأخوة الإيمان لا لشيء آخر، وبالتواد التواصل الجالب للمحبة كالنهادي، وبالتعاطف إعانة بعضهم بعضاً «**مثل الجسد الواحد**» بالنسبة لجميع أعضائه وجه الشبه فيه التوافق في التعب و الراحة «**إذا اشتكى**» أي مرض «**منه عضو تداعى**» من الدعوة «**له سائر الجسد**» أي باقيه اسم فاعل من سائر وهو مما يغلط فيه الخاصة فيستعملوه بمعنى الجميع، يعني دعاء بعضهم بعضاً إلى المشاركة في الألم ومنه تداعت الحيطان أي تساقط أو كادت «**بالسهر**» بفتح الهاء ترك النوم لأن الألم يمنع النوم «**والحمى**» لأن فقد النوم يثيرها والحمى حرارة غريبة تشتعل في القلب فتنبت به في جميع البدن ثم لفظ الحديث خبر ومعناه أمر أي كما أن الرجل إذا تألم بعض جسده سرى ذلك الألم إلى جميع جسده فكذا المؤمنون ليكونوا كنفس واحدة إذا أصاب أحدهم مصيبة يغتم جميعهم ويقصدوا إزالتها، وفي هذا التشبيه تقريب للفهم وإظهار المعاني في الصور المرئية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٠١١) ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٩٩) رقم: (٢٥٨٦).

وَعَنْ أبي هُريرةَ ـ رضي الله عنه ـ مَرفوعاً: «**لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَناجَشوا وَلاَ تَدابَرُوا، وَلاَ يبَعْ بعضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ الله إخواناً ـ المسلِمُ أَخُو المسْلِمِ لاَ يَظلمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يحقرُه، التَّقوى هَهُنَا** ـ وأَشَارَ إلى صَدرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ـ **بحَسبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِ أَنْ يحقرَ أَخَاهُ المسلم، كل المسلمِ على المسلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وعِرضهُ**» رواه مسلم(1) [1].

---

[1] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين: (٤/ ٧٠٣ وما بعدها):

قال المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تحاسدوا**» أي لا يحسد بعضكم بعضاً. والحسد أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على غيره. هذا هو الحسد، ومثاله: أن تكره أن الله أنعم على هذا الرجل بالمال، أو بالبنين، أو بالزوجة، أو بالعلم، أو بالعبادة، أو بغير ذلك من النعم، سواء تمنيت أن تزول أو لم تتمن.

وإن كان بعض العلماء يقول: إن الحسد أن يتمنى زوال نعمة الله على غيره، لكن هذا أخبثه وأشده، وإلا فمجرد كراهة الإنسان أن ينعم الله على الشخص فهو حسد. والحسد من خصال اليهود، فمن حسد فهو متشبه بهم والعياذ بالله، قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٩]، وقال تعالى فيهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: الآية ٥٤] ولا فرق بين أن تكره ما أنعم الله به على غيرك ليعود هذا الشيء إليك، أو ليرتفع عن أخيك وإن لم يعد إليك.

واعلم أن في الحسد مفاسد كثيرة:

منها أنه تشبه باليهود أخبث عباد الله وأخس عباد الله، الذين جعل الله منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٨٦) رقم: (٢٥٦٤).

. . . .

ومنها أن فيه دليل على خبث نفس الحاسد، وأنه لا يحبّ لإخوانه ما يحب لنفسه، لأن من أحبّ لإخوانه ما يحبّ لنفسه لم يحسد الناس على شيء، بل يفرح إذا أنعم الله على غيره بنعمة ويقول: اللهم آتني مثلها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النّساء: الآية ٣٢].

ومنها أن فيه اعتراضاً على قدر الله عزّ وجلّ وقضائه، وإلا فمن الذي أنعم على هذا الرجل؟ الله عز وجل، فإذا كرهت ذلك فقد كرهت قضاء الله وقدره، ومعلوم أن الإنسان إذا كره قضاء الله وقدره فإنه على خطر في دينه ـ نسأل الله العافية ـ لأنه يريد أن يزاحم ربَّ الأرباب جلّ وعلا في تدبيره وتقديره.

ومن مفاسد الحسد: أنه كلما أنعم الله على عباده نعمة التهبت نار الحسد في قلبه، فصار دائماً في حسرة ودائماً في غمّ، لأن نعم الله على العباد لا تحصى، وهو رجل خبيث كلما أنعم الله على عبده نعمة على ذلك الحسد في قلبه حتى يحرقه.

ومن مفاسد الحسد: أنه يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب كما قال ﷺ: **«إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**[1].

ومن مفاسده: أنه يعرقل الإنسان عن السعي في الأشياء النافعة، لأنه دائماً يفكر ويكون في غمّ؛ كيف جاء هذا الرجل مالٌ؟ كيف جاءه علم، كيف جاءه ولد؟ كيف جاءه زوجة وما أشبه ذلك، فتجده دائماً متحسراً منطوياً على نفسه، ليس له هم إلا تتبع نعم الله على العباد واغتمامه بها نسأل الله العافية.

ومن مفاسد الحسد: أنه ينبىء عن نفس شريرة ضيقة، لا تحب الخير، وإنما هي نفس أنانية تريد أن يكون كلّ شيء لها.

ومن مفاسد الحسد أيضاً: أنه لا يمكن أن يغير شيئاً مما قضاه الله عزّ وجلّ أبداً،

---

(١) أخرجه أبو داود رقم: (٤٩٠٣) كتاب الأدب. والبيهقي في الشعب رقم: (٦٦٠٨) وهو في ضعيف الجامع رقم: (٢١٩٧).

. . . .

مهما عملت، ومهما كرهت، ومهما سعيت لإخوانك في إزالة نعم الله عليهم، فإنك لا تستطيع شيئاً.

ومن مفاسده: أنه ربما يترقى بالإنسان إلى أن يصل إلى درجة العائن، والعائن الذي تسميه النحوت يعين الناس، لأن العائن أصله أن نفسه شريرة حاسدة حاقدة، إذا رأى ما يعجبه انطلق من هذه النفس الخبيثة مثل السهم حتى يصيب بالعين، فالإنسان إذا حسد وصار فيه نوع من الحسد، فإنه يترقى به الأمر حتى يكون من أهل العيون الذين يؤذون الناس بأعينهم، ولا شك أن العائن عليه من الوبال والنقمة بقدر ما ضرَّ العباد. إن ضرهم بأموالهم فعليه من ذلك إثم أو بأبدانهم أو بمجتمعهم، ولهذا ذهب كثير من أهل العلم إلى تضمين العائن كل ما أتلف، يعني إذا نحت أحداً وأتلف شيئاً من ماله أو أولاده أو غيرهم، فإنه يضمن، كما أنهم قالوا: إن من اشتهر بذلك، فإنه يجب أن يُحبس إلا أن يتوب، يحبس اتقاء شره، لأنه يؤذي الناس ويضرهم، فيحبس كفّاً لشره.

ومن مفاسد الحسد: أنه يؤدي إلى تفرق المسلمين لأن الحاسد مكروه عند الناس مبغض، والإنسان الطيب القلب الذي يحب لإخوانه ما يحبه لنفسه، تجده محبوباً من الناس، الكلُّ يحبه. ولهذا دائماً نقول: والله فلان هذا طيب ما في قلبه حسد، وفلان رجل خبيث حسود وحقود وما أشبه ذلك.

فهذه عشر مفاسد كلها في الحسد، وبهذا نعرف حكمه النبي ﷺ حيث قال: «**لا تحاسدوا**» أي لا يحسد بعضكم بعضاً فإن قال قائل: ربما يجد الإنسان في نفسه أنه يحبّ أن يتقدم على غيره في الخير، فهل هذا من الحسد؟ فالجواب أن ذلك ليس من الحسد بل هذا من التنافس في الخيرات، قال الله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصّافات: الآية ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: الآية ٢٦] فإذا أحبّ الإنسان أن يتقدم على غيره في الخير، فهذا ليس من الحسد في شيء، الحسد أن يكره الخير لغيره.

واعلم أن للحسد علامات: منها أن الحاسد يحبّ دائماً أن يخفي فضائل غيره،

. . . .

فإذا كان إنسان ذو مال، ينفق ماله في الخير من صدقات، وبناء مساجد، وإصلاح طرق، وشراء كتب، يوقفها على طلبة العلم وغير ذلك. فتجد هذا الرجل الحسود إذا تحدث الناس على هذا المحسن يسكت وكأنه لم يسمع شيئاً، هذا لا شك أن عنده حسداً، لأن الذي يحب الخير يحبُّ نشر الخير للغير، فإذا رأيت الرجل إذا تكلم عن أهل الخير بإنصاف وأثنى عليهم وقال هذا فيه خير وهذا محسن، وهذا كريم، فهذا يدل على طيب قلبه وسلامته من الحسد. نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الحسد ومن منكرات الأخلاق والأعمال.

أما قوله: **«ولا تناجشوا»** فالنجش هو أن يزيد في السلعة على أخيه وهو لا يريد شراءها، وإنما يريد أن يضرّ المشتري أو ينفع البائع أو الأمرين جميعاً.

مثال ذلك. عرضت سلعة في السوق فصار الناس يتزايدون فيها، فقام رجل فجعل يزيد فيها وهو لا يريد الشراء، تسام بمائة وعشرة وهو لا يريد أن يشتري، ولكنه يريد أن يزيد الثمن على المشتري، أو يريد أن ينفع البائع فيزيذ الثمن له أو الأمرين جميعاً، فهذا حرام ولا يجوز لما فيه من العدوان. أما إذا زاد الإنسان في الثمن عن رغبة في السلعة ولكن لما ارتفعت قيمتها تركها فهذا لا بأس به، فإن كثيراً من الناس يزيد في السلعة لأنه يرى أنها رخيصة، فإذا زادت قيمتها تركها فهذا ليس عليه بأس، كما أن من الناس من يزيد في السلعة يريدها ويزيد في ثمنها حتى تخرج عن قيمتها كثيراً.

فالناس على زيادتهم في السلعة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: نجش وهو حرام.

الثاني: يزيد فيها لأنه يرى أنها رخيصة، وأنها ستكسبه، وليس له قصد في عين السلعة ولا يريدها بعينها، لكن لما رأى أنها رخيصة وأنها ستكسبه جعل يزيد، فلما ارتفعت قيمتها تركها فهذا لا بأس به.

الثالث: أن يكون له غرض في السلعة، يريد أن يشتري هذه السلعة، فيزيد حتى يطيب خاطره ويظفر بها، فهذا أيضاً لا بأس به.

. . . .

وقوله ﷺ: «ولا تباغضوا» أي لا يبغض بعضكم بعضاً، وهذا بالنسبة للمؤمنين بعضهم مع بعض، فلا يجوز للإنسان أن يُبغض أخاه أي يكرهه في قلبه لأنه أخوه، ولكن لو كان هذا الأخ من العصاة الفسقة، فإنه يجوز لك أن تبغضه من أجل فسقه، لا تبغضه بغضاً مطلقاً، لكن أبغضه على ما فيه من المعصية، وأحبه على ما فيه من الإيمان.

ومن المعلوم أننا لو وجدنا رجلاً مسلماً يشرب الخمر ويشرب الدخان ويجر ثوبه خيلاء، فإننا لا نبغضه كما نبغض الكافر، فمن أبغضه كما يبغض الكافر فقد انقلب على وجهه.

كيف تسوي بين مؤمن عاصٍ فاسق وبين الكافر؟ هذا خطأ عظيم. ربما بعض الناس يكره المؤمن الذي عنده هذا الفسق أكثر مما يكره الكافر، وهذا والعياذ بالله من انقلاب الفطرة، فالمؤمن مهما كان خير من الكافر.

فأنت أبغضه على ما فيه من المعصية وأحبه على ما معه من الإيمان، فإن قلت: كيف يجتمع حب وكراهية في شيء واحد؟ فالجواب: أنه يمكن أن يجتمع حب وكراهية في شيء واحد، أرأيت لو أن الطبيب وصف لك دواءً مرّاً منتن الرائحة، ولكنه قال: اشربه وتشفى بإذن الله، فإنك لا تحب هذا الدواء على سبيل الإطلاق لأنه مرّ وخبيث الرائحة، ولكنك تحبه من جهة أنه سبب للشفاء، وتكرهه لما فيه من الرائحة الخبيثة والطعم المر.

هكذا المؤمن العاصي، لا تكرهه بالمرة، بل تحبه على ما معه من الإيمان وتكرهه على ما معه من المعاصي. ثم إن كراهتك إياه لا توجب أن تعرض عن نصيحته، بأن تقول أنا ما أتحمل أن أواجه هذا الرجل لأني أكره منظره، بل أعصب نفسك واتصل به وانصحه، ولعل الله أن ينفعه على يديك ولا تيأس، كم من إنسان استبعد الإنسان أن يهديه الله فهداه الله عزّ وجلّ.

والأمثلة على هذا كثيرة في وقتنا الحاضر وفيما سبق؛ في وقتنا الحاضر يوجد أناس فسقة يسّر الله لهم من يدعوهم إلى الحق فاهتدوا، وصاروا أحسن من الذي

. . . .

دعاهم، وفيما سبق من الزمان أمثلة كثيرة، فهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه كان سيفاً مسلولاً على المسلمين، ومواقفه في أحد مشهورة حيث كر هو وفرسان من قريش على المسلمين من عند الجبل، وحصل ما حصل من الهزيمة، ثم هداه الله تعالى. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من أكره الناس لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام فهداه الله وكان من أولياء الله، فكان الثاني في هذه الأمة.

لذلك فلا تيأس، ولا تقل إنني لا أطيق هذا الرجل لا منظراً ولا مسمعاً، ولا يمكن أن أذهب إليه، بل اذهب ولا تيأس فالقلوب بيد الله عزّ وجلّ، نسأل الله أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم.

فإن قال قائل البغضاء هي انفعال في النفس، والأشياء الانفعالية قد لا يطيقها الإنسان كالحب مثلاً، فالحب بما يملك الإنسان أن يحب شخصاً أو أن يقلل من محبته أو أن يزيد في محبته إلا بأسباب، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو يقسم بين زوجاته: **«اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلومني فيما لا أملك»**[1] يعني في المحبة، ومن المعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحب عائشة رضي الله عنها أكثر من غيرها من زوجاته، لكن هذا بغير اختيار.

فإذا قال قائل: الغضب انفعال لا يمكن للإنسان أن يسيطر عليه، فالجواب: الانفعال يحصل بفعل، فأنت مثلاً لا تحب شخصاً إلا لأسباب: إيمانه، نفعه للخلق، حسن خلقه، خدمته لك، أو غيرها من الأشياء الكثيرة، تذكر هذه الأسباب فتحبه، ولا تكره شخصاً إلا لسبب، تذكر الأسباب التي توجب الكراهة فتكرهه، لكن مع ذلك ينبغي للإنسان أن يعرض عن الأسباب التي توجب البغضاء عن أخيه، لأن النبي ﷺ قال: **«لا تباغضوا»**.

لكن أقول: إن البغضاء لها أسباب، والمحبة لها أسباب، فإذا عرضت عن

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم (٢١٣٤) كتاب النكاح. والنسائي في سننه (٧/ ٦٤) كتاب عشرة النساء. وابن ماجه رقم (١٩٧١) كتاب النكاح وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود برقم (٤٦٧).

. . . .

أسباب البغضاء وتناسيتها وغفلت عنها زالت بإذن الله، وهذا هو الذي أراده النبي عليه السلام بقوله: **«لا تباغضوا»**، وهو نظير قوله للرجل الذي قال يا رسول الله: أوصني، قال: **«لا تغضب»**، قال: أوصني، قال: **«لا تغضب»**، قال: أوصني، قال: **«لا تغضب»** ردد مراراً قال: **«لا تغضب»**[1].

قد يقول الإنسان إن الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم، كما جاء في الحديث[2]، فلا سبيل له إلى إخماده، ونقول بل له سبيل، افعل الأسباب التي تخفف الغضب حتى يزول عنك الغضب.

قال: **«ولا تدابروا»** فهل المراد إلا يولي بعضكم دبر بعض من التدابر الحسي؟ بمعنى مثلاً أن تجلس وتخلي الناس وراءك في المجالس. نعم هذا من المدابرة، ومن المدابرة أيضاً المقاطعة في الكلام حين يتكلم أخوك معك وأنت قد صددت عنه، أو إذا تكلم وليت وخليته، فهذا من التدابر، وهذا التدابر حسي.

وهناك تدابر معنوي، وهو اختلاف الرأي، بحيث يكون كل واحد منا له رأي مخالف للآخر، وهذا التدابر في الرأي أيضاً نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام.

وعندي أن من التدابر ما يفعله بعض الإخوة إذا سلم من الصلاة تقدم على الصف مقدار شبر أو نحوه، فهذا فيه نوع من التدابر، ولهذا شكا إليَّ بعض الناس هذه الحال، قال: بعض الناس إذا سلمنا تقدم قليلاً ثم يحول بيني وبين الإمام، لا سيما إذا كان هناك درس فإنه يحول بيني وبين مشاهدة الإمام، ومعلوم أن الإنسان إذا كان يرى المدرس كان أنبه له وأقرب للفهم والإدراك، فبعض الناس يكره هذا الشيء، لذا أيضاً ينبغي للإنسان أن يكون ذا بصيرة وفطنة فلا تتقدم على إخوانك وتلقيهم وراءك، إذا كان بودك أن تتوسع فقم وتقدم بعيداً واجلس إذا كنت في الصف الأول، وإن كنت في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في صحيحه رقم (٦١١٦) كتاب الأدب.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه رقم: (٢١٩١) كتاب الفتن. وأحمد في المسند (٣/ ١٩، ٦١) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن الترمذي برقم (٣٨٥).

. . . .

الصف الثاني تأخر، أما أن تتقدم على الناس وتبقي لهم ظهرك فهذا فيه نوع من سؤ الأدب، وفيه نوع من التدابر.

فينبغي في هذه المسألة وفي غيرها أن يتفطن الإنسان لغيره، بل لا يكون أنانياً، يفعل فقط ما طرأ على باله فعله، دون مراعاة للناس، ودون حذر من فعل ما ينتقد عليه.

أما الجملة الخامسة فهي قوله: **«ولا يبع بعضكم على بيع بعض»** لا يبع بعضكم على بيع بعض لأن هذا يؤدي إلى الكراهية والعداوة والبغضاء. ومثال بيع الإنسان على بيع أخيه أن يذهب لمن اشترى سلعة من شخص بمائة فيقول أنا أعطيك مثلها بثمانين، أو أعطيك أحسن منها بمائة فيرجع المشتري ويفسخ العقد الأول ويعقد مع الثاني، ففي هذا عدوان ظاهر على حق البائع الأول، وهذا العدوان يوجب العداوة والبغضاء بين المسلمين.

ومثل ذلك الشراء على شرائه، مثل أن يذهب إلى شخص باع سلعة بمائة فيقول له أنا أشتريها منك بمائة وعشرين، فيذهب البائع ويفسخ العقد ويبيع على الثاني، فهذا أيضاً حرام لأنه بمعنى البيع على البيع.

لكن هل هذا خاص في زمن الخيار أو عام؟

الحديث عام لأنه لا يحل لك أن تبيع على بيع أخيك سواء في زمن الخيار أو لا، وقال بعض العلماء إنه محمول على ما إذا كان ذلك في زمن الخيار، لأنه إذا انتهى زمن الخيار فإنه لا يستطيع أن يفسخ العقد، ومثال ذلك رجل باع على شخص سيارة بعشرة آلاف ريال، وجعل له الخيار ثلاثة أيام، فذهب شخص إلى المشتري وقال أنا أعطيك أحسن منها بعشرة آلاف ريال يسهل على المشتري أن يذهب للبائع ويقول فسخت العقد، أو يذهب شخص إلى البائع يقول: سمعت أنك بعت سيارتك على فلان بعشرة آلاف ريال، أنا أعطيك أحد عشر ألفاً فيفسخ البيع ويرد ويبيعها على الثاني.

أما إذا كان بعد انتهاء المدة فقال بعض العلماء أنه لا بأس، يعني بعد أن باعه

. . . .

وجعل له الخيار ثلاثة أيام وانتهت الأيام الثلاثة فلا بأس أن يذهب إلى الشخص الذي اشتراها ويقول أنا أعطيك مثلها بأقل، أو أحسن منها بالثمن الذي اشتريت به. وعللوا ذلك بأنه لا يمكنه حينئذ أن يفسخ البيع لانتهاء زمن الخيار.

ولكن ظاهر الحديث العموم، لأنه وإن كان لا يمكنه أن يفسخ البيع لانتهاء زمن الخيار فإنه قد يحاول أن يوجد مفسداً للعقد، أو على الأقل يندم على شرائه، ويعتقد أن البائع غبنه وأنه لعب عليه، فيحدث له بذلك العداوة والبغضاء، وهذا مع قرب المدة أما إذا طالت المدة فلا بأس بها، لأنه إذا طالت المدة فإنه من المتعذر أو المتعسر كثيراً أن يفسخ العقد.

والحاصل أن لدينا ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن يكون البيع أو الشراء على أخيه في زمن الخيار، فلا شك في أنه حرام.

والحال الثانية: أن يكون بعد انتهاء زمن الخيار بمدة قريبة، ففيه خلاف بين العلماء والصحيح أنه حرام.

والحال الثالثة: أن يكون بعد زمن بعيد، كشهر أو شهرين أو أكثر، فهذا لا بأس به، ولا حرج فيه، لأن الناس يتبادلون السلع فيما بينهم على هذا الوجه، وعلى وجوه أخرى.

ومثل ذلك الإجارة على إجارته مثل أن يذهب شخص إلى آخر استأجر بيتاً من إنسان السنة بألف ريال، وقال له أنا عندي لك أحسن منه بثمانمائة ريال، فهذا حرام، لأنه عدوان كالبيع على بيعه. ومثل ذلك أيضاً السوم على سومه، وقد جاء صريحاً فيما رواه مسلم[1]، ويسوم على سومه كما إذا سام شخص سلعة من آخر، وركن إليه صاحب السلعة، ولم يبق إلا العقد، مثل أن يقول بعها علي بألف فيركن إليه البائع، ولكن لم يتم العقد، بل يجزم أن يبيع عليه، فيأتي إنسان آخر ويقول أنا أعطيك بها ألفاً ومائة فإن هذا لا يجوز. لأن النبي ﷺ قال: **«ة يسك على سوم أخيه»**.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (١٤٠٨) [٣٨] كتاب النكاح.

. . . .

ومثل ذلك أيضاً في النكاح، إذا خطب شخص من آخر فلا يحل لأحد أن يخطب على خطبته، لقول النبي ﷺ: **«ولا يخطب على خطبة أخيه»** وكل هذا احتراماً لحقوق المسلمين بعضهم على بعض، فلا يحل للإنسان أن يعتدي على حق إخوانه؛ لا ببيع ولا شراء ولا إجارة ولا سوم ولا نكاح ولا غير ذلك من الحقوق.

بقي الكلام على قوله عليه الصلاة والسلام: **«التقوى ههنا ويشير إلى صدره»** وقد سبق لنا أن المعنى أن التقوى في القلب، فإذا اتقى القلب اتقت الجوارح، وإذا زاغ القلب زاغت الجوارح والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة: الآية ١٠٨].

واعلم أن زيغ القلب لا يكون إلا بسبب الإنسان، فإذا كان الإنسان يريد الشر ولا يريد الخير فإنه يزيغ قلبه والعياذ بالله، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ﴾ [الصف: الآية ٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٠].

فإذا علم الله من العبد نية صالحة وإرادة للخير يسر الله له ذلك وأعانه عليه، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: الآيات ٥ ـ ٧].

وقوله عليه الصلاة والسلام: **«بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»**[1] يعني لو يكن للإنسان من الشر إلا أن يحقر أخاه المسلم لكان كافياً، وهذا يدل على كثرة إثم من حقر إخوانه المسلمين، لأن الواجب على المسلم أن يعظم إخوانه المسلمين ويكبرهم ويعتقد لهم منزلة في قلبه، وأما احتقارهم وازدراؤهم فإن في ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٤٤٢) ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة ((٤/ ١٩٩٦) رقم: (٢٥٨٠).

وَلَهُمَا عَن ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ مَرفوعاً: «**الْمسلِمُ أَخُو الـمسْلِمُ لاَ يَظلمُهُ وَلاَ يُسلمُهُ وَمَنْ كَانَ في حَاجَةِ أخيهِ كَانَ الله في حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسلم كَربَةَ مِنْ كُرَبِ الدُّنيا فَرَّجَ الله عَنْهُ كُربةً مِنْ كُرَبِ يومَ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَترَ مُسلماً سَتَرَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١) [١].

من الإثم ما يكفي ـ نسأل الله السلامة.

ثم قال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**». يعني أن المسلم حرام على المسلم في هذه الأمور الثلاثة أي في كل شيء، لأن هذه الأمور الثلاثة تتضمن كل شيء؛ الدم: كالقتل والجراح وما أشبهها، والعرض: كالغيبة، والمال: كأكل المال، وأكل المال له طرق كثيرة؛ منها السرقة، ومنها الغصب ـ وهو أخذ المال قهراً ـ ومنها أن يجحد ما عليه من الدّين لغيره، ومنها أن يدعي ما ليس له، وغير ذلك، وكل هذه أشياء حرام، ويجب على المسلم أن يحترم أخاه في ماله ودمه وعرضه.

[١] قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لرياض الصالحين (/ ٦٩١ وما بعدها):

قال المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم**» يعني في الدين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمران: الآية ١٠٣] وقال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٥]، وهذه الأخوة هي أوثق الأخوات، أوثق من أخوة النسب، فإن أخوة النسب قد يتخلف مقتضاها، فيكون أخوك من النسب عدوّاً لك كارهاً لك، وذلك يكون في الدنيا وفي الآخرة. قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرُف: الآية ٦٧]، أما أخوة الدين فإنها ثابتة راسخة في الدنيا وفي الآخرة. تنفع الإنسان في حياته وبعد مماته، لكن هذه الأخوة لا يترتب عليها ما يترتب على أخوة النسب من التوارث ووجوب النفقة وما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.

. . . .

ثم قال: **«لا يظلمه ولا يسلمه»** لا يظلمه لا في ماله، ولا في بدنه، ولا في عرضه، ولا في أهله، يعني لا يظلمه بأي نوع من الظلم. **«ولا يسلمه»** يعني لا يسمله لمن يظلمه، بل يدافع عنه.

ولهذا قال العلماء رحمهم الله: يجب على الإنسان أن يدافع عن أخيه في عرضه وبدنه وماله. في عرضه: يعني إذا سمع أحداً يسبه ويغتابه، يجب عليه أن يدفع عنه. وكذلك أيضاً في بدنه: إذا أراد أحد أن يعتدي على أخيك المسلم وأنت قادر على دفعه، وجب عليك أن تدافع عنه، وكذلك في ماله: لو أراد أحد أن يأخذ ماله، فإنه يجب عليك أن تدافع عنه.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: **«والله في حاجة العبد ما كان العبد في حاجة أخيه»** يعني أنك إذا كنت في حاجة أخيك تقضيها وتساعده عليها، فإن الله تعالى يساعدك في حاجتك ويعينك عليها جزاءً وفاقاً.

ويُفهم من ذلك أن الإنسان إذا ظلم أخاه، فإن أخوته ناقصة، وإذا أسلمه إلى من يظلمه فإن أخوته ناقصة، وإذا لم يكن في حاجته، فإن هذا يفوته الخير العظيم، وهو كون الله تعالى في حاجته.

ثم قال: **«ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»** الكرب ما يضيق على الإنسان ويشق عليه، ويجد له في نفسه همّاً وغمّاً، فإذا فرّجت عن أخيك هذه الكربة فرج الله عنك كربة من كرب يوم القيامة.

وتفريج الكربات يكون في أمور متعددة: إن كانت كربة مالية فبإعطائه المال الذي تزول به الكربة، وإن كانت كربة معنوية فبالحرص على ردّ معنويته ورد اعتباره حتى تزول عنه الكربة، وإذا كانت كربة هم وغم فبأن توسع عليه وتنفس له، وتبين له أن الأمور لا تدوم، وأن دوام الحال من المحال، وتبين له ما في هذا من الأجر والثواب العظيم، حتى تهوّن عليه الكربة.

«ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة» ستر يعني غطى غيبه ولم يبينه، فإن الله يستره في الدنيا والآخرة، وهذا ليس على إطلاقه فهناك نصوص تدل على أنه غير مطلق، فالستر قد يكون مأموراً به محموداً، وقد يكون حراماً، فإذا رأينا شخصاً على

ولهما عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1] [١].

معصية، وهو رجل شرير منهمك في المعاصي، لا يزيده الستر إلا طغياناً، فإننا لا نستره، بل نبلغ عنه حتى يُردع ردعاً يحصل به المقصود.. أما إذا لم تبدر منه بوادر سيئة، ولكن حصلت منه هفوة، فإن من المستحب أن تستره ولا تبينه لأحد، لا للجهات المسؤولة ولا لغيرها، فإذا سترته ستر الله عليك في الدنيا والآخرة.

ومن ذلك أيضاً أن تستر عنه العيب الخَلْقي، إذا كان فيه غيب في خلقته كجروح مؤثرة في جلده أو برص أو بهق أو ما أشبه ذلك، وهو يتستر ويحب ألا يطلع عليه الناس فإنك تستره، إذا سترته سترك الله في الدنيا والآخرة. وكذلك إذا كان سيّء الخلق لكنه يتظاهر للناس بأنه حسن الخلق وواسع الصدر، وأنت تعرف عنه خلاف ذلك، فاستره فمن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. فالستر كما قلت بالنسبة للأعمال السيئة التي يقوم بها الإنسان ينقسم إلى قسمين: قسم يكون من شخص منهمك في المعاصي مستهتر، فهذا لا نستر عليه. وقسم آخر حصل منه هفوة، فهذا هو الذي نستر عليه. أما الأمور الأخرى فالستر فيها أكمل وأفضل والله المستعان.

[١] تقدم شرحه في الباب رقم (٤٣).

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في جوامع العلوم والحكم (ص ١٥٥ وما بعدها):

هذا الحديث خرّجاه في الصحيحين من حديث قتادة عن أنس، ولفظ مسلم «**حتى يحبّ لجاره أو لأخيه**» بالشك. وخرّجه الإمام أحمد رحمه الله ولفظه «**لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحبّ للناس ما يحبّ لنفسه من الخير**»[1]. وهذه الرواية تبيّن معنى الرواية المخرجة في «الصحيحين»، وأن المراد بنفي الإيمان نفي بلوغ حقيقته ونهايته، فإن الإيمان كثيراً ما يُنفى لانتفاء بعض أركانه وواجباته، كقوله ﷺ: «**لا يزني**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١/ ٦٧) برقم (٤٥).

(٢) صحيح. أخرجه أحمد، بالأرقام: (١٢٦٧١) و(١٣٣٧٢) و(١٣٥٦٨). وهو بلفظ: «لا يؤمن أحدكم...».

. . . .

الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[١] وقوله: «**لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه**»[٢].

وقد اختلف العلماء في مرتكب الكبائر: هل يسمى مؤمناً ناقص الإيمان أم لا يسمى مؤمناً؟ وإنما يقال: هو مسلم، وليس بمؤمن على قولين، وهما روايتين عن الإمام أحمد رحمه الله. فأما من ارتكب الصغائر، فلا يزول عنه اسم الإيمان بالكلية، بل هو مؤمن ناقص الإيمان ينقص من إيمانه بحسب ما ارتكب من ذلك، والقول بأن مرتكب الكبائر يقال له مؤمن ناقص الإيمان مرويّ عن جابر بن عبد الله، وهو قول ابن المبارك وإسحاق بن عبيد وغيرهم. والقول بأنه مسلم ليس بمؤمن، مروي عن أبي جعفر محمد بن علي. ذكر بعضهم: أنه المختار عند أهل السنة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الزاني ينزع منه نور الإيمان. وقال أبو هريرة: ينزع منه الإيمان، فيكون فوقه كالظلة، فإن تاب عاد إليه.

وقال عبد الله بن رواحة وأبو الدرداء. الإيمان كالقميص، يلبسه الإنسان تارة، ويخلعه تارة أخرى، وكذا قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره. والمعنى: أنه إذا كمَّل خصال الإيمان لبسه، فإذا نقص منها شيئاً نزعه، وكل هذا إشارة إلى الإيمان الكامل التام الذي لا ينقصه من واجباته شيء. والمقصود أنَّ من جملة خصال الإيمان الواجبه أن يحبّ المرء لأخيه المؤمن ما يحبّ لنفسه ويكره له ما يكرهه لنفسه، فإذا زال ذلك عنه فقد نقص إيمانه بذلك.

وقد ذكرنا فيما تقدّم حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[٣]. خرّجاه في «الصحيحين» وهذا يدلّ على أنّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان برقم (٥٧).

(٢) سبق تخريجه.

. . . .

المؤمن يسوؤه ما يسوء أخاه المؤمن ويحزنه ما يحزنه، وحديث أنس الذي نتكلم الآن فيه يدلّ على أن المؤمن يسّره ما يسّر أخاه المؤمن، ويريد لأخيه المؤمن ما يريد لنفسه من الخير، وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغشّ والغلّ والحسد، فإن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير، أو يساويه فيه، لأنه يحبّ أن يمتاز على الناس بفضائله، وينفرد بها عنهم. والإيمان يقتضي خلاف ذلك، وهو أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شيء. وقد مدح الله تعالى في كتابه من لا يريد العلوّ في الأرض ولا الفساد فقال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القَصَص: الآية ٨٣].

قال عكرمة وغيره من المفسرين في هذه الآية: العلوّ في الأرض: التكبر وطلب الشرف والمنزلة عند ذي سلطانها، والفساد: العمل بالمعاصي.

وفي الجملة، فينبغي للمؤمن أن يحبّ للمؤمنين ما يحبّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، فإن رأى في أخيه المسلم نقصاً في دينه، اجتهد في إصلاحه. قال بعض الصالحين من السلف: أهل المحبة لله نظروا بنور الله، وعطفوا على أهل المعاصي الله، مقتوا أعمالهم، وعطفوا عليهم ليزيلوهم بالمواعظ عن فعالهم، وأشفقوا على أبدانهم من النار، لا يكون المؤمن مؤمناً حقّاً حتى يرضى للناس ما يرضاه لنفسه، وإن رأى في غيره فضيلة فاق بها عليه فيتمنى لنفسه مثلها، فإن كانت تلك الفضيلة دينية كان حسناً. قد تمنّى النبيّ ﷺ لنفسه منزلة الشهادة. وقال ﷺ: **«لا حسد إلاّ في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار، رجل آتاه الله القرآن، فهو يقرؤه آناء الليل وآناء النهار»**[1]. وقال في الذي رأى من ينفق ماله في طاعة الله فقال: لو أنّ لي مالاً لفعلت فيه كما فعل، فهما في الأجر سواء[2]. وإن كانت دنيوية فلا خير في

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن. حديث رقم (٥٠٢٥). ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، حديث رقم (٨١٥) من حديث عبد الله بن عمر.

وللبخاري عنه مرفوعاً: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**» فقال رجل: يا رسول

تمنيها كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: الآية ٢٦].

وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: الآية ٣٢]، فقد فُسّرَ ذلك بالحسد، وهو تمني الرجل نفس ما أعطي أخوه من أهل ومال، وأن ينتقل ذلك إليه، وفسر بتمني ما هو ممتنع شرعاً أو قدراً، كتمني النساء أن يكنّ رجالاً، أو يكون لهنّ مثل ما للرجال من الفضائل الدينية كالجهاد، والدنيوية كالميراث والعقل والشهادة ونحو ذلك. وقيل إن الآية تشمل ذلك كله، ومع هذا كله فينبغي للمؤمن أن يحزن لفوات الفضائل الدينية، ولهذا أمر أن ينظر في الدين إلى من هو فوقه، وأن ينافس في طلب ذلك جهده وطاقته، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: الآية ٢٦]. ولا يكره أن أحداً يشاركه في ذلك، بل يحبّ للناس كلهم المنافسة فيه، ويحثهم على ذلك، وهو من تمام أداء النصيحة للإخوان. قال الفضيل: إن كنت تحبّ أن يكون للناس مثلك، فما أديت النصيحة لربك، كيف وأنت تحبّ أن يكونوا دونك؟ يشير إلى أنّ أداء النصيحة لهم أن يحب أن يكونوا فوقه، وهذه منزلة عالية ودرجة رفيعة في النصح وليس ذلك بواجب، وإنما المأمور به في الشرع أن يحبّ أن يكونوا مثله، ومع هذا فإذا فاقه أحد في فضيلة دينية، اجتهد على إلحاقه، وحزن على تقصير نفسه وتخلفه عن إلحاق السابقين، لا حسداً لهم على ما آتاهم الله، بل منافسة لهم وغبطة وحزناً على النفس بتقصيرها وتخلفها عن درجات السابقين، وينبغي للمؤمن أن لا يزال يرى نفسه مقصراً عن الدرجات العالية، فيستفيد بذلك أمرين نفيسين: الاجتهاد في طلب الفضائل، والازدياد منها، والنظر إلى نفسه بعين النقص، وينشأ من هذا أن يحبّ للمؤمنين أن يكونوا خيراً منه، لأنه لا يرضى لهم أن يكونوا على مثل حاله، كما أنه لا يرضى لنفسه بما هي عليه، بل هو يجتهد في إصلاحها.

وقد قال محمد بن واسع لابنه: أما أبوك فلا كثّر الله في المسلمين مثله. فمن كان لا يرضى عنه نفسه، فكيف يحبّ للمسلمين أن يكونوا مثله مع نصحه لهم؟ بل هو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، رقم: (٥٠٢٦) من حديث أبي هريرة.

الله، إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: «**تحجُزُه وتَمْنَعُه من الظلم فذلك نصرُك إياه**»[1] [١] والله تعالى أعلم.

تم بحمد الله ومنته وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً.

يحبّ للمسلمين أن يكونوا خيراً منه ويحبّ لنفسه أن يكون خيراً مما هو عليه. وإن علم المرء أن الله قد خصّه على غيره بفضل، فأخبر به لمصلحة دينية، وكان إخباره على سبيل التحدّث بالنعم، ويرى نفسه مقصراً في الشكر كان جائزاً، فقد قال ابن مسعود: ما أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني، ولا يمنع هذا أن يُحبّ للناس أن يشاركوه فيما خصه الله، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: إني لأمرّ على الآية من كتاب الله، فأودّ أن الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم.

وقال الشافعي: وددت أنّ الناس تعلموا هذا العلم ولم ينسب إليّ منه شيء. وكان عتبة الغلام إذا أراد أن يفطر يقول لبعض إخوانه المطلعين على أمره وأعماله: أَخْرج إليّ ماء أو تمرات أفطر عليها؛ ليكون لك مثل أجري.

[١] قال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير (٥/ ٢٣٢٤):

«**انصر أخاك ظالماً**» بمنعه من تسمية الشيء بما يؤول إليه وهو من وجيز البلاغة «**أو مظلوماً**» باعانته على ظالمه وتخليصه من «قيل» يعني قال أنس: «كيف أنصره ظالماً يا رسول الله» قال: «**تحجزه عن الظلم**» أي تمنعه منه وتحول بينه وبينه «**فإن ذلك**» أي منعه منه «**نصره**» له أي منعك إياه من الظلم نصرك إياه على شيطانه الذي يغويه وعلى نفسه الأمارة بالسوء لأنه لو ترك على ظلمه جره إلى الاقتصاص منه فمنعه من وجوب القود نصرة له، وهذا من قبيل الحكم للشيء وتسميته بما يؤول إليه وهو من عجيب الفصاحة ووجيز البلاغة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام: (٢٤٤٢، ٢٤٤٤، ٦٩٥٢).

وإلى هنا انتهى تحقيق الكتاب والتعليق عليه وشرحه بفضل الله تعالى ومنته ورحمته، فالحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أبو عبد الله

الفهارس العامة



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosailililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

فهرس الأحاديث

فهرس الموضوعات

كتاب المظالم